مانويل ريفاس

الأصواتُ المُرتعشة

ترجمة: جعفر العلوني

LAS VOCES BAJAS

Manuel Rivas

مانويل ريفاس

وُلد الكاتب مانويل ريفاس في مدينة أكورونيا، التابعة لإقليم غاليسيا في إسبانيا. عمل في أول شبابه في مجال الصحافة، وجُمعت تقاريره ومقالاته في كتب: «الصحافة هي حكاية» (١٩٩٧)، «امرأة في الحمّام» (٢٠٠٣)، «بجسد مفتوح» (٢٠٠٨)، كما جُمعت قصائده في ديوان «قرية الليل» (١٩٩٧)، وديوان «ذوبان الثلج» (٢٠٠٩).

حصل في مجال الرواية على جائزة النقد الإسباني عن رواية «مليون بقرة» (١٩٩٠)، وجائزة النقد في اللغة الجاليقية عن رواية «في صحبة همجيّة» (١٩٩٤)، والجائزة الوطنية للرواية عن «ماذا تريدينني يا حبيبتي؟» (١٩٩٦)، وجائزة النقد الإسباني عن «قلم النجّار» (١٩٩٨)، والجائزة الوطنية للنقد بالجاليقية عن «الكتب تلتهب بشدّة» (٢٠٠٦)، والتي تُعتبر إحدى أهم الأعمال في الأدب الجاليقي، وتمّ اختيارها «كتاب العام» من قبل أصحاب المكتبات في مدريد.

فاز بجائزة هاميت للرواية السوداء عن رواية «الصمت في كل شيء» (٢٠١٠)، كما تمّ جمع أعماله القصصية في كتاب بعنوان «الأكثر غرابة» (٢٠١١). من بين آخر أعماله رواية «الأصوات المنخفضة» (٢٠١٢)، و«اليوم الأخير لتيرّانوفا» (٢٠١٥).

١ ـ الخوف الأوَّل

كنّا وحدنا، أنا وماريا، نعانق بعضنا في الحمّام. اختبأنا هناك هرباً من الخوف. في الأيام العاصفة كنا نسمع صوت البحر الهائج، أمّا اليوم فصوت خزّان الماء الصّدئ والمهترئ. أخيراً سمعنا صوتها. في بادئ الأمر كانت تنادينا باضطرابٍ ثمَّ بتوتّرٍ متصاعد. كان يجب أن نردَّ عليها، ونخبرها أننا بخير، لكنَّها سبقتنا. سمعنا لُهاثها ووقعَ خطواتِها، وكانت تسير بنشاط كما لو أنَّها عثرت على طريقها. سحبت ماريا باب الحمّام الجرّار، أمّا هي فدفعت من الجانب الآخر البابَ جالبةً معها الضوء وحاملةً في عينيها عواصفَ من الخوف. كان خوفها خوف أمٍّ تصل إلى البيت ولا تعثر على أطفالها الذين تركتهم يلعبون بهدوء. وخوفنا بدوره كان بدائياً لأنّه كان خوفنا الأول.

كانت أمّي كارمن بائعة حليب، وكنّا نعيش في حيّ مونتي ألتو اللاكوروني في منزل مُستأجَر في الطابق الأرضيّ في شارع مارولا. عاد والدي مؤخّراً من فنزويلا، من لاغويرا، حيث كان يعمل في مجال البناء، في أعلى القمم مُتسلّقاً السماوات على سقالات متقلقلة كما اعتاد القول بنبرته الساخرة. هاجر لمدّة قصيرة، ما يكفي من الوقت لجمع مال كافٍ اشترى به قطعة أرض حيث بنى منزله الخاصّ. بعد سنوات عديدة، في شيخوخته، اعترف لنا بنقطة ضعفه بالرغم من أنّه لم يكن من أولئك الأشخاص الذين يبوحون بأسرارهم: لقد كان يعاني من دوار المرتفعات طوال حياته، غير أنّه قضى عمره وهو يعمل في البناء: من مساعد بنّاء، إلى معلّم، وهكذا إلى أن

تقاعد دون أن يكشف سرَّ أنّه كان يعاني من الدوار ومن خوفٍ يلتهم أحشاءه كلّما نظر من الأسفل إلى الأعلى، ولا سيّما كلّما نظر من الأعلى إلى الأسفل. كان يخاف درجة السلّم الأولى، لكنّ قدمه كانت دائماً تبحث عن الدرجة الثانية، ثمّ الثالثة.

- لكن، لماذا لم تقل ذلك؟

- وماذا سيحلّ بعامل بناء يقول إنّه مُصاب بالدوار؟ مَن سيعرض عليه عملاً؟ دوار؟ لا مكان لهذه الكلمة في قاموسه!

مرّة في لاغويرا أوشك أن يموت لكنّه لم يخبر أحداً بذلك. كان يعاني من الحمّى وهو يعمل فوق خشب مثبت على سقف مبنى مجاور لجرف جبل يتوسّط غابة أشجار وبعض البيوت الخشبيّة. كان الشيء الوحيد الذي يصله بالواقع في أثناء الحمّى صوت الببغاء الذي راح يكرّر اسم امرأة: «مارغريتا!، مارغريتا!». كان يعرف أنّ الطائر موجودٌ، ولربّما المرأة كذلك. في أحد الأيام سمع، أو اعتقد أنّه سمع: «اذهب لتبكيَ في الوادي أيّها الببغاء العجوز!»، غير أنّه لم يرَ قطّ الببغاء العجوز ولا المرأة التي كان الببغاء يكرّر اسمها. بعد أن تعافى من الحمّى، وفي يوم أحد، يوم عطلته الوحيد، خرج بحثاً عن الببغاء. كان يريد أن يتحدَّث إليه ويشكره، ذلك أنّ صوته كان الخيط الوحيد الذي ربطه بالحياة حين أصيب بالحمّى. لم يعثر عليه. لم يعطِ أبي تلك القصّة أيّ تفسير سحريّ. ذلك أنّ الطيور هي مثل الناس تماماً، تأتي مثلما تذهب.

في الصباح الباكر كان يشرب القهوة ثمّ يخرج إلى العمل على درّاجته الناريّة من نوع مونتيسا. كان لدى والدنا، الّذي أصبح معنا الآن بعد أن عاد

من الغربة، درّاجة ناريّة أخرى من نوع فيسبا. اشترى بعد ذلك درّاجة أمبريتا وأصبحت هذه الأخيرة تشكّل جزءاً من تاريخ الأسرة، ولا سيّما أنّه كان يقلّنا بها جميعنا دون أن يشتكي أو يتذمّر من الاستخدام المفرط لتلك الآلة المنزليّة. كان غداؤه القهوة الساخنة لا غير، وحينما يُصاب بالزكام أو الأنفلونزا، يتناول جرعة مضاعفة من القهوة مع حبّة أسبرين. لطالما آمن بالأسبرين إلى حدِّ التعصّب، غير أنّ جسده ثار عليه إلى درجة أنّه لم يعد يستطيع المشي على إحدى قدميه، فكان لا بدّ من إدخاله المستشفى. أخبرنا الأطباء الّذين عالجوه أنَّ هنالك آثاراً لنوبتين قلبيتين سابقتين على الأقل. كان قد نجا من تلك النوبات القلبيّة التي عانى منها سرّاً، غير أنّ صمته ترك علامات في جسده كتلك العلامات التي تتركها رموز الكتابة بنظام بريل على الورقة. في أحد الأيام أخبرنا، بشكل عرضيّ، أنّه فقد قوّة ذراعيه في أثناء العمل على أسطح أحد المنازل. حينها شعر بعجزٍ تامٍّ فيهما فتوقّف عن العمل وراح يتأمّلهما بغرابةٍ كرفيقتين قديمتين فقدتا عجلة الصواب. لقد أمضى حياته وهو يرفع بهما الأوزان، لكن في تلك اللحظة شعر بهما ثقيلتين جدّاً. كانت ذكريات شبابه تضحكه كثيراً، ولا سيّما الفترة التي كان فيها موسيقياً في أوركسترا الرقص. لطالما ذكر لنا وهو يضحك من قلبه حادثة عازف الدرامز الذي، مسحوراً بعزف رفاقه الموسيقيين، نسي لحظة دخوله القاعة فظلّ الجميع ينتظرونه، بما في ذلك مَن كانوا يرقصون، وهكذا سمع الجميع صرخة المايسترو العفويّة: «الصنج يا غلام! لتتفجّر عجائب الدنيا!». كانت صرخة المايسترو بمنزلة لحظة انفراج كونيّ، وتحوّلت إلى جزء من العرض. أمّا الشابّ فقد تأخر بعض الشيء في استيعاب ما يحدث: العجائب، الصنج، والراقصون. أخيراً تمكّن من إدراك الأمر ودخل القاعة

ليرقص ويعزف المساء كلّه. وهكذا كان والدي، عندما تعبت يداه من العمل، لم يفكّر في النوبة القلبيّة وإنّما في ذلك الدافع الناجع: «الصنج يا غلام! لتتفجّر العجائب».

وعلى غرار والدي الذي لم يكن بإمكانه أن يعترف أنّه مُصاب بالدوار، لم يكن في مقدور أمّي أن تمرض هي الأخرى. لمّا كانت تشعر بأيّ انتكاسة أو بداية توعّك صحيّ، حتّى لو كان تعباً خفيفاً، سرعان ما تدبّر الظروف للتحايل على المرض بطرائق لا تنتهي. واقع الأمر المزعج أنّها لم تكن ترتاح قطّ، لم يكن لديها إلا لحظتان حقيقيتان تهرب بهما من واقعها؛ الأولى، عندما كانت تذهب صباح كلّ يوم أحد إلى الكنيسة، ليس من أجل القدّاس بحدّ ذاته، وإنّما لأجل فعل الذهاب إليه وحضوره. كانت تلك واحدة من لحظاتها الأفيونيّة التي تخدّرها هدوءاً وصفاءً. أمّا لحظة هروبها الثانية فهي عندما تقرأ، ولا سيّما قراءة الجريدة بعد تناول الغداء وغسل الأطباق وترتيب كلّ شيء في مكانه. كانت تلك اللحظات طريقاً للهرب من الواقع، إذ كانت عبارة عن بضع دقائق لشرود ذهنيّ كليّ. كذلك كان الحال بالنسبة لعلاقتها مع الكتب ومع كلّ كتاب جديد يدخل بيتنا، كانت علاقة مثيرة للإعجاب، وكانت سعادتها عارمة إلى درجة أنّه لو صرخ أحدهم منبّهاً بحدوث حريق أو فيضان أو أيّ شيء آخر، لم تتنبّه أمّي إلى ذلك ولبقيت مسحورة ومخطوفة بالقراءة، دون أن تجيب أو ترفع عينيها عن الكتاب. كانت ردّة فعلها الوحيدة الاقتراب قليلاً من المصدر المشتّت لانتباهها.

في إحدى المرّات بدا كأنّه سيحدث، أعني المرض. في ذلك اليوم قالت لنا: «لستُ على ما يرام، سأذهب وأستلقي قليلاً». أذكر أنّ مدّة تعافيها لم تتجاوز المدّة التي تستغرقها لحضور قدّاس أو لقراءة كتابٍ ما.

ولّما زارها المرض حقاً، لم يزرها على غرار القصّة التي روتها لنا، كما أنّه لم يأتِ كزائرٍ قطّ:

- مَن الطارق؟ سأل الفلّاح العجوز بخوفٍ عندما سمع من سريره صوت مطرقة الباب في ليلة شتويّة.

- هذا أنا. قال صوت الموت الذي لا لبس فيه. افتح حالاً!

- اذهب من هنا، ما من أحدٍ في المنزل!

فأجاب الموت بتذمّرٍ: من الواضح أنّ وقتكِ لم يحن بعد!

ربّما كان عليّ أن أبدأ من هنا، من همسات الضحكات الأولى المرتبطة بحكاية ما. يُحكى عن قبيلة، من آكلي لحوم البشر، خطفت بحّاراً ووضعته في قدرٍ كبيرةٍ للطهو، ومن ثمّ أضافوا إليه البطاطا والبقول لطهوها معه كطبقٍ جانبيٍّ. لّما بدأ الحساء يغلي في القدر، أخذ آكلو لحوم البشر يرقصون حول النار كطقس اعتادوه لفتح الشهيّة، حينها رمى رجلٌ من غاليسيا نفسه في حساء القدر وأكل بتلذذ آخر حبّات بطاطا وبازلاء في حياته. عندئذ صرخ رئيس قبيلة آكلي لحوم البشر متعجّباً: «انظروا ما أكثر طعامنا اليوم!». إنّها حكاية تبعث على التفاؤل، وهي شبيهة جداً بالحكايات التي كان يرويها كارلوس أوكسيستال في برامجه الإذاعيّة ظهيرة كلّ يوم أحد. كان أوكسيستال من المشاهير الغريبين في طفولتنا، وكان أبطاله من شخصيّات قرويّة متواضعة جدّاً، غالباً ما تخرج منتصرة في نهاية كلّ قصّة بسبب براعته وسخريته. تكلّمت شخصياته باللغة الغاليسية، وهو أمر نادر في البثّ الإذاعيّ. حتّى إنّه تمكّن من إثارة الضحك العميق عبر تقليد أولئك الذين يحاولون إخفاء لهجتهم، كأنّها وصمة عار، وذلك عبر مواقف كوميديّة مثل

حكاية الصبيّ الذي يتأخر عن طائرته المتجهة من لا كورونيا إلى بوينوس أيريس، وهكذا عندما يعود إلى المنزل، دون مغادرته غاليسيا، يتصرّف ويتحدّث كمؤلف أغاني التانغو.

كانت اللغة الغاليسيّة تظهر في مواقف مشابهة، وقد استطاع أوكسيستال أن يبرز ذلك ببراعة. كانت ثمّة مشكلة في طريقة نطق اللغة، وهذا يبدو واضحاً حين التحدّث بها في أماكن أو لحظات أو مواقف معيّنة، إذ تبدو كأنّها خطيئة على الشفاه. لطالما عاشت اللغة الغاليسيّة في كهوف الأفواه، لكن بطريقة غريبة الأطوار، تماماً مثل متسوّل يتفحّص طريقه ورفقته قبل الشروع في المشي. ذات يوم زارنا في المنزل أحد معارف والدي ليخبرنا أنّه أخيراً قُبِل للعمل كبوّاب في أحد البنوك، فهنّأه أبي وقال له: «عليك أن تشتريَ بدلة جديدة إذاً». فأجابه صديقه بجملة غريبة جداً لا أعلم إن كانت تستخدم في علم لغويات النسيج: «لقد اشتريت البدلة، البارحة فقط عقدت ربطة العنق، ولمّا عقدتها بدأت التحدّث بلسانٍ إسبانيٍّ أنيق». اعتاد أوكسيستال أن يُضحك الجميع تقريباً من خلال سخريته من الجميع تقريباً، وقد استخدم من أجل غرضه إبراً تلسع في الأجساد الحسّاسة الموضوعات المحرّمة والمعقّدة. وفي مرّات عدّة، على غرار الفرص التي تتاح للمهرّج أو الكوميديّ، أحيا أوكسيستال عروضاً في مناسبات غداء حيث يلتقي رجال السلطة من الصفّ الأول في أثناء زيارتهم غاليسيا. إلى أن اختفى فجأةً. اختفى صوته عبر المذياع، وكذلك صورته في الجرائد مرتدياً بدلته التقليديّة دائماً. غير أنّني لم أكن واعياً تلك الفترة كما ينبغي، بما في ذلك اختفاء أوكسيستال. في الحقيقة، توقّفت آنذاك عن الاهتمام بذلك النوع من الفكاهة التقليديّة، وأخذت اهتماماتي منحىً مختلفاً، وهكذا إلى أن أطلعت في أحد

الأيام على خبر ظهور الكوميديّ المخضرم، لكن ليس في صفحة المشاهير، إنّما في صفحة الحوادث. كان الخبر عبارة عن مذكرة بوليسيّة تروي عمليّة إلقاء القبض على عدد من الأشخاص ممّن عُدّوا «شخصيّات خطرة على المجتمع» وكان أوكسيستال بينهم. بعد سنوات عدَّة أجريتُ مقابلة معه، وقصَّ عليّ حكايات مرعبة عن المعاملة الوحشية والمذلة وتجربته القاسية في أثناء حبسه في سجن مدينة بطليوس المروّع، كلّ ذلك بجريمة كونه مثليّ الجنس في عهد دكتاتوريّة الجنرال فرانكو، إذ كان القانون آنذاك يعامل القوّادين والديوسين ومثليي الجنس على حدّ سواء. لمّا خرج أوكسيستال من السجن وتعاملوا معه بأنّه صاحب سوابق، أصبح متمرّداً وثائراً، وعاش حياة متواضعة إلى جانب والدته الفلّاحة في قرية ساحليّة في لا كورونيا تدعى ليما في بالدايو، كما أنّه راهن على قيادة حركة مقاومة وقفت في وجه مجمّع تجاريّ كبير أراد خصخصة مساحة طبيعيّة كبيرة، وقد نجح في منع بناء المتجر التجاريّ. اكتسبت حكاياته التقليديّة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمسيرة حياته بُعداً جديداً. كان ثمَّة كثير من الألم وراء الدعابة. تذكّرته منذ مدّة قصيرة وخطرت في بالي سخريته اللاذعة التي كانت وستبقى تلك السخرية التي تسهر مع الموتى وتحاول أن ترافقهم إلى الآخرة أيضاً، وكان ذلك عندما قرأت على جدار مقبرة الساحل كلمة «مخفيّ» التي كتبت بالأسفلت عن الموتى. أو لعلّ الموتى كتبوها للأحياء؟

ثمّة محادثة لا يمكن أن أنساها أبداً تعود إلى قسم التسجيلات غير المرخصة لعمر الطفولة، وهي من تلك المحادثات التي يتعرَّف فيها المرء، بطريقة عفوية، على كتابَ الحياة مقروءاً بفم الأدب. كنا نعيش في كاسترو دي ألفينيا، حينها أقبل على غاليسيا شتاء باردٌ وحشيٌّ وقاس، هطلت خلاله

أمطار غزيرة لا نهاية لها، إلى درجة أنّ والدي لم يتمكّن من العمل لأيّام عدّة بسبب الرياح العاصفة التي أطاحت بكلّ السقالات الموجودة على الأبنية. أمضى أبي تلك الأيّام متوتّراً، جليس النافذة التي راح يمسح من عليها بخار تنفّسه كي يرى مناورات الفيلق العاشر لتلك العاصفة الجويّة.

وفجأة صرخ:

- ليت أحدهم يهديني أسبوعاً في السجن!

كانت أمّي تحوك الجوارب للمولود الجديد الذي سيأتي أسرتنا، كنّا ننتظره، وكان على الطريق، فمنذ أيامٍ وأشهر وهي تحوك جواربَ وملابسَ صغيرة الحجم في حين يكبر رحمها أكثر. لقد أصحبت سنارة الحياكة امتداداً ليديها، وفجأة توقّفت عن الحياكة، وشبكت يديها كأنّها ترتقب حدثاً ما.

- أمّا أنا فسأدخل المستشفى سبعة أيام!

كنّا أنا وأختي ماريا نكتبُ واجباتنا المدرسيّة على طاولة المطبخ، فنظرنا إلى بعضنا في تلك اللحظة: سجن؟ مستشفى؟ يا له من مستقبل واعد! كانت بين أبي وأمّي لغة تواصل سريّة لم نكن نفهمها بشكلٍ كامل، لكن كما بدا، كانت إجابتها مقنعة، إذ ابتسم الاثنان نصف ابتسامة. هكذا كان التواصل بينهما: يخطّطان لإشاعة، يحبكانها جيّداً، ومن ثمّ يسكتان. إنّهما طليعيّان وجوديان بامتياز.

غير أنّ حديث أبي كان قليلاً جدّاً وليس فيه أيّ بلاغة، على الرغم من أنّه في بعض الأحيان كان يطلق جملاً عجائبيّة واستثنائيّة، فحينما يتذكّر أنّه حضر حفلاً ما يقول: «شربنا مثل القوزاقيين». كنت أحبّ أن أشعر أنّني ابنٌ لرجلٍ قوزاقيّ عندما كان يقول تلك الجملة، بمجرّد

لفظه تلك الكلمة الأجنبيّة الدخيلة: «قوزاقيّ»، فاتحاً عينيه بدهشة ومجسّداً، في الوقت نفسه، شخصيّة القوزاقي. كان يقول أيضاً «إنّه ثمينٌ ويساوي ثمن بوتوسي!». وماذا كان يعني ببوتوسي؟ بوتوسي هي بوتوسي، وهي وحدة حساب غامضة للأشياء الثمينة أتقنتُ استخدامها بفضل والدي. لمّا ظهرت كلمة بوتوسي في خريطة الموسوعة المدرسيّة، في إشارة إلى مناجم الفضّة في بوليفيا، كانت الكلمة قد أصبحت من إرث الأسرة كونها اسم مكان. كذلك كان يثير فضولي استخدامه هذه العبارة «إنّه بهيمةٌ إلى درجة أنّه لا يعرف أسماء الأشجار» للتعبير عن أعلى درجات الجهل. في **الأوديسة**، ينجح أوديسيوس في إقناع لايرتيس الأعمى والشكاك بحقيقة أنّه ابنه إذا تمكّن من تذكّر أسماء جميع الأشجار في حديقة إيثاكا التي سمّاها له الأب في طفولته. لمّا استحضرتُ تلك العبارة في الحصّة الدرسيّة في المعهد، ارتجف صوت المعلّمة وتمكّنتُ من رؤية الحديقة في عينيها الزرقاوين كالمحيط. كانت لوث بوزو، إضافة إلى كونها مدرّستنا في المعهد، شاعرة وعازفة بيانو. كانت امرأة ناضجة يعشقها جميع الطلاب بدءاً من أصغرهم سنّاً حتّى مدرّس الجمباز العسكريّ العجوز، مروراً بالبوّاب ومدرّسة اللغة الفرنسيّة، إضافة إلى الرهبان الذين كانوا يدرّسوننا الديانة، ومن لم يعشقها فلأنّه لم يتعرّف إليها. وقد رُوي عن شعراء قصدوا غاليسيا بالدّراجات الناريّة، في أثناء عطلة نهاية الأسبوع، قاطعين مئات الكيلومترات، من أجل رؤيتها فحسب. واستطعنا التأكّد من صدق تلك الروايات، بعد سنوات عدّة، عندما غادرت على درّاجة ناريّة رفقة الشاعر إدواردو موريراس. إلّا أنّنا الآن معها في المعهد. تدخل لوث القاعة كنجمة

إغراءٍ وتبعث فينا، داخل القاعة، السكينة أكثر من الإثارة. كان إيروس، إله الحبّ، ينزل بخطا ثابتة، ولا سيّما ونحن نفكّ رموز كلّ شطرٍ من قصيدة «**بوليفيموس**» للشاعر الإسبانيّ غونغرا. وحقاً كان ثمّة فرقٌ شاسع بين الحديث عن الأدب والإنصات إلى شفاه الأدب نفسها، وهذا ما كنتُ أنصت إليه بوضوحٍ، عندما كانت لوث تقصّ علينا ما كان يحدث، في ذلك الوقت، في حديقة إيثاكا، حيث امتزجت الذاكرة بمخطوطة الأرض، وكان أوديسيوس يعدّ أسماء أشجار التين والتفّاح والكثمرى والعنب. وكنتُ أنا، أنا فحسب، أتذكّر النصّ الهامس الآخر الذي لطالما ردّده أبي للتعبير عن أعلى درجات الجهل: «ألّا تعرف، أو ألّا ترغب في معرفة أسماء الأشجار المحيطة بكِ».

اعتاد أبي عندما يتشاجر مع أمّي أن يقول لها جملة غامضة ومبهمة بعض الشيء:

- أنتِ روح التناقض!

أمّا هي فلم تكن تخفي أفكارها، ربّما كانت طيبة، طيبة جداً، لكنّها عنيدة أيضاً. في الفترة التي عاشا فيها، كانت القوانين المتعلّقة بالمرأة أكثر انحطاطاً من العقليّات، إذ تعاملوا مع المرأة على أساس أنّها كائن تابع، لا تستطيع القيام بأيّ شيء بمفردها، دون موافقة الرجل. لم تقبل أمّي ذلك الخضوع، وعرف أبي ذلك جيّداً، لذلك لّما كان يشعر بالضيق، كان يشير إلى تأثير ذلك الكائن غير المرئيّ في أمّي، روح التناقض، الذي صار مع الوقت جزءاً من أسطورتنا المنزليّة. وفقاً لأبي، لم يكن أيّ منهما اجتماعياً، بل شكّلا معاً وحدة زوجيّة تتألّف من شخصَين منعزلين، غير أنَّ عزلة كلّ واحدٍ منهما كانت مختلفة عن الآخر. كان أبي، مثلاً، يتجنّب التجمّعات قدر استطاعته، وعند

أيّ حدثٍ رياضيّ، شعرَ بنفور حقيقيّ، حتّى إنّه حاول أن يُعديني في مقته لكرة القدم ويبعدني عن الملاعب. كان لدينا آنذاك جار يدعى غريغوريو، عضو في رابطة مشجّعي فريق ديبورتيفو لاكورونيا الكرويّ، ويعمل، إضافة إلى ذلك، تقنيّاً في إذاعة لا كورونيا، وقد عرض عليّ أكثر من مرّة أن أرافقه إلى ملعب ريازور لحضور نادي ديبورتيفو وهو يلعب. كانت تلك الساعات الملحميّة لظهيرة كلّ يوم أحد، حيث يلعب فيها نادي ديبورتيفو لإثبات وجوده من عدمه، هي الوقت المثاليّ بالنسبة لأبي كي يزرع الحقل. ولمّا كنت أشعر بالاكتئاب واليأس لعدم قدرتي على الذهاب، حاول كثيراً إقناعي أنّ ذلك الشغف المتمثل في رؤية فريقَين من الرجال يلهثان وراء كرة ليس إلّا ضرباً من هزيمة للبشريّة وانحطاطاً لها، واستمرّ في محاولته إلى أن تلقّى هزيمته الشخصيّة عندما رافقت غريغوريو إلى ملعب ريازور أخيراً. بعد الخروج من الملعب، ذهبنا لزيارة أسرته، كان بيت أسرته مفتوحاً على صالون حلاقة نسائيّة. بينما كان الرجال يتحدّثون، رحت اختلس النظر بفضولٍ إلى ذلك المكان الساحر بجدرانه المليئة بالمرايا وكراسيه ذات الخوذ البخاريّة المزعجة حيث تحصل تحولات الرؤوس، أو ذلك التعبير الكوافيريّ الغامض «تجعيد الشعر الدائم». وقد لمعت ألوان طلاء الأظافر كيعسوب متنوّع الألوان على أظافر غائبة، ذلك أنّ صالون الحلاقة كان خالياً. وقد سيطر على الجوّ سحرٌ كلّما قاومه المرء أكثر، انجذب إليه أكثر، ربّما كان سحر أن تكون امرأةً، أو ما يشعر به الإنسان لو كان امرأة.

حين عودتي إلى المنزل، ليلاً، كان والداي يستمعان إلى الإذاعة، وقد اعتادا الاستماع إليها بعد إطفاء جميع أضواء الغرفة والاكتفاء بالضوء المنبعث من شاشة المذياع. كان المنزل الذي نعيش فيه شبيهاً بسفينة عُلقت

في أعلى الجبل، تصفر فيه هرمونيكا الريح من كلّ صوبٍ، ولا سيّما من قرميد المنزل، وكانت ومضات المنارة تلعق بين الفينة والأخرى ظلام الغرفة الدامس. وقد بدا هذا كلّه كمؤثرات خارجيّة امتزجت بصوت المذياع. كنّا داخل المنزل وخارجه في آنٍ معاً. وقد شكّلت أصوات المذياع، بما في ذلك لحظات انقطاع إشارته، جزءاً من الطبيعة والحياة التي نودّ أن نرويها في شكل قصّة. فمنذ وهلة كنت في ملعب ريازور، وبعدها في هذه السفينة المعلقة في الهواء، كذلك شهدت هتافات المشجعين تعلو وتنخفض، وكنت في صالون الحلاقة النسائيّة الرائع أستمتع بانعكاسات الألوان والمرايا. أمّا الآن، فأنا أستند إلى زجاج نافذة الليل، متماهياً مع هذا الرجل الذي يكره كرة القدم، وهذه المرأة التي تتحدّث بمفردها.

يمكن أن يكون والدايَ صامتين للغاية أو ثرثارين جدّاً، وقد تعلّمتُ منهما أنّ للغة فصولاً تتكاثر فيها الكلمات أياماً معيّنة، وتعيش الحداد في الأفواه أياماً أُخر، تارةً تجترّها الأفواه، وتارةً أخرى تتساقط بعيداً عن الشفاه كأوراق يابسة تتطاير في مسارات ناقمة. ومع هذا كلّه اتّسم والدي بخصوصية فريدة في الكلام ميّزته عن غيره من الرجال البالغين، إذ لم يكن يجدّف أو يلعن أو يسبّ حتّى ولو كان في أشدّ حالات غضبه. لذلك لم يجد نفسه مضطرّاً في أيّ مرة تقريباً إلى استحضار الله أو العذراء أو ذكر القدّيسين وملائكة السماء وجعلهم ينزلون بطريقة سيّئة. حتّى إنّه لم يكن يزعج الشيطان بتاتاً في أيّ أمر، وكنت أعتقد أنّ ذلك بدهيّ بالنسبة لأمّي المؤمنة، أمّا بالنسبة لوالدي فقد أدهشني فيه الأمر، ولا سيّما أنّه لم يطأ الكنيسة قطّ. في الواقع، كان حضور الرجال قدّاس يوم الأحد أمراً نادراً جدّاً، إذ كانوا يحضرون التشييعات والجنازات والتأبينات السنويّة، إضافة

إلى بعض المناسبات الدينيّة، لكن حتّى حين حضورهم هذه المناسبات، كانوا ينتظرون خارج الكنيسة، في فنائها الخارجيّ، أمّا أولئك الذين يدخلون فكانوا ينتظرون في آخر المعبد. لم يعتد الرجال الركوع، وإذا ما فعلوا ذلك، ركعوا على ركبة واحدة فقط. اعتادوا الانتظار واقفين في منطقة الظلّ الموجودة عند الكورس، وكان أمراً نادراً جداً مشاركة الرجال في مناسبات المناولة الأولى والقربان المقدّس، ذلك أنّ أخذ الصورة المقدّسة يتطلّب الاعتراف بالخطايا، والذهاب من أجل الاعتراف للكاهن بالخطايا هو بمنزلة امتحان لتحمّل قدرة الأب. لّما كان والداي يتناقشان في هذه المسألة، كنا نتوقّع من أبي أن يطلق وابلاً من اللعنات عليهم، إذ كانت معالم وجهه توحي بذلك.

- ما الكاهن؟ أنا سأقول لك ما هو. إنّه...

كان يجيب عن سؤاله بغضبٍ وبأكثر الكلمات لباقةً وتعبيراً:

- إنّه رجل! ليس الكاهن إلّا رجلاً!

غير أنّ كلّ هذا حدث بعد خوفنا الأول بكثير. تتجوّل الذاكرة كما يحلو لها. تخترق الحقول وتعبر الطرق مخاطِرة بنفسها. إنّها تمشي في السينما المجاورة لمنزلنا على غرار شخصيّة المتسوّل الّتي مثّلها تشارلي تشابلن. للذاكرة طريقة مشي تشبه مشية النساء اللواتي يحملن الأكياس على رؤوسهنّ، كلهنّ أو غالبيتهنّ يحملن أشياء، امتداداتٍ لأغراض أساسيّة. ولها أيضاً طريقة مشي تشبه مشية بائعة حليب، وهذا عمل أمّي. كانت توزّع الحليب في مونيلوس أولاً، ومن ثمّ تأخذ الترولي باص وتستأنف التوزيع في متجر أسونثيون في حي مونتي آلتو. كذلك كانت تبيع الحليب في مركز عسكريّ بيطريّ،

وذات يوم همس جنديٌّ في أذنها بتواطؤٍ وقال: «ضعي قليلاً من الماء دون خوف، هنا يزيدون كميّة الماء!» في تلك الفترة كنّا نسكن في شارع مارولا، في بيت مستأجر في الطابق الأرضيّ. كانت ماريا في الثالثة من عمرها وأنا في الثانية. في ذلك الوقت، وقبل أن تُعمي موجة الفوضى المعماريّة المكان، كان للشارع أفق مفتوحٌ تماماً ينتهي عند محيط برج هرقل. وفي مكانٍ قريبٍ من منزلنا، على الطرف الآخر، وُجِدَ ما يُعرف بالبيت الريفيّ العتيق. غير أنّه لم يكن متحفاً غرضه وصف الأعراق البشريّة، بل كان منزل فلّاحين حقيقيّاً على حدود المدينة الساحليّة، احتوى أبقاراً وعرباتٍ قديمة، وكانت زيارته بمنزلة رحلة فضائيّة ولا سيّما عندما نركب تلك العربات ونطوف الحقول الخصبة المجاورة الغنيّة بمحاصيل جيّدة وبطاطا بنكهة البحر. لقد شكّل بمراعيه وبساتينه وأشجار صفصافه وأسراب طيور الشحرور التي تحطّ على شطّ لاس لاباس جزءاً من ذاكرتي. كذلك الأبقار التي كانت تجول بين الحدود الحضريّة والمنحدرات، فقد شكّلت في ذاكرتي لوحة بوب فلكلوريّة أسطوريّة. والأحلى أنّ أبقاراً برمائيّة، تعبر الشمس، كانت تصل إلى برج هرقل، المعلن كموقع للتراث العالميّ. أمّا الآن فقد امتلأ ذلك المكان بالتماثيل الجامدة وبعشب من تصميم البلديّة، وبات اللون الأخضر الأكريليكيّ يطغى على ألوان الطبيعة البريّة، ومع هذا كلّه اختفت أبقار الزمن وتلاشى خوارها في البحر.

كنا وحدنا في ذلك الطابق الأرضيّ في لا مارولا، جالسين على الأرض، وكنتُ ألهي نفسي بلعبة الشاحنة الصغيرة وببلاطة غير مثبتة في الأرضيّة تمكّنت من انتزاعها، وإذ بحشرة ما تحتها، صرصور لا أكثر ولا أقلّ. عن نيّة طيبة حاولتُ الإمساك به، إذ رغبت في أن أفتّله في الشاحنة، لكنّه دأب على

الهرب متوقّعاً استراتيجيّة يدي في كلّ مرّة حاولت فيها إمساكه. لقد عثرت للتوّ على لعبةٍ رائعة: مطاردة الصرصور! التفتت ماريا إلينا متابعة عمليّة المطاردة وبدت على وجهها أمارات السعادة. فجأة نهضت وتوجّهت مسرعةً إلى النافذة المطلّة على الشارع. لحقتُ بها كعادتي، وبشكل متناظر، راحت ماريا تمشي وتلوي قدميها إلى الخلف، ولويت قدميَّ إلى الأمام بحيث ارتطمت ركبتاي ببعضهما بعضاً. كانت عمّتنا تعرج أيضاً، ولطالما قالت عن نفسها إنّها عرجاء. غير أنّ كلّ مَن رآها كان يقول عنها ويهمس أنّها جميلة المظهر، وأنّ عرجتها حلوة. لكنّنا الآن بمفردنا، أنا وأختي ماريا، هي تركض بقدمين مفتوحتين وأنا بقدمين مغلقتين. سمعنا صوت الموسيقا قادماً من الشارع. كان المهرّجون يرمون قصاصات الورق الملوّنة، ويطلقون الألعاب الناريّة. رحنا نشاهد ذلك الحفل من وراء النافذة التي بدت لنا كشاشة تلفاز رائعة إلى أن غطاها، فجأة، وحشان بعينين خاليتين من الرحمة، وأنفين كبيرين كادا يلامسان زجاج النافذة. لم يسبق لنا أن رأينا عن قرب شيئاً مرعباً كهذا من قبل. لقد كان الخوف بحدّ ذاته.

- أيّها الغبيان! قالت لنا أمّي. هذان عملاقان متنكّران برأسين كبيرين. إنّهما من الملوك الكاثوليك.

٢. جالساً في حقيبة المهاجر

طوال عامٍ كامل كان مقعدي في تلك الحضانة الغريبة عبارة عن حقيبة. كمَن يجلس منتظراً في الجمارك. بعد خوفنا الأول، خوفنا من هجوم الملوك الكاثوليك ذوي الرؤوس الكبيرة، قرَّرت أمّي ألَّا تتركنا، أنا وأختي ماريا، وقتاً طويلاً بمفردنا حين خروجها لتوزيع الحليب. مرَّات كثيرة اعتنت بنا عرّابتي أميليا، إذ كانت تسكن فوقنا في الطابق العلويّ. كان عرَّابي، بيبي كوثيرو، يعشق الآلات والميكانيك وكلّ ما يتعلَّق بالتطوّر العلميّ بشكلٍ عام. لقد كرَّس براعته لفترة من الزمن للمحرّكات الحراريّة. كان قادراً على تصنيع سيّارة ذات مقعدين باستخدام هيكل درَّاجة ناريّة، وكانت نيّته التجوّل في شوارع غاليسيا على متن تلك الكبسولة، وبعدها الذهاب أبعد من ذلك إلى جبال البرانس، ومنها إلى أوروبا. لطالما ردَّد جملة إشكاليّة إلى حدٍّ ما: «في البلدان المتقدّمة، الريف كلّه منظر»، محدّقاً الأفقَ بحتميّة عالمٍ يعرف أنّ بلد غاليسيا لن يتحرَّر أبداً، ولا حتّى سنتمتر واحد. كانت لديه دائماً روح ماركو بولو، إلى درجة أنّه عمل كبائع للتوابل وخبيرٍ في تلك البضائع العطرة. المرّة الأولى التي راودني فيها الشعور أنّ ثمَّة شخصاً في هذا العالم قادراً على تفجير ثورة فكريّة وخلخلة النظام العالميّ للأوزان والقياسات، كانت عندما كشف لي عرّابي عن طرف سبّابته المصبوغ بالتوابل، حينها حدّقني وقال بوقارٍ: «كيلو من الزعفران أثمن من كيلو من الذهب».

في أحد الأيّام اصطحبني معه في إحدى رحلاته الاستكشافيّة كبائع توابل، وأذكر أنّها كانت الرحلة الحقيقيّة الأولى في حياتي.

- إلى نهاية العالم! صرخ بحماسٍ.

في طفولتي اعتدت فهم الأشياء بحرفيتها، وكنت جاهزاً للذهاب حقاً إلى نهاية العالم، لكنّي قلقتُ بعض الشيء إلى أن هوّن عليّ وربّت على كتفي قائلاً: «سترى كيف سنصل إلى فيستيررا». وبالفعل، وصلنا بعد رحلة دامت يوماً كاملاً، منذ طلوع الشمس حتّى حلول الليل، عبرنا فيها ساحل المورتي وصولاً إلى نقطة النهاية، الحدود، على متن تلك المركبة الكبسوليّة الصغيرة من نوع سيات ٦٠٠. وبينما كنّا نتوقّف في المتاجر ومحالّ البقالة والمطاعم، كان عرّابي، ذلك الرجل قصير القامة، يكبر في قامته التاريخيّة، وشعرت بالفخر لمرافقة بائع التوابل. بهارات وقرفة وزعفران! كان الجميع يستقبلنا بحفاوة كسفيرين للرفاهية وناقلين للمنتجات التجاريّة الثمينة، سواء في أظرِفة صغيرة احتوت كميّات قليلة من البهارات مختلفة الألوان والروائح والطعم تتناثر حين فتحها، أم في قوارير زجاجيّة طُبعت عليها صور لنساء جميلات تبعاً لنوع الكنز البهاريّ. كنتُ قد رأيت نساءً أعرفهنّ، مثل أمّي نفسها، أو الجارات، وهنَّ يعبِّئنَ تلك الأظرِفة ويطوينَها بخفّة الساحرات. في تلك اللحظة شعرت أنّ جمالهنّ شبيه بجمال النساء في الصور القديمة. إضافةً إلى الجمال وإتقان العمل، كنَّ يفعلنَ ذلك بين ضحك ومزاح، وكنت قد لاحظت فرقاً كبيراً بين الرجال والنساء في أثناء العمل في فريق، فالرجال أقلّ كلاماً من النساء.

في طريق العودة، بالقرب من كاربيلو، قال العرّاب «والآن، هيّا بنا لشراء سوفونير». وما هو السوفونير؟ أجابني بفرحة واضحة: «تذكار

لأمّك». حينما نقول «هديّة لأمّي»، دائماً ما كان هذا الشيء يعني هديّة للمنزل، أي للجميع، وسرعان مع اعتدنا ذلك. أمّا الهديّة التي اشتريناها لأمّي فكانت عبارة عن كعكة مخبوزة ضخمة لم أتمكّن من حملها بين ذراعيّ، شبيهة بعجلة طريّة نصف كرويّة، بدت كأنّها تتخمَّر بين أحضان جسدي الخامل في أثناء طريق العودة.

- يا لهذه الكعكة! كأنّها عالمٌ بأكمله. قالت أمّي.

نعم، لم تكن مجرَّد كعكة فحسب، كانت أكثر من ذلك، وقد نسيت. إنّها سوفونير، السوفونير الأوّل.

كان ثمّة معارف سرّية أخرى في أثناء رحلة العبور، ولا سيّما أنّ الطريق الذي اتبعناه كان له شكل مثلث إذا ما حسبنا الأماكن الأثريّة بأنّها نقاط التقاء. النقطة الأولى مقبرة سان آمارو المطلّة على البحر، إذ كان أهالي القرية يصفونها بأجمل التعابير الممكنة: «إنّها مقبرة صحيّة لا مثيل لها في العالم كلّه»، ثمّ يشرحون سبب جودتها «فاتجاهها جيّد، ومنيرة، ونسيمها بحريٌّ عليل». أمّا النقطة الثانية فكانت بالقرب من شارعنا، وهي سجن المحافظة. يشغل المكان اليوم الكثير من العمارات والأبنية، لكن في ذلك الوقت، من هناك، حيث المنحدر، كان من الممكن رؤية المساجين وهم في فناء السجن مساءً. أحياناً، كانت تتعالى همسات أغنية ما. كان مكاناً عاصفاً إلى جوار بحر هائج طوال الوقت تقريباً. وكثيراً ما دمج صخب الرياح والموج الهمسات والأصوات والهتافات بمنهجيّة موسيقيّة ميكانيكيّة. اعتاد صوتٌ واحد فحسب أن يتحرَّر من اندماج الأصوات الأخرى، كان صوتاً قادماً من ورشة تقطيع حجارة تتموضع عند سفح جبل المنارة، حيث بدا صوت المطرقة وفق أشكال الأحجار المختلفة من الغرانيت والصلبان وشواهد

القبور مثل صوت دقّات عقارب ساعة حاقدة. ومع نهاية اليوم والعمل ترقد المطرقة في سُبات وراحة، والصمت يخيّم على سفح الجبل. وفي بعض الأيّام اعتاد الأهالي الصعود إلى المنحدر لرؤية المساجين والتحدّث إليهم باستخدام مناديل مختلفة الألوان ترمز إلى أشياء يفهمونها فيما بينهم. «انظروا، إنّه هناك، كم هو قريب!» وما أبعده في الوقت نفسه! كلّ شيءٍ بدا قريباً وبعيداً من ذلك المكان الموحش، كلّ شيء بدا في متناول اليد وبعيداً في الوقت نفسه. مع ذلك لم يكن السجن ولا المقبرة مكانين يثيران الأمل حينئذ، وكان لا بدَّ من البحث عن الأمل والالتفات إلى نقطة الالتقاء الثالثة. هناك كانت حقاً. إنّها المنارة!

كان ضوء المنارة كنور كائن حيّ يستيقظ مع كلّ غروب مثل همسة مشعّة تعيش ليلاً. وفي أثناء الضباب الكثيف يخور ذلك الكائن كالبقرة. لم يكن لضوئها وميض مفاجئ ومزعج للنظر، بل كان ينتشر بشكل تدريجيّ ليملأ فراغات الغروب، ولا سيّما في ذلك الوقت الذي يصبح فيه كلّ شيء غريباً عن نفسه. كانت منارة هرقل تضيء المكان، وفي الوقت نفسه تشعركَ بأنّها تعكس كلّ ما تلامسه، بما في ذلك ما يحدث بين الصخور والأحجار، في ثنايا المنحدر، وفي أقاصي الحيّ. نعم، كان ضوء المنارة يصل إلى كلّ مكان، إلى كلّ شارع، كان يغور في الظلال والأحلام والأسرار، وربّما خزّنت كلّ ذلك في الأسفل، في قبر للضوء. كانت ومضات المنارة وشفراتها المضيئة تمرُّ على أسطح المنازل وتدخل بين شفرات الأباجورات كشعاع عابر يقطع الأسطح بسرعة مقصلة، وبذلك تزيد من الظلام ظلاماً بعد كلّ دورة. لقد كان ضوءها ينفذ في الداخل والخارج، في السهر والنوم، في البحر الذي لا حدود له، وفي الغرف الضيّقة.

الآن، نحن في طريقنا إلى مدرستنا الأولى، الحضانة الغريبة.

لم نكن قد بلغنا العمر الذي نستطيع بموجبه دخول المدارس العامّة، وروضات الأطفال لم تكن موجودة، حتّى بالاسم. سرعان ما أدركنا، أنا وماريا، أنّه يجب علينا ألّا نصرف طاقاتنا الجسديّة والعاطفيّة في شيء عقيم مثل المقاومة والبكاء، وإنّما في الرغبة في الاختراق السريع والعثور على مكان نجلس فيه في أسرع وقت ممكن. من هنا لم يحدث في اليوم الأول أيّ انفعال دراميّ يُذكر. كانت مدرستنا الأولى في منزل خاصّ على حدود مونتي ألتو لأختين عملتا مربّيتين، ومدرّستين، وحارستين، ومالكتين. كانت مهمّتها الرئيسة التأكّد من حضور جميع الأطفال، وقد اعتادتا تفقّد الحضور ثلاث أو أربع مرّات في اليوم الواحد، وهو إصرار مفهوم، إذ في أثناء التفقّد الرابع، ومع مضيّ الوقت، كان عددنا يتضاعف. في ذلك الوقت حدث أمر استثنائيّ وهو توسّع المكان، أحد تلك الأمور التي لم تُدرس في تاريخ هندسة العمارة الشعبيّة، حتّى إنّ مارسيال سواريز كان يقول عن بلديّة أياريث إنّها أكثر مكان في العالم يحتوي على كنائس، فثمّة كنيسة في كلّ كاثوليكيّ مربّع.

قضيت في روضتنا الغريبة الفصل كلّه جالساً على حقيبة. لا أريد القول إنّ الأمر لم يكن محض قدرٍ، فالحقيبة حقيقة وليست مجازاً. في اليوم الأول، وسط الضجيج، نظرتُ إلى الحقيبة ونظرت إليّ، ومن ثمّ المصادفة في هيئة صوت إلهيّ لامرأة قالت لي وهي تدفعني بنعومة هادئة: «أنتَ، اجلس على تلك الحقيبة». يعرف المرء عموماً، قبل تعلُّم القراءة والكتابة، شكل الحقيبة ويتخيَّله، ففي كلّ بيت تقريباً توجد حقيبة أو حقائب عدّة من هذا النوع. الآن، حينما أفكّر في الأمر، أرى أنّ حجم حقيبة السفر يساوي حجم طفل بالتربيع، غير أنّني لم أنظر مطلقاً إلى ما كان في داخل تلك الحقيبة الموجودة

في روضتنا الغريبة. كنت أحمل ذلك اليوم حقيبة مدرسيّة بلاستيكيّة، لونها فوشي/ورديّ متوهّج تقريباً، ولم أفلتها طوال اليوم، حتّى إنّه لم يطلب إليَّ أحد فتحها، إلّا أنّني فعلت ذلك من تلقاء نفسي. هكذا سحبت سحّابها، وإذ بها خالية تماماً.

بعد سنوات، وفي مدرسة كاسترو دي إلبينيا، سألنا المعلّم ما نريد أن نكونه عندما نكبر. لم تكن تروقه المشاركة الطلابيّة في الدرس، لذلك بقينا صامتين ومترقبين لمعرفة نيّته. يا تُرى، ما هدفه من الاستجواب؟ لماذا أراد أن يعرف ما نريد أن نكونه في المستقبل؟ وما الذي يريد أن يسمعه حقاً؟ عندئذ كسرت صرخة فرحة قادمة من المقعد الخلفيّ صمتنا الأخرس. «مهاجرون!»، هي الصرخة التي أطلقها مَن كنّا ندعوه أوروكسو دو سوتو.

بدا المعلم في دهشةٍ وصمت حزين. كان في الجدار المطلّ على الخارج نوافذ زجاجيّة غطّيت بمناخل. حينما ينكسر زجاج النوافذ يتأخّرون في استبداله، لذلك غالباً ما كانت هناك ثقوب تتسلل منها الريح الهوجاء أو يدلف المطر. يمكن القول إنّ الثقوب كانت تستغلّ لحظات الطقس السيّئ كي تثبت ذاتها. كان المعلّم على دراية بكلّ شيء، حتّى بثقوب الحائط وبقع الرطوبة، وبحالات الطقس. ولطالما حدّثنا عن الزمن الذي كانت فيه إسبانيا إمبراطوريّة عظيمة «لا تغيب عنها الشمس». كم كان يحبّ تلك الجملة! حتّى نحن أحببناها! كنّا في مكان ناءٍ ضمن بناء مظلم، حيث تكدّست في إحدى الزوايا أكياس الحليب المجفّف، التي كنّا نتلقّاها كمعونات أمريكيّة. كانت الشمس هناك أيضاً، لم يحن موعد مغيبها آنذاك. حرص المعلّم بإصرار على إقحامنا في عملٍ إمبرياليّ عظيم. كنّا قد سيطرنا على العالم ووصلنا بالصليب إلى أصقاع الكون، ولا نزال نخرج لنجمع

التبرّعات لإنقاذ أرواح الأطفال الصينيين. إنّما، في تلك اللحظة، لمّا سألنا المعلّم ما نريد أن نكونه أو ماذا نفكّر أن نكونه عندما نكبر، كان لذلك الصوت الصادق الصادر من المقعد الخلفيّ تأثير الريح الهوجاء التي تخترق الزجاج وتكسر التاريخ إلى قطع صغيرة متناثرة في باحة المدرسة. حلم أطفال الإمبراطوريّة أن يصيروا مهاجرين.

أمّا الحقيبة الأخرى تلك، أعني في روضتنا الغريبة، فكانت تتّسع لطفلين مهاجرين على الأقلّ. لذلك أجلست المعلّمة إلى جانبي زميلاً من عمري نفسه تقريباً. لم نتكلّم مع بعضنا قطّ. كذلك لم نتبادل النظرات، ما عدا بعضها الخاطف من طرف العين. ذات مرّة، طلبتُ إذناً كي أغادر مقعدي وأذهب إلى الحمّام، عبرتُ ممرّاً ممتلئاً بصور نساء مصفّفات الشعر ومرتديات فساتين في غاية الأناقة، لم يكنّ المعلّمات بكلّ تأكيد. لفتتني موديلات الشعر وطريقة ارتدائهنّ الملابس، ولا سيّما تلك الصورة لامرأة ترتدي قفّازين أسودين، وأخرى لامرأة ترتدي فستاناً شبيهاً بطقم ذكوريّ، تحمل بين أصابعها غليوناً ينبعث الدخان من فوهته. لعلّ أكثر ما لفتني في تلك الصور هي طريقة النظر، إذ كنّ هنّ اللواتي ينظرن أو يتوقفن عن النظر إليك. شققت أحد الأبواب وتبيّن أنّه المطبخ. وسطه كانت هناك طاولة مغطّاة بمنديل مزيّن بالمربّعات الخضر والبيض، وقد جلس فوقها قطّ بدا كالتمثال. كان القطّ في غاية الروعة، مختلفاً عن جميع القطط التي رأيتها في حياتي، بوبره الأبيض الساطع الطويل، وشريطة زرقاء مع جرس مربوط حول عنقه منحاه شكلاً سماوياً. نظر إليّ القطّ، دون مبالاة، من طرف عينه، نظرة استعلاء. حينها فقط أدركت أنّني كنتُ قد وصلت إلى أمريكا.

٣. درج الأطفال المتخفّين

جالساً على الحقيبة في الروضة الغريبة، سمعتُ في إحدى المرّات صوتَ أختي ماريا.

جاء صوتها من الأعلى، لذلك رفعت رأسي ورأيتها هناك واقفة على الطاولة وقد علا صوتها فوق صوت الجميع. حملتْ بين يديها كتاباً لتعلُّم التهجئة والقراءة. حقاً، إنّها أختي، وقد كانت هناك، لكنّ صوتها بدا جديداً، كأنّها وُلدت للتوّ. تكبرني ماريا سنةً وبضعة أشهر تقريباً. لذلك لم يكن في حوزتي دفتر للتهجئة أو القراءة، إذ لم يحن دوري بعد. كنت أذهب إلى المدرسة حاملاً حقيبة ظهر خالية لا أستغني عنها مهما حدث في العالم. في تلك اللحظة، كانت ماريا هناك، تقرأ بصوت مرتفع وسط صمت مذهل. دون أن تخطئ أو تتلعثم أو تتأخّر. كانت تهجّئ الكلمة ومن ثمّ تقرؤها لتشكّل بعد ذلك الجملة كاملة. واستطاعت قراءة تلك الكلمات الإلهيّة: «أمّي تحبّني، أمّي تدلّلني. عنب، كنيسة، درّاجة». كانت تقلب من صفحة إلى أخرى والمعلّمة تطلب إليها بكلّ حماس أن تتابع القراءة مُحاوِلةً بذلك التأكّد من أنّ ما يحدث هو حقيقة وليس خرافة. كنت أعرف تمام المعرفة أنّ لأختي علاقة مميّزة تربطها بالكلمات. لقد كانت تجمّع الكلمات وتحملها معها إلى المنزل، ويمكن رؤية ذلك من خلال أسنانها المتفرّقة، وفي صورها الأولى، أنّ لها فماً مليئاً بالكلمات. ممّا لا شكّ فيه أنّ الأمر وراثيّ؛ فأمّي آكلة أفعال وكلمات، واعتادت أن تكلّم نفسها بطريقة تذهلنا دون أن

تشعر بذلك، حتّى دون أن تدرك أنّنا نسمعها. في البيت، وفي كلّ البيوت التي سكنّاها، لم يكن ثمّة كتب. سمعتُ وقرأتُ القصائد الأولى من فمها المتوحّد. تلك القصائد التي تقرؤها لنفسها أو لمن يرافقها في خيالها حتّى عندما تغسل أو تنظّف. في كلّ حال، كان أمراً غريباً وساحراً، لكنّه مزعج في الوقت نفسه. فقد كان فم الأدب دون سابق إنذار. أمّا الاقتيات على صوت الكلمات فهو سرّ الأسرة. لم أكن أعرف أنّ ماريا تعلّمت القراءة بين ليلة وضحاها، كما أنّي لم أُفاجأ قطّ. هناك اللواحم والعواشب، وهناك أيضاً مَن يتغذّى على الكلمات، وهو نوع يكثر في أسرتي. كان خالي، الحلّاق فرانسيسكو، أول أفراد الأسرة الذين اكتشفتهم. بالنسبة للأطفال، كانت حلاقة الشعر بمنزلة عقوبة. كانوا يحلقون شعرنا دون أيّ حسبان. والحلاقة المعتادة من أجل مكافحة القمل مثل حلاقة السجين: على الصفر. للطبيعة إرادة تجميليّة تتجلّى، على سبيل المثال، في التناظر والتماثل. في شكل نموّ قنفذ البحر أو في تموضع قطرات الندى على غصن شجرة بعد المطر. في انحناء مقاوم لشجرة تين أمام بحر متلاطم الأمواج. أو في طيران جماليّ متناسق أو دفاعيّ لأسراب طيور الزرزور. أو في أشكال الوحوش التي يراها المفترسون مرسومة على أجنحة بعض أنواع الفراشات. إنّها مجرّد ملاحظات وتعويذات زمن ما، علامات في تاريخ النظرة الفرديّة الخاصّة. تماماً على غرار الكشف عن أنّ الذلّ هو جزء من الهبات الأوليّة لبعض الأنواع الحيّة. حلاقة الشعر على الصفر في الطفولة كانت تُنبئ بما سيحدث في اليوم الأول من الخدمة العسكريّة. بمجرّد النظر في المرآة ينتاب المرء الشعور بالإهانة، تماماً كذلك الشعور الذي ينتاب المرء عندما يُعاقَب من دون سبب أو مسوّغ. كانت كرسيّ الحلاقة، التي لطالما جلس عليها الكبار

والرجال بكلّ رضا وثقة بالنفس متصفّحين المجلّات والصحف، بمنزلة كرسيّ الجلّاد بالنسبة لنا نحن الأطفال. ما إن تسقط على الأرض قصاصات الشعر الخشنة حتّى يذبل الحيوان الحرّ ويخفض رأسه. غير أنّ الشعور الذي يخرج معه المرء من صالون حلاقة الخال فرانسيسكو كان مغايراً تماماً. لا يعود ذلك إلى أسباب أسلوبيّة، فهو لا يختلف عن غيره في ممارسة حلاقة الصفر الرائجة، ومقصّه وماكينته كانا يتقدّمان بلا هوادة في أعشاب الجمجمة. إلا أنّ موضوع الشعر في صالونه كان ثانوياً بالنسبة لنا تماماً. وما يهمّنا كان خطابه وحديثه، ذلك التيّار المستمرّ من أفكار الخال فرانسيسكو. ضربة مقصّ فوق الرأس ومن ثمّ حركة بهلوانيّة بيده ليفصل بين فقرة وأخرى في حكايته.

لّما انتشرت موضة الشعر الطويل، هجر الفتيان في تلك الفترة صالون الحلاقة. حينها، ترك الخال فرانسيسكو في الطابق الأرضيّ لصالونه غرفةً راحت تتدرّب فيها على العزف فرقة روك آند رول بقيادة أحد أبنائه. كانت مونولوجات الخال فرانسيسكو، التي اختلف مضمونها تبعاً لكلّ زبون، تتناوب مع تلك الموسيقا التي روّجت لإفلاسه. إنّما، على الرغم من كلّ شيء، كان خالي قاصّاً ماهراً، وقد منحه ذلك الوضع فرصة كي يطوّر شخصيّاته وحبكاته. وعلى عكس قصّة الشعر النمطيّة غير المتغيّرة، كان القاصّ يتنقّل بين الأزمنة متّخذاً من السخرية سمة وضعته دائماً في الصفّ الأول.

- السخرية، يا أعزائي، هي مرقة الفقراء الثانية.

- وما الأولى؟

- إنّه الجوع. وهو أفضل مرقة في العالم.

مرّة واحدة فحسب أغلق فرانسيسكو بوررو فمه في منتصف قصّته ولم يستطع إكمالها. ففي أثناء الحكاية التمسنا لحظة رعب عندما اقتحمت كتائب فرانكو المنزل وأخذت والده، جدّنا، من كوربو سانتو بنيّة قتله. عندئذٍ قال العجوز الغريب الذي كان يقصّ شعره لدى خالي:

- ربّما كنتُ واحداً منهم...

وأضاف بشيء من الفخر وهو ينظر بطرف عينه:

- كذلك الذي يقود السيّارة.

أمّا خالي، فرانسيسكو، فحافظ على هدوئه. ثبّت شفرة موسه على جلد العجوز، وبحركة واحدة أزال كلّ الرغوة من على وجهه. وضع البودرة على يديه وربّت على نقرة الزبون وخدّيه معلناً انتهاء الحلاقة، وقال له:

- لا تعد إلى هنا مرّة ثانية.

- كم أدفع لك؟ قال الرجل متعجّباً.

- اتركها لقدّاس المرحوم، فكم أنت في حاجة إليها كي ترقد روحك بسلام.

كان خالي كلّما تذكّر ذلك اليوم، خيّم الظلّ على نظرته. كان يروي تفاصيل الموسى، وكيف تمكّن من ضبط نفسه أمام الغريزة، لكن لم يكن يقصّ ذلك كعمل بطوليّ، وإنّما كضرورة أساسيّة من أجل الإثارة والحماس في أثناء قصّ الحكايات.

بعد مضيّ بضع سنوات أعود مجدّداً لأرى ماريا واقفة على إحدى الطاولات محاطة بالناس. كان ذلك في دكّان وحانة ليونور في كسترو دي إلفينيا. بعد تناول وجبة الغداء، عند حلول العصر تقريباً، يكون معظم

الرجال خارج الحان. يعملون. هذا يسمح للنساء بالبقاء داخل الحان، في الظلّ. هنَّ أيضاً يعملن، يحكن ويطرّزن أو يخطنَ الجوارب. وفوق الطاولة، كانت ماريا تقرأ الجريدة بصوت مرتفع. لم يكن هناك مذياع ولا حتّى تلفاز. قرأت ماريا وقد أضاءت الجريدة بنور عينيها الخضراوين وسط صمت قديم. قرأت حدثاً، جريمة على وجه التحديد، كمَن يقرأ قصيدة حبّ أعمى، لكن دون قافية. بعد لحظات من القراءة أنزلتها النساء أرضاً، داعبنَها وأعطينَها موزة وبعض الكرز. أمّا هي فتقاسمت أجرها الأول: الكرز.

كان لكوربو سانتو مذاق الكرز، هناك حيث منزل جدّنا مانويل، والد أمّي. لم نعرف جدّتنا جوزيفا. ماتت من جرّاء مرض تاركة خلفها عشرة أبناء. اثنان منهم ماتا بسبب الفقر والشدّة في فترة ما بعد الحرب. قبل ذلك، لمّا حدث انقلاب صيف عام ١٩٣٦، ظهرت مجموعة فاشيّة ليلاً في كوربو سانتو وشحطت الجدّ من المنزل بنيَّة أنّهم يريدون «أخذه في نزهة»، وكانت هذه من أفظع الجمل في تاريخ الجريمة لكثرة تكرارها. جدّي جمهوريٌّ ومسيحيٌّ. عمل سكرتيراً في اتّحاد المواشي والمزارع دون أن يقبض مرتّباً. لا بدَّ أنَّ معرفته بالكتابة هي سبب محاكمته. في إحدى المرّات رفض تحرير وتوقيع عقد بيع قطيع من المواشي بسبب شروط العقد المجحفة. ومرّة أخرى رفض المصادقة على عمليّة بيع رُتّبَ لها في ساعة متأخّرة من الليل بعد لعبة ورق شدّة في إحدى الحانات. في تلك المواقف اعتاد الجدّ أن يقول «أفضّل ألّا أفعل ذلك». وهكذا، تحوّلت جملته «لقد تأخّر الوقت أيّها الأفاضل» إلى صيغة مقاومة مانويل من كاربو سانتو. حينما يذهب إلى الجبل لتقطيع الحطب أو الأعشاب ليصنع منها أسرّة للمواشي، يستغلّ تلك

اللحظات في القراءة أو الكتابة. هناك كان يفقد مفهوم الوقت، وكان محظوظاً كفاية لأنّ الموت، هو كذلك، فقد مفهوم الوقت معه. حينها نجا بأعجوبة بفضل الراهب الذي دفعه ضميره إلى مكان الجريمة، في عزّ الليل، وهو يمتطي حصانه.

وهكذا، ربّى الجدّ في كوربو سانتو أربعة ذكور وأربع بنات. وهناك نمت أيضاً أشجار الكرز. احتفظت بساتين «لاس مارينياس دوراداس»، كما تسمّى المنطقة، بذكرى «زمن الكرز». أسعد أيّام حياتي ترتبط بعصافير الشحرور. ففي احتفال القدّيسة إيزابيل قضيت أنا وعصبة من أبناء أخوالي اليوم بأكمله على أغصان الأشجار نتقاسم كنوزها الثمينة مع العصافير الساخرة. عشنا في طفولتنا فترات طويلة هناك. وفي كثير من الأحيان كنت أستيقظ وأرى نفسي في سرير غير الذي نمت عليه ليلاً. كنت مقتنعاً في طفولتي بوجود ممرّ يصل بين جبل المنارة ودرج كوربو سانتو.

ومن كان يتواصل مع العالم كلّه تقريباً هو جدّي. كان يفعل ذلك من وراء طاولة صغيرة في شقّته استخدمها كمكتب. كان أحد تلك الأماكن التي يصعب التنبؤ به، حيث يستريح مجسّم الكرة الأرضيّة. في الظاهر، لا يبدو مجسّم الكرة الأرضيّة مستنداً إلى أيّ مكان، يبدو كمجرّد مدار معلّق في الفضاء لا يتوقّف عن الدوران حول نفسه. وكان ذلك متعِباً جدّاً. حين نحاول تثبيت الكرة الأرضيّة عند نقطة الثبات، وكان ذلك صعباً جدّاً، فإنّ أمراً ما يحدث في العالم. كانت هناك على المكتب بطاقات بريد ورسائل من المهاجرين في الشتات. عناوين وطوابع وطرود مصوّرة تخمّرت فيها بكثافة ووضوح الألوان الرئيسة الأربعة لأرض الميعاد. شكّلت البطاقات البريديّة الموجودة هناك أطلسَ. أمّا جدّي فكان كاتباً حقيقيّاً، وكما قال الإغريق

القدماء «مفسّر المفسّرين». كان يكتب رسائل للمهاجرين. تأتيه أرامل الأحياء، وكان يخطّ بيده الأخبار والمشاعر التي تعبر البحار إلى ما وراء جزيرة لا مارولا كعلامات وداع تصبّ في الخلجان. خطّه في غاية الروعة. بدت رسائله مناظر طبيعيّة خضراء. هناك، في أمريكا، إذا ركّز القارئ جيّداً فسيتمكّن ليس من قراءة الكلمة فحسب وإنّما من رؤية الشيء المذكور، ولربّما أكثر من ذلك، أي حتّى ما لم يقله.

وإلى جانب المكتب الصغير العالميّ، كان هناك في كوربو سانتو مكان مدهشٌ آخر. درج صُنعت درجاته من خشب الصنوبر، يصل بين الطابق الأرضيّ، بأرضيته الحجريّة المضغوطة، والطابق العلويّ ذي الأرضيّة الخشبيّة حيث توجد غرف النوم والصناديق الكبيرة التي تحتوي على أثمن المقتنيات: جهاز العرائس، والبذار والكتابات.

في النهار يعملنَ دون استراحة. ومع ظهور أوّل حدود الغروب، سرعان ما يحدث تحوّل عميق. تترك الكائنات الصامتة أعمالها عند شمّاعات الملابس، وتُستدعى إلى حياة ثانية. حول الطعام والنبيذ والنار تحضر الكلمات مع الأخبار والقصص الجديدة. في الطابق الأرضيّ، في جهة منه يوجد الموقد، وفي الجهة الأخرى زريبة المواشي. كانت الأبقار تمدّ رؤوسها وتعلف الحشائش دون توقّف وهي تنفث سحائب من الضباب. كانت أنفاس الحيوانات تلك تغطّي وادي كوربو سانتو في الصباحات، كمصنع ضباب حقيقيّ، إلى درجة أنّ الأمر تحوّل إلى قصّة تُروى للأطفال. صحيح أنّ لديهم قصصاً أخرى؛ قصص سانتا كومبانيا عن أموات مشتاقين يحنّون إلى فنجان قهوة مع ليكور كحوليّ؛ قصص الذئاب عن رجال ونساء مستذئبات أيضاً؛ قصص مغامرات وأسفار؛ ملحمة المهاجرين التي لا

تنتهي؛ كذلك المهاجر المتخفّي في باخرة يرفض النزول منها ويقضي حياته كلّها جيئةً وذهاباً متخفياً على غرار الرجل الخفيّ؛ قصص الثوار والهرب والمطاردات في الجبال؛ قصص الجرائم والانتقام؛ كذلك قصّة الرجل الذي ذهب إلى الحفل كي ينتقم من غريمه ويقتله، لكنّه لمّا سمع الموسيقا الشعبيّة راح يتأمّل الأمر لينتهيَ به المطاف بالتخلّص من السكين، وحين انتهاء الموسيقا يجد غريمه الذي أوشك أن يموت، السكّين، وقد عبقت بقطرات القمر والندى، فيمسك به ويعزم على تحقيق هدفه... قصص حبّ شائقة داخل دير الرهبنة، هناك حيث تصنع الراهبات تماثيل الطفل المسيح كي ينمنَ معه ليلة الميلاد.

وهناك، في قصص الحبّ وعراكاته، كانت تحين اللحظة التي ينبغي لنا فيها الصعود إلى أراضي النوم. على الرغم من أنّنا نعرف أنّ عمليّة الطرد مزوّرة، وأنّه ينبغي لنا عدم البقاء والتخفّي دون أن يرانا أحد في أعلى الدرج تحت مصباح يتفاعل مع الرياح القادمة من الخارج، ومع حدّة القصّة وجمرة ناره وجمرتنا نحن. كان ذلك المصباح المعلّق على حبل مضفور يتأرجح ويأخذ معه النور جزئياً، وفراشات الليل تحوم حول تقطّعات النور. في تلك الظلمة المضيئة كنّا نرى انعكاس وجوه المتحدّثات على زجاج نافذة الغسّالة كأنهنّ آتيات من زمان آخر، ليس زمناً ماضياً، بل من زمن آخر. كانت كلماتهنّ تشعل النار، وسرعان ما تجيء لحظة الهروب من النار نحو الظلمة، ممتلئات بالدخان، لكنّهنّ حرّات في نهاية المطاف.

كانت هناك ليال لا تُنسى، كتلك التي قرأنَ فيها رسالة شابّ تقدّم ليطلب يد خالتي ماروخا ذات الجمال المزلزل. كتب الشابّ رسالته ليتباهى بقدراته، وقرأنها مراراً وتكراراً حول موقد النار في كوربو سانتو. بدأ

رسالته بمعلومة متغطرسة «ماروخا، أمس رأيتُكِ في الحفل، واعلمي أنّني لم أكلمكِ». كانت الضحكات تشعل لهيب النار. ثمّ شرع بعدها يعدّد صفاته ليبهر ويأسر قلب المرسَل إليها. وكان قد خطّ بيده قائمة لا نهاية لها من أراض وحقول وجبال ومزارع يملكها. ثمّ انتقل للحديث عن المواشي: «ولديّ سبع بقرات، وعشرة خنازير وأكثر من مئة دجاجة». مضيفاً بعفويّة: «وأبٌ صحّته غير جيّدة».

أمّا الخالة ماروخا، التي تزوّجت لاحقاً بمحض إرادتها وسعادتها، من سائق تكسي في سادا، فكانت تفتح يديها نحو السماء وتقول بتعجّب: «هل رأيتنّ! كيف لي أن أعشق هذا الرجل؟» والنار تضحك بفرقعتها وشراراتها، في حين انعكست صورة الرسالة وطابعها على تلك النافذة الفاضحة في الليل لتكون آخر صورة معلّقة في أجفاننا قبل النوم على أرجحة تلك الأصوات الخافتة فوق درج كوربو سانتو حيث يرقد الأطفال المتخفّون نياماً.

٤. الحرب والبقرة والطائرة الأولى

شعر الجذّان بقرب مخالب المطاردة البشريّة منهما عندما انتصر الانقلاب الفاشيّ في صيف عام ١٩٣٦ في غاليسيا. كان أحدهما عند مشارف الموت، وبقي الثاني في قيد الحياة فارّاً لوقت قصير إلى جانب بعض زملائه في الجبال.

دوّت الشائعات من كلّ ميل. وانبعثت من الظلال الملتوية لأخبار الصحف وعناوينها صفّارات إنذار. كلّ ما تمكّنت من سماعه من جدّيَّ عن الحرب قصّتان تحدّثا فيهما عن العصافير، وأنذرتا بأمر متعلّق بالطبيعة. وبسببهما عرفا على وجه اليقين ما حدث حتّى قبل وقوعه.

مع بداية شهر حزيران لذلك العام، عاد مانويل باروس، جدّي من كوربو سانتو، إلى المنزل حزيناً صامتاً. هو عموماً رجل نشيط وكثير الكلام. لم يأكل حينها. ولم يعد إلى طبيعته إلّا عندما تفجّر كلاماً وروى لنا ما حدث له. في إحدى طرق الغابة رأيت عراكاً بين هدهدين. هدهدان؟ يا رجل، ماذا تقول! ليس إلى هذه الدرجة! في الحقيقة شهد جدّي عراكات كثيرة بين الحيوانات، ولا سيّما تحدّيات بين الذكور منها. إلّا أنّه لم يشعر بالاستياء كما في تلك المرّة. تناقر الهدهدان دون هدنة، حتّى الموت، وتضرّجا بالدماء. حاول جدّي إخافتهما، لكنّهما تجاهلا صراخه وضربات عصاه. حوّل ذانك الطائران الصغيران جسميهما بالكامل إلى سلاح يستخدمانه. كينونتهما بالكامل في صراع من أجل الموت. قرّر جدّي الابتعاد عن مكان الرعب، وفسّر الحادثة بأنّها هزيمة

للطبيعة بأكملها. جدّي، الذي لم يؤمن قطّ بالخزعبلات، قال: «إنّ أمراً فظيعاً سيحدث».

أمّا القصّة الثانية، فهي لجدّي من جهة أبي، وكان حضور الطيور فيها مجازاً صوتياً لا أكثر. في أحد أيّام تلك الفترة نفسها تقريباً، وفي الصباح الباكر، خرج مانويل ريفاس، النجّار في سيغراس، في طريقه إلى العمل في المدينة، وصعد مع زملائه الآخرين في شاحنة مقطورة. كان الضباب كثيفاً إلى درجة يمكن إمساكه باليد وعجنه، كما يُقال. كانت الشاحنة تثقبه ببطء. بعد عبور المنعطف ظهر على حافّة الطريق، وبهيئة الشبح، راهب يرتدي زيّه الأسود. بدا كائناً ممتلئاً، وراحت قامته تكبر بسبب قبّعته المصنوعة من اللبّاد الأسود ومظلّته ذات الأبرشيّات السبع. تابع المزارعون بنظراتهم البانوراميّة الطيف الذي صار وراءهم. إلى أن أصدر واحدٌ منهم، الأصغر سنّاً، من مؤخّرة القاطرة صوتاً قلّد فيه نعيق الغراب:

- واق، واق، واق!

علت أصوات الضحك بسبب المزحة، ثمّ خيّم صمتٌ تمكّنوا في أثنائه من سماع الصوت المدوّي الذي قال لهم:

- اضحكوا! اضحكوا! سنرى مَن سيضحك في منتصف هذا الشهر!

بدأ شهر تموز. هو شهر جيّد. إنّه شهر سانتياغو، شهر الحفلات. أمّا جدّي، بعد أن تذكّر تلك الحادثة، همس بانفعال كما لو أنّه فكّ لغزاً تاريخياً: «كان يعرف! ذلك الراهب كان يعرف ما سيحصل!»

لطالما تأثّرت بحادثة ذلك الصباح الضبابيّ. شخصٌ، مثل ذلك الراهب، كان على دراية بسرٍّ مهمّ، يبوح به غصباً بسبب سخريّة صبيانيّة.

كان جدّي مانويل منتسباً إلى الاتّحاد. والانتساب إلى الاتّحاد في منطقة مارينياس التابعة إلى لاكورونيا، يعني الانتساب إلى الاتّحاد الوطنيّ لنقابات العمّال بفرعه الفوضويّ. سُجن في فترة «السنتين السوداوين» من الجمهوريّة الإسبانيّة الثانية. رفع القاضي نفسه التهم عنه. كان مانويل قد شارك في إضراب طويل طالبوا فيه بتخفيف مدّة العمل إلى ثماني ساعات في اليوم. حينما يتذكّر نضاله في تلك الفترة، كاسراً صمته الطويل، يعود ليلمعَ في جوف عينيه بريق الحنان التحرّريّ.

ثمّة فرق بين جدّي المزارع والآخر النجّار من حيث العلاقة مع اللغة. جدّي مانويل من كوربو سانتو، عموماً، رجل كثير الكلام، وسرعان ما يغزل الأحاديث. يتحدّث برفقة الناس لمجرّد استمتاعه بالكلام، لكنّه أيضاً يتحدّث عندما يكون وحده. في بعض الأحيان لم يكن يدرك ذلك، أي أنّه ليس وحده، مع ذلك كان يتحدّث وحده. أذكر أنّني رافقته إحدى المرّات ومشينا معاً وهو يمسك بيدي. كان يتحدّث، وحده، بطاقة متنامية، وبصوت كأنّه ينبعث من مولّدة كهربائيّة. كان تيّار المولّدة ينتقل من نبض يده التي راح يفتحها ويغلقها إلى درجة جعلني أشعر كأنّنا نوشك أن نطير. أمّا مانويل الآخر، جدّي في سيغراس، فكان قليل الكلام، وكنت أرافقه أكثر. توفّي متأخّراً، ما جعلني أعرفه أفضل. إلا أنّني لم أعرفه بسبب كلامه، بل لصمته. كان يعبّر عن نفسه من خلال شيفرات مورس صامتة. قرية كاسترو قريبة من مارتينيتي، وكنّا، أنا وماريا، نمضي بعض الأشهر هناك. اعتادت حينها، عمّتي الصغرى، فيليثيتاس، رعايتنا. كنّا نقضي بعض الوقت في ورشة خياطة أمبارو، عمّتنا الكبرى، حيث إيقاعات ماكينات الخياطة تصحب عواطف المسلسلات الإذاعيّة. بيت جدّي يقع بالقرب من

مقلع حجارة صناعيّ. كانت عمليّات التفجير تتقدّم بلا هوادة من أجل بناء المنازل على جروف المنحدرات المتخلخلة. وهكذا تدور عجلة الحياة على إيقاع ديناميت موقوت ومثاقيب تتحكّم بعدّاد الزمن. اعتادت جدّتي التطريز في صمت أكثر هدوءاً من الصمت نفسه. حينما ترفع إبرة الحياكة، نشعر بانفجار وارتعاش النوافذ. ثمّ تعود إلى الحياكة دون أيّ تعليق. جرت العادة حينما يعود جدّي من العمل أن يصطحبني إلى إحدى الحانات في الكابانا. كان يلقي التحيّة على الجميع ثمّ نجلس في إحدى الزوايا، كلّ منّا إلى جانبٍ من الطاولة. الشراب الاعتياديّ هناك هو النبيذ الأبيض. أمّا هو فاعتاد أن يشربَ كأساً من النبيذ الورديّ. ويطلب لي دائماً شراباً بارداً أو غازيّاً. وهكذا نقضي الوقت في الحانة بين رشفة وأخرى. كان يلفّ السجائر أحياناً، أمّا الدخان المتصاعد من سيجارته فكان أكثر بطئاً وكثافة من سيجارة «الثيلتا» التي يدخّنها أبي. كان دخانه يتصاعد مشكّلاً غيمة كثيفة تشعّ بفعل المصباح. كلّ نفثة تتّخذ هيئة تصميم حيويّ، منظر ما. كان شعره آنذاك فضّياً، وحينما يخلع قبّعته يعكس ضوءاً فوسفورياً. لم أكن أحبّ القبّعات ولا الشعر الشائب ولا التجاعيد. أعتقد أنّ الأطفال بشكل عامّ لا يجذبهم وجه الشيخوخة. إلا أنّني آنذاك أحببت ذلك الرأس. أحببته كثيراً. ووفق طريقته، كان ذلك الرجل الصامت يتحدّث وحده، بفمه الممتلئ بالدخان تارة وبالنبيذ تارة أخرى، يتمتم شيئاً ما. أوشك أن يفصح عنه. نظر في الغيمة الدخانية المائلة التي صنعها بسيجارته. سمع من الخلف صيحات المرتادين الجالسين إلى الطاولة الثابتة، وانتهى به الأمر أن تأفّف قائلاً: «بفف».

حين الحديث عنهم، أقصد عن جدِّيَّ وجدَّتيَّ، وذكر قيمهم في ورشة عمل فلانديز، كان الجميع يقول: النظرة الخصبة واليد النقيّة. اشترك كلّ

من النجّار والمزارع وجدّتي الخياطة في هذه الصفات. أمّا جدّتي من كوربو سانتو، خوسيفا، فماتت في فترة ما بعد الحرب، لمّا كانت أمّي طفلة. رُزق النجّار والخيّاطة، دومينغا، بثلاث بنات وابن واحد، أبي، الذي ولدته جدّتي في ثامورة في يوم ثلجيّ، عندما كان جدّي يعمل في بناء أحد المستشفيات. وعُدَّ المولود أنّه محظوظ: فأوّل صوت سمعه كان صوت الأب وهو يصنع له المهد.

تعقَّدت الأحوال وساءت. في ولادتها الأخيرة، عانت الخيّاطة وعثة لازمتها حياتها كلّها. أصبحت تشرد وتسرح كثيراً. غدت تعيش في الحلم، وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لأسرة ذاقت الجوع في فترة ما بعد الحرب، لأنّه لا يوجد عمل ولا أراضٍ. كان أفضل شيء حينها أن يكون المرء مزارعاً. اعتنت العمّات بالبنات في ذلك الوقت، وثلاث منهنّ كنَّ عزبات يعملنَ مربّيات في كورونيا، استطعن توفير بعض النقود. أحببنَ بعضهنّ، واعتنت الواحدة بالأخرى، وكنّ رقيقات مع بعضهنّ، بعيداً عن خشونة ومعاملة الذكور. حوّلنَ بيتهنّ الصغير إلى بيت الدمى. هناك كبُرت عمّتي أمبارو وغدت مصمّمة أزياء راقية. كذلك كانت شخصيّتها وطريقتها في الحديث بنعومة الحرير. كانت تعامل كلّ من يزورها في مشغلها من أطفال وكبار ورجال ونساء كما لو كانوا أفخم قطعة قماش في غاليسيا. أمّا مصير أبي فكان مختلفاً تماماً. هو نفسه قال إنّه عاش كطفل بدائيّ، إذ كاد لا يستطيع الذهاب إلى المدرسة حتّى أرسلوه بسبب الفقر ونقص الطعام إلى أجداده المزارعين ليعيش لديهم مقابل أن يرعى الأبقار. حتّى هناك لم يأكل كثيراً. كان يقضي يومه بين خوار الأبقار على حدّ تعبيره، وفي المساء تخرخر في أمعائه صلوات العجائز التي لا تنتهي وهنَّ يسبّحنَ بسبحاتهنّ. وهذا

كان عمله لسنوات، مشرف رعاية الأبقار. في بعض الأحيان، كان يمرّ عند الفجر من أمام بيت الدمى الممتلئ في ذلك الوقت بقوارب الأشرعة القادمة من النهر. وكم من مرّة لمس فيها مطرقة الباب، لكنّه لم يطرقه قطّ. فالماشية، تلك المخلوقات البرمائيّات السمان، كانت تدخل في الضباب وتهرب منه نحو السهل.

في أحد الأيام، سمع فجأة صوت دويّ في السماء. كان صوت طائرة ثنائيّة المحرّك، حلّقت على علوّ منخفض حتّى مستوى تيجان الأشجار، وبدت كأنّها ستهبط هناك. حدّثنا أبي أنّها كانت قريبة جدّاً إلى درجة أنّه استطاع أن يرى وجه الطيّار. بدا الوقت معلّقاً. نظرَ إلى الطيّار، ونظر الطيّار إليه. راقبت البقرة الموقف بفضول مشابه لفضول أبي، أي رؤية وجه الطيّار. كان رأس أبي منتصباً نحو السّماء، وكذلك رفعت البقرة رأسها لتضرب بقرنها فكّه وتترك ندبة بقيت مع الزمن في شكل نونة في ذقنه.

نساء كثيرات قلنَ لأبي لمّا كبر أنّ ندبة كهذه تجعل من الرجل أكثر إثارة للاهتمام. كنّ يسألنه عن سبب تلك الندبة وإن كانت قد حدثت له على غرار النجم الأمريكيّ روبرت ميتشوم. اعتاد والدي أن يجيب بدقّة تاريخيّة: «حدثت لي بين البقرة والطائرة».

٥. عودي عندما تطنين الشمس

يقفز الحنين مثل ذبابةٍ تحوم حول الوجه. كأنّني الآن أسمع والدي وهو يذهب ويقول: «يعتقد المرء منّا أنّه يربط الحيوان، لكن في الحقيقة الحيوان هو من يربط المرء».

تربية الماشية وإخراجها إلى الرعي، أو إسامتها كما يقال في غاليسيا، شيء شائع للغاية في طفولة جيل والديّ. الجميع، سواء كانوا نساءً أم رجالاً، قاموا بهذا العمل في وقتٍ ما. قضوا أيّاماً طويلة مربوطين إلى تلك الحيوانات. ولا أقول هذا مجازاً، فحجم الممتلكات الصغير، والقلق من أن تعبر الماشية حدود الأراضي، والخوف من هيجانها وتدافعها وغضبها من أيّ صوت أو ظلّ أيّ شيء مريب قادم من الغابة أو الجبل، كلّ هذا أجبرهم على تقييدها بحبال. كانت هذه الحبال بمنزلة قيد امتعاض لكلّ شخص قام بهذا العمل على إيقاع اجترار الأبقار. تتذكّر أمّي عملها في الرعي ككابوس، ولا سيّما الرعب من الذهاب مع ماريلا. عموماً، كانت جميع الأبقار تستجيب تقريباً إلى خوار عجولها، ما عدا تلك البقرة ماريلا التي تستجيب إلى الجميع، سواء عجولها أم لا، ولم تكن تستجيب بذلك الخوار الأموميّ الصاخب الذي يهزّ العشب والسماء فحسب، بل كانت تجري ساحبةً معها الفتاة إلى أن تترك الحبل، قافزة فوق الأسوار والمزروعات كي تستجيب للنداء. في اليوم التالي لهذه الحادثة، حاولت أمّي أن تُبعد تلك البقرة ما استطاعت، فساقتها إلى الطرق العميقة في الجانب الآخر من الجبل إلى أن اعتقدت البقرة أنّها في عالم آخر، في قارورة زجاجيّة أخرى، حيث لا

يمكن سماع ضجيج الأصوات والصرخات القادمة من كوربو سانتو. إنّها، كما هو معروف، تكمن البلاغة في أُذُن من يُنْصت. وأينما ذهبت تلك البقرة كانت تسمع صوت عجل يناديها. وفي إحدى المرّات قرّرت أمّي إرخاء الحبل الذي يربط ماريلا من قرنيها، حتّى إنّها قرّرت عدم النظر إليها. كانت تتمنّى أن يكون لديها لوح صغير تكتب عليه، أو كتاب عن القدّيسين. غير أنّها كتبت على الأرض وراحت ترسم بعض الخربشات. تبادلت كلّ من البقرة وأمّي نظرات جانبيّة، ولمّا انتهت أمّي من خربشتها تبيّن أنّ ما رسمته كان يمكن أن يكون بقرة. أمّا البقرة، أعني البقرة الحقيقيّة، فكانت هادئة ذلك اليوم تستمتع بالاجترار. لقد حان الوقت للعودة. فكّرت أمّي في شيء سمعته في إحدى الليالي. إنّ البقرة تستطيع أن تُطعم عجلها حتّى بعد موتها، وإنّها تحتفظ بخيط الحليب لمدّة يوم كامل. يا تُرى، كم عمركِ يا ماريلا؟ وكم عجلاً لديكِ؟ لمّا ولدتُ أنا كنتِ أنتِ أمّاً، وكانوا يعدّونكِ مجنونة. نعم، لا يمكنك أن تنكري ذلك!

كان من الجيّد التحدّث إلى الأبقار. معرفة التحدّث إليها. كان ذلك جيّداً للحيوانات كذلك. وللبشر على حدٍّ سواء. بالنسبة للفتيات اللواتي كنّ يرعينَ الأبقار، كان الأمر بالنسبة لهنّ طريقة لقتل الوقت، والوحدة والخوف والغضب. تغلّبت هي على الخوف من الجبال عندما كلّفها والدها بمهمّة حمل صُرَّة من الخبز والطعام إلى مغارة. لَمن يا أبي؟ لا يهمّ، والأفضل ألّا تعرفي. إلّا أنّها لشخص في حاجة إليها. وإذا أوقفكِ رجال الشرطة فقولي لهم: «إنّ الطعام لي. كي آخذه معي عندما أرعى الأبقار، ولا تضيفي إلى ذلك أيّ كلمة». في يوم آخر، حملت معها قارورة حليب، ولمّا عادت في اليوم التالي وجدتها فارغة. كم هم مساكين أولئك البشر الذين يعيشون في عالم غير مرئيّ، وعلاوة على ذلك يعانون الجوع. وبالعودة إلى سيرة الأبقار.

كانت أمّي في حقيقة الأمر تفقد صبرها. ذات يوم حضر إلى تابيايو، إلى صالون رقص، قاصّ وفكاهيّ يدعى شان داس بولاس، وكان قد حظي بشهرة بعد ظهوره في بعض الأفلام مجسّداً دور الحارس في شوارع مدريد. لم يكن فكاهيّاً سيّئاً. في سلسلة من أفلام قصص إذاعيّة، أدّى دور رقيب في الحرس المدنيّ يحمله الناس على أكتافهم. في اليوم التالي للعرض الباهر في تابيايو، كان دور بيبا، أخت أمّي الصغيرة، في رعاية الأبقار. تحدّثت إلى الأبقار وكان خطابها جريئاً، متمرّداً ومباشراً لا تأمّلات فيه.

- أريد أن أصبح بوهيميّة!

كانت كلمة غريبة. سمعتْها لا تعرف على وجه التحديد متى. لذلك قالتها بعفويّة. ربّما سمعتْها في مصنع مرادفات السيّدة إيزابيل لإطلاق التسميات على المحرّمات.

- سَتمتكنّ! وجّهت بيبا خطابها إلى الأبقار. سأصبح بوهيميّة ونجمة سينما. سأذهب مع شان داس بولاس!

كانت بيبا في الثامنة من عمرها حينذاك، ووصل الحوار إلى السيّدة إيزابيل التي كانت لديها خدمة إعلاميّة استثنائيّة. كانت السيّدة إيزابيل ابنة أخ كاهن الأبرشيّة، تعيش معه في كازا غراندي في كوربو سانتو، وإلى جانبهم منزل أسرة بارروس المتواضع والمزدحم دائماً بقبيلة أطفال. نجا منهم ثمانية: أربع بنات وأربعة أولاد. في جميع الأحوال هي أفواه كثيرة إلى أرمل لا يجيد إلّا الكتابة. لذا كانت السيّدة إيزابيل بمنزلة ملجأ تحتمي فيه تلك المخلوقات بشكل مؤقّت ومتقلّب. كانت الطفلة كارمن المفضّلة لدى السيّدة إيزابيل، لأنّها كانت قليلة الكلام. وبالفعل، كانت أمّي قليلة الكلام لأنّها كانت تتحدّث وحدها ولا تزعج أحداً. إذا لم تعمل، تخلو بنفسها في

عليّة كازا غراندي وتقرأ عن حياة القدّيسين والقدّيسات. كانت تدخل في تلك الغرفة المظلمة وتبحث عن أشعّة متسلّلة من بين قرميد السقف كي تنعم بسعادتها السرّية، أدب الحيوات المتطرّفة، والراديكاليّة، والمجنونة والنادرة. قدّيسون وقدّيسات يمكن أن يكونوا، لكن ما قرأته أو كيف قرأته كان عن حيوات نساء فاتنات وغريبات، ورجال غريبي الأطوار.

ولم تكن كارمن صاحبة مشكلات. تقوم بعملها برضا، ولا تعترض على شيء أبداً. تنتهي من حلب الأبقار في الحظيرة، ومن ثمّ تذهب إلى العلّية مع القدّيسين.

إلّا أنّ ما قالته بيبا أقلق السيّدة إيزابيل كثيراً، فهي الأصغر سنّاً. ومنذ أن رحل الفنّانون لم تفعل شيئاً سوى مراقبة الشارع.

- قالت إنّها ستذهب برفقة شان داس بولاس! أخبرت السيّدة إيزابيل جدّي. كأنّ الأمر فضيحة.

- مع شان داس بولاس؟

بيبا امرأة مليئة بالألغاز، متديّنة بقدر ما هي رومانسيّة. مقموعة وعاشقة. شعرت بانجذاب كبير إلى شان داس بولاس، لكنّها في الوقت نفسه حافظت على ضرورة البقاء بعيدة. عاملها الربّ بلطف، لكنّه لم يمنحها روح الفكاهة.

- إنّها مزحة طفلة. قال جدّي- لا تعطي الأمر أيّ أهميّة.

غير أنّ السيّدة إيزابيل كانت متعوّدة على التحكّم. إدارة حياتها وحياة الآخرين. قالت، بل أمرت:

- مهما كان الأمر، لن تخرج الفتاة بعد اليوم لترعى الأبقار.

بالقرب من كوربو سانتو، في منطقة كاستيلو، كانت هناك فتاة أخرى اسمها مانويلا ترعى الأبقار. تزوّجت فرانسيسكو، أحد إخوة أمّي. اعتاد فرانسيسكو أن يرتدي سراويل مخمليّة مرقّعة. كان شاباً فقيراً، نعم، لكنّهم لطالما تنازعوا عليه في المنازل كلّها. في كلّ بيت كانت هناك تحيّة وكرسيّ لفرانسيسكو. وسواء كان فقيراً أم غنياً فقد كان بمنزلة هديّة. وكانت له مزيّات كثيرة. أولاً، يصطاد سمك السلمون من النهر بيده، كذلك الأمر مع الحكايات، يصطادها هي كذلك من الهواء، بيده، وهي تتطاير. عمل في حِرف عدّة، لكن هذه الأخيرة، قصّ الحكايات، حافظ عليها دوماً. عمل في مصنع أحذية سينررا الذي يعود لأسرة لها باع طويل في التقاليد الجمهوريّة. ثمّ سيطر عليه نظام فرانكو. بعدها عمل كحلّاق، وكنت قد تحدّثت عن الأمر. تقاعد منذ فترة. لكنّ الأمر استمرّ على حاله. إذ لا يزال زبائنه القدامى يطالبون به كي يزورهم في منازلهم أو في دور العجزة أو في المستشفيات وهو في التسعين من عمره. في بادئ الأمر يقاوم، لكن سرعان ما ينتهي به الأمر إلى الذهاب. يأخذ معه حقيبة صغيرة فيها المقصّ والمشط. والذاكرة. إنّها حقيبة الذاكرة في الواقع. وهو يعلم أنّهم يتواصلون معه ليس من أجل مهنته كحلّاق، إنّما من أجل الاستماع إليه. ويأخذ معه المقصّ. نعم هذا أفضل من أجل تشذيب أطراف الحكاية المثيرة. وإذا كان الكاتب الروسيّ فلاديمير نابوكوف قد تحدّث عن عنصر المفاجأة أو التجديد في الحبكة كمرادف لهجمة حصان شطرنجيّ، فإنّ خالي فرانسيسكو اعتاد أن يستخدم ضربة مقصّه كلحظة انعطافة في القصّة لا يمكن التنبؤ بها أبداً.

يقصّ المقصُّ الهواءَ. لحظة. لا بدّ من العودة إلى الخلف قليلاً.

يعدّ «تشالو» جبل الجبال. حينما يحلّ الليل، يكيّف أرضه الوعرة والصلبة كي تعود وتلتقي البحر. لا يزال الجبل حتّى اليوم جبلاً إلهياً بامتياز، لكن في ما مضى كان أكثر من ذلك. إذ لم تكن قد شُقّت فيه طرق إسفلتيّة، ولا مساحات واسعة شبه متمدّنة. كان مجرّد جبل يسمح لك أو يمنعك من العبور. لذلك، في كلّ مرّة كان لا بدّ من شقّ طريق العبور. هناك وطئت مانويلا الشمس.

كانت في الثامنة من عمرها. جُنِّد أخواها من أجل الحرب، لذلك لم يكن أمامها مفرّ من رعاية الماشية: البقر، وثوران وحصان واحد.

- اذهبي إلى جبل تشالو. هناك عشب وفير. يمكنك أن تسرّحي الماشية دون أن تقلقي عليها إن سرحت هنا أو هناك.

- كم من الوقت؟

- عودي عندما تطئين الشمس.

وبقدر ما سألت، لم تفهم قطّ كيف كانت ستطأ الشمس. لعلّها بدت جاهلة في عيون الكبار الذين كانوا يقولون لها «حينما تطئين الشمس، فستعرفين وحدك أنّكِ تطئينها». أمّا هي فبقيت مترقّبة شمس الظهيرة كلّها تقريباً، وتفكّر كيف ستفعل وتدوس الشمس. إلى أن جاءت اللحظة. كان الأمر سهلاً جداً. نزلت الشمس تحت قدميها وداستها.

لم تفهم مانويلا البرق قطّ. كانت تخاف العواصف كثيراً، وازداد خوفها عندما أصبحت خيّاطة. خيّاطة متنقلة. تعلّمت الخياطة على ماكينة سنجر وهي في الرابعة عشرة. خيّطت في المنزل ولم تربح كثيراً. في كثير من الأحيان دفعوا لها بالمقايضة: أنتِ تخيطين لنا الثياب ونحن نعطيكِ سفط بيض، بطاطا أو طحيناً. إنّما لا شيء يضاهي اليوم الذي دفع لها فيه مصوّر كانت

قد خاطت لأولاده ثياباً. قدّم لها المصوّر في المقابل جلسة تصوير. ليس صورة واحدة فحسب بل جلسة تصوير كاملة.

كانت مانويلا تنتظر الطلبات إلى أن تأتي إليها. في كثير من الأحيان لا يأتيها شيء. لذلك قرّرت بنفسها البحث عنها بدلاً من انتظارها. خطر لها ذات يوم، مع صديقة لها تدعى ماريا، أن تصبحا خيّاطتين جائلتين. وهكذا حملتا ماكينة سنجر على رأسيهما وتنقلتا بها من ضيعة إلى أخرى، عابرتين الجبال والأودية عبر طرق وممرّات عميقة. في بعض الأحيان رافقتهما صديقة ثالثة. لا يهمّ إن كانت تتقن الخياطة أو لا. حينما تغنّي كان صوتها شبيهاً بتلك القبّرة التي لطالما تحدّثوا عنها بأنّها تزيل كلّ أنواع الخوف الموجودة في الغيوم والرعد والبرق. كم كان صوتها جميلاً إلى درجة أنّها صارت مغنّية أوركسترا في مهرجانات القرية الليليّة. ثمّ غدت نجمة محبوبة من نجوم فرقة المارينياس باسمها الفنّيّ فينيتا غاي. قرّرت في أحد الأيام الذهاب إلى أمريكا لتصنع لنفسها ثروة فركبت السفينة وسافرت. في نهاية المطاف انتهى الأمر بالجميع إلى الذهاب عبر ذلك الطريق: طريق البحر.

كانت مانويلا تتأمّل البحر كلّ يوم، لكنّها قرّرت الاستمرار لفترة من الوقت في حمل ماكينة الخياطة على رأسها والتنقّل بين قرية وأخرى. في أحد الأيام التقت، في الطريق، خالي فرانسيسكو. هو لا يجيد الغناء، وحسناً أنّه لا يغنّي لأنّه كان سيغضب الصواعق بصوته. إلّا أنّه كان يصرف انتباه الصواعق عنه بقصصه، فتضرب في أعالي جبل تشالو، هناك حيث تطأ الراعيات حافيات الأقدامِ الشمسَ.

٦. حطام السّماء

لفترة من الوقت، وبعد عودته من فنزويلا، عمل أبي في القرية، في ريغو، بالقرب من سيغراس حيث ترعرع، ورمَّم بيت أحد أقاربنا. كان يأخذنا معه إلى هناك. في الأيّام الأولى كنّا، أنا وماريا، ننام في البيت نفسه، في رواق مسقوف يقع في الدور العلويّ المصنوع من الخشب، الذي يعدّ امتداداً للمنزل يمكن الوصول إليه بعد تسلّق سلّم. كان مكاناً دون ضوء كهربائيّ. عبارة عن مساحات من الظلام الدامس والروائح النافذة. نمنا، أنا وماريا، في السرير نفسه وتحتنا فراش من أوراق أكواز الذرة. كنّا قد نمنا سابقاً في منازل قرويّة متواضعة، وشعرنا بصلابة الحجارة إلى جوار الوسادة، وحركشات الفئران، وزقزقات الأسرَّة الغريبة، حاملة معها التنهّدات من الغرف الزوجيّة. إضافة إلى حشرجات ووقع خطوات رجل عجوز وبوله ليلاً في المرحاض، وحفيف أوراق شجر الخمان في حربها مع الريح عند النافذة، وكلاب الحراسة الليليّة وهي تجول، كلّ ذلك بدا لنا غريباً وجديداً. المشاعر الشديدة تنشّط الحواس. تلك الحواس الداخليّة، تيّار الذكريات، كذلك تفعل بالحواس الخارجيّة. إنّما، في بعض الأحيان يحدث أن تجتمع الحواس كلّها في حاسّة واحدة. وهذا ما حدث في تلك الليلة الصيفيّة في أعلى السقيفة. تجمّعت كلّ الحواس، بعد أن قامت كلّ واحدة بعملها، بنظرة واحدة. في السطح القديم الذي تفصله عن السرير مسافة قصيرة كانت ثمّة كوى ناتجة عن قرميد مكسور أو مخلوع. لم يبدُ

الأمر خطراً، بل على العكس كان عملاً تخريبياً مقصوداً. بدت الكوى كنوافذ فتحت على السماء. لم يسبق لي أن رأيت السماء قريبة إلى تلك الدرجة. ولا النجوم بذلك السطوع والثقة.

مستلقيين بصمت، وفوقنا بطانية واحدة، أخذ المنظر يلهينا عن خشونة السرير، وغضبنا من الأوراق التي تركت أثرها في ظهرينا. ربّما لأنّ كلّ شيء من حولنا بدا ناعماً وخفيفاً ومضيئاً بضوء مختلف عن ذلك المعهود. راح هذا الضوء الذي لم نعهده يتمدّد في الغرفة المظلمة ويلبس وجه الأشياء دون أن يُلاحظ . وإذا كانت ماريا لم تتكلّم، وإذا نامت بعينين مفتوحتين، وصار لونها أزرق في تلك الليلة مثل نسيج العنكبوت، والتفّاح وكومات القشّ، فقد حدث كلّ هذا لي وأكثر. كانت ليالي معدودة فحسبْ. لم نقل فيها شيئاً. كذلك لم نتكلّم مع بعضنا. لم نشتكِ. ربّما لو عرفت أمّي لغضبت وطلبت نزلاً آخر. لقد احتفظنا بالسقف المرصّع بالنجوم لحصننا المظلم. كان الليل قد تبنّانا وفتح لنا أسراره. بطريقة أو بأخرى صرنا ننتمي إليه. وسنبقى إلى الأبد من سلالته.

- هل خفتما؟

- لا، أبداًا!

- هذان الاثنان ينامان وأعينهما مفتوحة. قال أبي.

- هل هما بومتان؟ سأل أحد أقاربنا أبي، وراح يحدّق بأعيننا.

- بومتان حقيقيتان.

عندئذ قلَّد قريبنا صوت البومة. ضبحَ، وكان أقرب إلى ندبٍ اخترق الليل والنهار. هو أيضاً بومة.

كان الجميع يعاملنا بلطف. القرية بالنسبة للأطفال القادمين من المدينة بمنزلة عيد، ولا سيّما إذا وقع لك أمر غير عاديّ. حادث في سبيل المثال.

عمد الشابّان اللذان حملا ثقل العمل في تلك الأسرة المزارعة في سيغراس إلى دمجي كحيوان أليف في فريقهما الذي لا يتعب. كنت دائماً مثل الملك. على المحراث أو الحصان. كانت الحراثة إحدى مهمّات الموسم، تقليب التربة ومن ثمّ تمليسها من أجل نثر البذار. وكانت تلك لحظة مجدي. أداة تقليب التربة عبارة عن سكّة ذات أسنان سمكية متشابكة تجرّها الحيوانات. لها تأثير المشط الذي يساوي بين طبقات التربة ويطرّيها بعد أن تمّت حراثتها باستخدام المحراث. وكي لا تكون تعرّجات التربة ناعمة أو سطحيّة، ولتثبت قوّة الثيران، توضع حجارة على سطحها، وفوقها يجلس الطفل. لم يكن شيئاً شبيهاً بالحلم، بل كان حلماً عن حقّ. الركوب على سجّادة تجرّها ثيران والتجوّل عبر السهول على عرش من الحجارة. في تلك الأوديسة القصيرة عاش الصبيّ مغامرة مجهولة كانت في الوقت نفسه تجربة جديدة لقوّة معيّنة. الانتقال عبر تلك المخلوقات الأسطوريّة الضخمة التي تخضع في الوقت نفسه لأصوات صديقة. واكتشف الصبيّ، فجأةً، أنّ الحيوانات، بما فيها تلك الثيران الأليفة، لا تستمتع بالعمل، وتتوق إلى الانتهاء منه بأسرع وقت ممكن. وعلى الرّغم من ثقل الحجارة والطفل، كانت الثيران رشيقة، تجرّ بسرعة. وأحسّت الثيران بخفة، فأسرعت، ومن شدّة الاهتزاز وقع الصبيّ أرضاً وسقط عليه حجر فنزفت ركبته. كم هو مثير! دم أحمر بخيط أبيض. ولم يرق الأمر للشابّين اللذين أسرعا نحو الصبيّ وحملاه، وراحا به عبر ممرّات مختصرة. وقع الثلاثة لمّا قفزوا من فوق أحد الجدران. يتذكّر الصبيّ أنّه بدلاً من إضفاء الدراما على الموقف، انفجر ثلاثتهم

ضحكاً. كلّما ضحك أحدهم، ضحك الآخر أكثر. لم يكن أمام الطفل خيار آخر. كان عليه أن يضحك أيضاً.

لّما وصلنا إلى القرية، كان الدّم قد توقّف بعد أن تشكّلت خثرة واضحة على الركبة لها شكل أخدود قرمزيّ. وهكذا دخلت القرية فعلاً. بالدّم والتراب. كانت هذه عمادتي.

- سيبقى معنا إلى الأبد. سيكون شجاعاً!

مرّة أخرى ضحكنا. ما من سبيل آخر! صرت أحسّ أنّ كلّ ما يقولانه يجب قراءته عكسيّاً.

روى لي أبي قصّة رجل شجاع. ربّما كي أعرف معنى أن يكون المرء شجاعاً. وليس ثرثاراً. كان اسمه غانثو، ولا يخضع لأحدٍ أبداً. تعرّف إلى شابّة وأحبّا بعضهما. كان ينزل إلى قريتها من الجبل على ظهر خيله قادماً من قرية بعيدة. لم يوافق والد الفتاة على العلاقة. ولّما شكَّ في أنّهما يلتقيان خلسة، حبس ابنته في البيت وراح يراقبها. كان أبوها رجلاً سلطويّاً، اشتهر بأنّه مستبدّ، لذلك كان من المستحسن عدم مواجهته. أمّا غانثو، ففي كلّ يوم أحد، كان ينزل من الجبل ويقف أمام بوّابة المزرعة صارماً لساعات عدّة، وحينما تغرب الشمس يغادر. لم يخرج أحد ليتحدّث إليه. ويعود هو كلّ أسبوع. في أحد الأيّام فُتح باب المزرعة وخرج منه والد الفتاة مسلّحاً.

- ماذا تريد يا غانثو؟

أجاب غانثو دون أن يهتزّ له جفن بجملة تاريخيّة:

- أن نحرّر الأسيرة!

تأثّر الأب وارتبك. لقد فضحه هذا الرجل القادم من الجبل أمام العالم كلّه.

أحياناً، حينما أكتب، أتذكّر تلك القصّة. تلك النهاية. تلك الجملة المفاجئة بالإسبانيّة، التي تبدو كأنّها من العصور الوسطى. ولا سيّما الاستخدام المتقن لمصطلح «الأسيرة». في أحد الأيّام تذكّرت القصّة. قرقع أبي بلسانه، ونظر إلى الأفق البعيد، ثمّ عاد وقال:

- في الحقيقة لم يقل ذلك.

- حقّاً؟

- كلّا.

واستطاع أبي أن يرى خيبة الأمل في عينيّ، وراح كلٌّ منّا يفكّر في الأمر نفسه: الحدود الضبابيّة بين الحقيقة والخيال.

- ماذا قال غانشو إذاً؟

نظر إليّ، وقد أوشك أن يجيبني. ابتلع ابتسامته ولم يقل شيئاً.

- يجب أن تخبرني. رجوته.

- الأفضل أن تكتفي عند هذا الحدّ.

- لكن، ماذا قال؟

دا كأنّه متردّد، لكن لم يكن تردّداً بين حقيقة وخيال، بل بين حقيقتين:

- أطلق سراح الجرو!

- الجرو؟

- نعم، يبدو أنّه قال ذلك.

- الجملة الأولى كانت أفضل.

كنّا في الشرفة. وكانت هناك نبتة لطالما لفتت انتباهه، وقد نمت بسرعة كبيرة وصار لونها أخضر نضيراً. أوشكَ أن يقول شيئاً عن تلك النبتة، إلّا أنّه لم ينبس ببنت شفة، كانت نبتة ماريهوانا لماريا.

- سأخبرك بما حدث- قال وأراد أن ينهي قصّة غانثو- بعضهم سمع شيئاً، وآخرون سمعوا أمراً آخرَ.

- وماذا تعتقد أنت أنّه قال؟

- لا أعرف. أطلق الآخر النار عند قدميه كي يخيفه، لكنّه بقي متسمّراً في مكانه. سمعتُ صوت النار. أستطيع أن أؤكّد لك هذا.

بعد تلك القرية، كانت هناك قرية أخرى أبعد منها. كانت المكان البعيد. في الطرف الأقصى. وبعدها كانت هناك قرية أخرى، وأبعد من هذه الأخيرة قرية لها حدودها البعيدة. وهكذا في سلسلة جغرافيّة نحو المجهول كنوع من وهم معكوس. في الواقع كلّ شيء بدا جغرافيا عقليّة، فيدراليّة مكثفة من القرى، على غرار كلمات متقاطعة سرمديّة من الطرق وأسماء الأماكن. وقد يكون المكان البعيد على بعد ساعة مشياً على الأقدام. أتذكّر طريق الحجّ الطويل الذي قطعناه بين كوربو سانتو وسان بيتو. كان الحرُّ شديداً، ومنحتنا أشجار الكرز الفيء والثمار. لم نستطيع الوصول إلى أغصانها، فراح الكبار يشدّونها إلى الأسفل كي نتمكّن من تذوّق بعضها. كانوا سعداء، ونحن كذلك معهم. وعلى طريق الحجّ بدت التراتيل أكثر من مجرّد صلوات. وفجأة ضاق علينا طرفا الطريق في ممرّ من الأجساد والندب. معاقون، وعميان، وأشخاص مشوّهون. نساء بلباس الحداد يحملنَ أطفالهنّ بين أحضانهنّ. كنت قد رأيت أناساً يطلبون صدقةً، لكن ليس بطريقة الكورس تلك. كانت تراتيل المزامير مدهشة، ولا سيّما بالنسبة

لطفل. كذلك الأمر بالنسبة للتعابير الصامتة، والنظرات الثاقبة لتلك الأجساد المبتورة العارية. كانت طقوس الحجّ والشفاء والتخلّص من الذنوب، والحماية في سان بييتو عبارة عن اختراق كوّةٍ في جدار حجريّ. كان الأمر سهلاً بالنسبة للأطفال، لكنّه صعب على الكبار، ولا سيّما إن كانوا سماناً. إذ يمكن رؤية نصفه جسده في جانب من الجدار، والنصف الثاني من الجانب الآخر. كان الأمر مضحكاً في بداية الأمر. المصائب، كي تكون مضحكة، لا تدوم طويلاً؛ فقدان التوازن والسقوط، التزحلق على الرصيف، صفعة المهرّج لشخص آخر وطرحه أرضاً، قالب الحلوى في وجه أحدهم، سقوط أحدهم ومؤخّرته معلّقة، كلّ ذلك كان مضحكاً إن لم يدم. وإذا حاول أحدهم عبور الجدار عبر الكوّة، وهو طقس علاجيّ مقدّس، ولم يقدر وبقي عالقاً، تصبّب وجهه عرقاً، واشتدّ حنقه، وبدا لنا المشهد كوميدياً ومأساوياً على حدٍّ سواء. ليس هناك مكانٌ للمعجزة، بل لفشلها. التلويحة اليائسة للاستعارة الجسديّة. جميع الذين يدفعون أمامهم، إضافة إلى الأصوات التي تحفّز وتشجّع، كانوا ينجحون، في بعض الأحيان، في اجتياز الكوّة. وهكذا يخرج الشخص من الجانب الآخر من الكوّة فاتحاً ذراعيه كمن يهبط أخيراً في روعة العشب شاعراً بارتياح عام وبطمأنينة مشتركة، طمأنينة الناس والأحجار. نعم الطمأنينة، لعلّها هي الأقرب إلى المعجزة.

كلّا. قرية سان بييتو ليست بعيدة، لكنّها كانت بالنسبة لي أوّل مكان رأيتُ فيه رجلاً أعمى يضحكُ بعين ويبكي بالأخرى. جمعت كوّة الجدار بين المرض والفرح. الأغاني والمرثيّات. التضرّعات والألعاب الناريّة. الفجر والغروب. وبدت صورة الجدار كحدودٍ ما ورائيّة، وممرّه المستدير كعينٍ شافية، ساخرة في بعض الأحيان، وقاسية في أخرى كثيرة. أخيراً أدركت أنّ

سان بيبتو جزء من بلد غير مرئيّ كليّ الوجود. شبكة عنكبوتيّة تهزّها وتعبرها رياح التاريخ دون أن تفتّتها. معظم رحلاتنا الأُوَل، زياراتنا الأسريّة، كانت إلى الأماكن المقدّسة التي تظهر في التقويم السنويّ بأنّها أيّام عطلة. مناسبات دينيّة يُفضّل الذهاب إليها مشياً على الأقدام، على الأقلّ مسافة قصيرة. الآن، تدخل السيّارات وتدنّس، إذا كان مسموحاً، ميدان الاحتفال أو المقبرة. إلّا أنّ الذهاب مشياً له طعم آخر، ولا سيّما حمل القربان على الرأس، وتخصيص الوقت لما هو مقدّس، وهو وقت الوصول إلى ما هو غريب. حينما أكتب، أذهب سيراً على الأقدام، سعيداً ومصمّماً، وأحياناً أحمل كرزة، إلى أن ترتجف قدماي لرؤية الجدار في النهاية، والكوّة فيه.

أحياناً، لا يمكن الوصول بسبب عدم الذهاب سيراً على الأقدام. هذا ما حدث لي آخر مرّة قدمت فيها إلى احتفال قرية سان أندريس دي تيكسيدو الدينيّ، الاحتفال الدينيّ الأكثر غرابة وأصالة بين المناسبات كلّها. في السيّارة، بصحبة ليز ناش، الكاتبة والصحافيّة البريطانيّة. طوال الطريق والحديث عن ذلك القدّيس أندريس الذي وصل من البحر في قارب من حجر. رحت أشرح لها المعنى المجازيّ للقارب الحجريّ، وفقاً لنوع الصابورة المستخدمة في الباخرات، وشارحاً أسطورة تيكسيدو (موطن شجر الطقسوس) التي تقول إنّه سيأتي إليها الميت الذي لم يزرها وهو حيٌّ. كذلك الحديث عن سبب عدم قتل الحيوانات ولا الحشرات، فلعلّها تكون أرواح الموتى وهم في الطريق إليها. إضافة إلى أحاديث الانبعاث، وتقمّص الأرواح في الموروث الشعبيّ، إلخ...

إلى أن وصلنا إلى المقام. كانت الشمس قد أشعلت البحر، والطبيعة الخبيرة تحضّرت من أجل غروب فنيٍّ يليق بعدسات آخر الحجّاج. وقف

على الباب الجانبيّ للمعبد كاهن بعباءته السوداء والقبّة البيضاء. يوم العمل أوشك أن ينتهي بالنسبة له أيضاً. اقتربت منه ليز وسألته عن الأسطورة. من الباب الخلفيّ نصف المغلق كان في الإمكان رؤية التشريحات الشاحبة لقرابين الشمع شبيهة بألعاب مكسورة تنتظر المعجزات. كانت ليز مهتمّة جدّاً، فكم من المدهش تعرُّف الإيمان الحيّ لتقمّص الأرواح، تلك الفلسفة الشرقيّة في أقصى الغرب الأوروبيّ.

ابتلع الكاهن رشفة. نظر إليَّ بطرف عينه. نظر إلى البحر ونظر إلى ليز.

قرقع بلسانه وقالِ: حكايات نساء مسنّات.

ثمَّة رجل شجاع.

٧. وداع السكسفون

لم يركب أبي الطائرة قطّ. إنّما سبق له أن رأى وجه طيّار غريب، لذلك كان متوجّساً من الطيران. سافر بالقطار كثيراً، منذ أن كان فتىً، على أسقف القطارات. حدَّثنا عن اليوم الذي أخبروه فيه أنّه سيبدأ العمل كمتدرّب بناء في المدينة، كما لو أنَّه خبر إطلاق سراحه. وعلى عكس ما جرى في قصّة «**وداعاً أيّتها النعجة**» لكلارين، في قصَّة أبي بقيت البقرة حزينة، وشعرَ هو بسعادة عارمة عندما ترك وراءه سجن الأعشاب الخضراء. لم يشعر قطّ بالحنين إلى ذلك الوقت الذي كان فيه طفلاً راعياً، وبكلّ تأكيد لا يمكن وصفه «بصديق الحيوانات»، ولا سيّما بعد نطحة البقرة. لم يكن ذلك بسبب خوفه أو نفوره من الحيوانات. احتفظ دائماً بمسافة مناسبة عنها، غير قابلة للتفاوض، حتّى من الحيوانات المنزليّة الأليفة. كان «كوتوبيلو» الاستثناء الواضح، وهو جرو صغير بصفات مميّزة إلى درجة أنّه لم يكن ينقص ذلك الجرو خارق الذكاء سوى القدرة على الكلام. ممّا لا شكّ فيه أنّ الحيوانات تتكلّم، لكنّنا لا نفهمها، غير أنّ مزيَّة كوتوبيلو تكمن في أنّنا كنّا نفهم معظم ما يقوله. لم يكن ينذر بالزيارات فحسب، بل كان يُبدي رأيه فيها بكلّ صراحة. في تقدير أبي، لم يكن كوتوبيلو شخصاً، لكنّه لم يتوقّف عن كونه ذاك الشخص. إنّه أمرٌ مختلفٌ: خُلقَه. اعتادا مشاهدة التلفاز معاً في ليالي الشتاء الطويلة، وأحبّا معاً الأفلام الأمريكيّة، وتذوّقا معاً طعم الموسيقا. بالنسبة إلى أبي، أعظم إنجاز حقّقه الجنس البشريّ هو أوركسترا الجاز.

- هؤلاء السود يعزفون عزفاً إلهيّاً.

مات كوتوبيلو عندما بدأتُ الكتابة في الصحافة. كتبتُ حينها مقالاً حاولت به التعبير عن قلق والدتي: «هل يمكن لحيوان مثل كوتوبيلو الذهاب إلى الجنّة؟» المدهش في الأمر أنّه بعد أيّام قليلة كتب عالم لاهوت معروف، أندرس توورريس كيروغا، وأجاب عن السؤال قائلاً: «لمَ لا؟ فالحيوانات لها أرواح، وستكون الجنّة مكاناً ما ورائياً مؤلماً ومضجراً إذا ما سكنته أرواح البشر فحسب». قصّت أمّي المقال واحتفظت به في درج الكومودينا طوال حياتها.

حينما تأتي لحظة ذبح الخنزير، كان أبي يفعل عكس ما يفعله الأشخاص العاديّون. يختفي.

كان البيت الذي ذهبنا لنسكن فيه عام ١٩٦٣، في قرية كاسترو دي إلفينيا، لا يزال قيد البناء. يقع في مكان ناءٍ عُرف باسم «موني دي ناتشا» على حدود طريق ترابيّ يصل إلى ما يدعى «بالإسكوريال»، وبرج بثّ إذاعة كورونيا. واحد من أوائل الأخبار التي سمعتها من بعض الجيران، بشيء من القلق، هو أنّه عند تلك القمّة بالتحديد تلتفّ الريح للهبوب. ولربّما كانت هذه المزيّة تنسب إلى القمم كلّها، لكن في تلك الحالة، كان في غاية الواقعيّة سماع حفيف شجر الكينا العاصف. لم يكن شخصان أو ثلاثة من أكّدوا ذلك، بل الجميع تقريباً كانوا يقولون: «ستسكنون حيث تلتفّ الريح للهبوب». وحقيقة، رؤية الريح وهي تلتفّ للهبوب، شغلتني وأقلقتني في فترة من الزمن، ولا سيّما عندما كان أبي يردّد: «لا يمكن للمدينة أن تصل إلى هنا أبداً!» وفعلاً كانوا على حقّ؛ فطيور النورس في لا كورونيا، حتّى في العواصف، كانت دائماً تلتفّ هناك، عند تلك النقطة شاهقة العلو لبرج

توتّر البثّ الإذاعيّ. كذلك طيور الزرزور التي كانت ترسم وتمحو ظلال تحليقها المفاجئ في السماء. أمّا الغربان فلم تكن تفعل ذلك. كانت تطير وحدها أو في جماعات مبعثرة، وفجأة تقع ثمّ تعود إلى الطيران نحو المجهول. وكان أبي يتعاطف معها. في الكنيسة دائمة الرطوبة والبرودة مع الأجساد المتحجّرة بسبب عدوى البلاط، كانت هناك لحظة انبعاث حين قرأ الكاهن جزءاً من سفر التكوين في العهد القديم، ولا سيّما قصّة سفينة نوح. لفتت انتباه الجميع يدا الكاهن الذي قام بإيماءة الإفراج عن حمامة وغراب ليكونا مرصدين جوّيين بعد الطوفان. عادت الحمامة مع غصن زيتون في حين لم يخبرنا الكاهن شيئاً عن الغراب. يا تُرى، ماذا حلّ به؟ بدهيٌّ ألّا يعود الغراب، إذ لم يكن هناك شيءٌ آخر لرؤيته لدينا، في الجبل، غيره يطير على هواه. الحمامة مراسلة صحافيّة، والغراب شاعر متشرّد. كذلك الوقواق. تابع رحلته. لم أسمع صوت الوقواق مرّة أخرى كما سمعته في طفولتي عند ذلك الجبل. إحدى تلك المرّات القليلة التي كسر فيها جدّي النجّار صمته كانت ليخبرني، بهدوءٍ، وكي لا أنسى أبداً، ذلك المثل الصائب: «إذا لم يغرّد الوقواق في شهر آذار أو نيسان، فهو إمّا ميت وإمّا أنّ النهاية توشك أن تقترب». كانت هنالك صخرة كبيرة تحمل اسمه: صخرة الوقواق. لها شكله، طائر حجريٌّ مجنّح بمنقاره المواجه لخطّ المنارة. أمّا الصخرة فكانت توشك أن تطير، هكذا تموضعت. في شهر آذار أو نيسان من كلّ عام كان الوقواق يمرّ ويحلّق صوب الشمال قادماً من مكانٍ ما في أفريقيا. لا بدّ من وجود سلالة من الوقواق الأفريقيّ، تلك التي حافظت على ذلك الطريق، ذلك أنّ المسار الذي تتبعه لم يكن عاديّاً بالنسبة إليها، إذ لم تكن تمرّ فحسب. كانت تستمتع بالوقوقة التي تعلو وتنخفض بشدَّة. وانحصرت جميع

رغباتنا في نظرة واحدة، رؤية الوقواق. كانت ثاباتيرا في ذلك الوقت مساحة كبيرة من الغموض والألغاز. أرض لا لأحد، تسكنها بالنسبة إلينا كائنات خياليّة تزورنا في بعض الأحيان في شكل ثعالب، أرانب، ابن عرس، ثعابين، وبُوم. كانت أيضاً المكان الأوّل آنّى وقوقت طيور الوقواق. لم يكن يوجد حينها أيّ شارع أو نادي غولف. إلى أن شيّدوا شارعاً وملعب غولف. في الصيف اعتادت حاشية فرانكو أن تأتي على الدرَّاجات الناريّة ويمتلئ الجبل بمئات الحرّاس. وفجأةً يقفون ثابتين في أمكنة حراساتهم. ويمرّ موكب القائد بسيّارته المصفّحة والمظلّلة بالسواد، كالنعوش. لم نستطع أن نميّز أيّ وجه في ذلك الموكب الصيفيّ. مع مضيّ السنوات، اختفت تلك المرافقة الوحشيّة ليحلّ محلّها احتلال الأراضي الممسوحة. بقيت السماء وخيال الغيوم، والريح التي تغيّر وجهة الغربان الساخرة.

الواقع أنّ أبي لم يكن يتحمّل ذبح الخنازير أو أيّ من الحيوانات الأخرى. بنى الإسطبلات، الزرائب، المداجن، الأقفاص، والحواكير الصغيرة المسيّجة التي تحيط بالمنازل. كان يساعد في تربيتها. كذلك بنى الأحواض حيث تحفظ أجزاء الخنزير المقطّعة في الملح. كانت عمليّات الذبح والسلخ تحدث في الخريف، في الفترة الحارّة منه. ويوم السلخ هو يوم عيد بامتياز في المنازل. والخنزير في الثقافة الغاليسيّة الشعبيّة هو بمنزلة عطيّة إلهيّة لا مثيل لها. إلى درجة أنّ ثمّة أشخاصاً حينما تسألهم عن طائرهم المفضّل، ينظرون إلى السماء ويقولون: «ليت الخنزير يطير!» إضافة إلى كثير من الأمثال التي تعظّم من شأن الخنزير، وليست بالضرورة قديمة. مثل هذا المثل: «أنقذ الخنزير أناساً أكثر من البنسلين». وحقيقةً كان أبي يختفي في ذلك اليوم. حتّى إنّ رغبة الانتقام لم تغيّر موقفه. لمّا عمل بمفرده، اعتاد الناس في كثير

من الأحيان التأخّر في الدفع، وهكذا كان عليه أن ينتظر أشهراً. وبعد فترة من الشحّ يقبض أجره دفعة واحدة. كان المنزل منعزلاً وهدفاً سهلاً للصوص. سرقَ اللصوص منزلنا في يوم أحد. لم يكن أحد في المنزل، كذلك لم يكن هناك ما يستحقّ السرقة. في الواقع كان أبي قد قبض يوم السبت أجرة أشهر عدّة. دُعينا يوم الأحد لحضور حفل أُسريّ. أين أضع النقود؟ وبدت فكرته رائعة. أولجَ النقود في علبة طلاء فارغة، علبة معدنيّة محكمة الإغلاق، وخبّأها في حظيرة الخنازير تحت القشّ والأعشاب، حيث تنام. وأغلق الباب بقفل. من سيفتّش في هذا المكان؟ لّما عدنا ليلاً كان القفل في مكانه. فتح أبي الباب، ومنذ النظرة الأولى رأى العلبة في مكانها، لكن مفتوحة وفارغة. نبشها الخنزير واجترَّ في لحظة واحدة جهد أبي لمدّة أشهر. على الرغم من ذلك، لم يذهب والدي إلى يوم السلخ.

تولّى أحد أعمامي تلك المهمّة. ذبح الخنزير وسلخه. أشرف على عمليّة الذبح كأنّها طقس: حرق الشعر باستخدام شعلة من القشّ. غسل الحيوان. فتحه وتقطيعه وتمليحه. وتولّت أمّي مهمّة التحضيرات. إضافة إلى بحثها عن أيدٍ لتثبّت الحيوان. بدورها كانت عمليّة الذبح حرفيّة، فالمهنيّة تكمن في اختصار معاناة الحيوان إلى أقلّ وقت ممكن، والانتهاء من الأمر بسرعة، علاوة على معرفة الطريق الأفضل إلى القلب، وقيادة السكين إليه بسرعة دون الارتطام بأيّ شيء آخر. كانت مهمّتي الحضور هناك عند مستوى الجرح المفتوح كي أجمع الدّم النازف في إناء، وتحريك الدماء المخصّصة لصنع السجق كي لا تتخثّر.

لم يعلّق أحد على اختفاء أبي، بل كان يجري تجاهل غيابه. عدُّوه أمراً غريباً فحسب. كأنّه ينتمي إلى دين آخر. بالنسبة إلى الأضاحي الأخرى

كالطيور والأرانب، اهتمّت أمّي بها. لم تكن متلهّفة إلى أكل اللحوم، بل إلى تقديم الطعام. وكان على أحد ما أن يتولّى تلك المهمّة. أسوأ يوم في حياتها كان عندما خرجت عن سيطرتها بطّة مقطوعة الرأس. تابعت البطّة القفز فوقنا في شكل دائريّ للحظة من الوقت. حاولت أمّي تهدئتنا وتهدئة نفسها، وقالت: «مسكينة هذه البطّة. لديها كثير من الكهرباء في جسمها».

كنا نتحاشى أحاديث الأضاحي والذبائح، لكن في بعض الأحيان تخرج بشكل غير متوقّع، وليس في أفضل مكان ممكن. على طاولة الطعام مثلاً. كما حصل في قصّة الديك ذي الصياح الصادح، الذي اعتدنا الاستيقاظ على صياحه كلّ صباح باكر. أخّرت أمّي قدر استطاعتها تلك اللحظة الحتميّة. وفي أحد الأيّام أعدّته طعامَ غذاء لاحتفال ما بعد أن أخبرت الجميع بذلك. كنّا نعرف أنّها أكثر من يستاء من تلك اللحظة حين تذهب وحدها إلى مسلخ الحاكورة العابر. ولمّا عادت تمتمت قائلة: «انتهى الأمر. لن أفعل ذلك مرّة أخرى». أتذكّر أنّ أبي لم يأكل ذلك اليوم. وراح الجميع يلوك ذلك الرز، كأنّه حفل موسيقيّ. من حين إلى آخر، ومع مرور السنين، أتذكّر أبي يقول:

- كان ذلك الديك يساوي بوتوسي!

إلى أن قالت أمّي، بالفعل، ذات يوم «إنّها المرّة الأخيرة!» وانتهت بذلك أضاحي الحيوانات إلى الأبد.

وكما سبق أن قلت، فإنّ البوتوسي هو القيمة العظيمة للأشياء لدى أبي. كان البوتوسي يساوي سكسفوناً أيضاً... تعلّم أبي قراءة النوتة الموسيقيّة قبل أن يتعلّم قراءة الكتب. وتعلّم الصولفاج قبل الأبجديّة. كان يعرف الحروف الأولى، فقد التحق بالمدرسة لبضعة أشهر، لكن استغلّ الوقت

الميت في أثناء تأديته الخدمة العسكريّة في ثكنة البارغا وأتقن القراءة والكتابة. كما أنّه شارك في الفرقة العسكريّة الموسيقيّة. في الشتاء، كان البرد قارساً إلى درجة تعبيره «إنّ النوطات الموسيقيّة تتجمّد في الهواء». وفقاً لرواية والدي عن تلك الفترة الجليديّة في إحدى الليالي، بقي زميله عازف البوق عالقاً عند نوطة موسيقيّة، إذ لم يتمكّن من إبعاد شفتيه عن أنبوبه الأسطوانيّ. ضحكنا جميعاً على مبالغته، أمّا هو فقال: «تضحكون بسبب جهلكم». معه حقّ. بمجرّد النظر إلى تلك الثكنة العسكريّة في بارغا وأبنتيها التي نبت عليها العلّيق وأصبحت مهجورة اليوم، يقتحم البرد العينين حتّى لو نظرت إليها في عزّ الصيف، على بُعد مسافة. ذلك الشاب، ذو الأحد عشر عاماً، الذي ركض من سيغراس إلى جسر كامبري كي يقفز على عربات القطار، على غرار كثيرين من عمره، كي يذهب إلى العمل في المدينة، كان قد تعلّم في فتوّته الباكرة، وبمصادفة سعيدة، العزف على السكسفون. كان ذلك بالمقايضة. حصل عليه جدّي النجّار مقابل بعض الأعمال التي أنجزها. كان عامل البناء الغرّ يخرج من ورشة البناء ويذهب إلى دروس المايسترو الذي يكسب رزقه كعازف بيانو في ملهى صغير.

وعن حياته كعامل بناء غرّ يتذكّر أبي اليوم الذي خطر في باله أن يسخّن على ألواح خشب الساج أربعاً وعشرين طنجرة لعمّال الورشة. حينها أشعلوا ناراً عظيمة تحوّلت إلى جمرٍ دون دخان. دهش أبي لفعلته. لم يكن يعرف أنّ ذلك الخشب يساوي بوتوسي. ولمّا أتى ربُّ العمل ورأى ما رآه، أطلق أيماناً جعلت أغصان حديقة الرينو في لا كورونيا ترتجف: «سأشوي بهذه النار عظام ذلك المتدرّب الغرّ!» في ذلك اليوم، تمكّن أبي من الاختفاء أيضاً بمساعدة زملائه.

اختفى في تلك المرّة، وفي مرّات عدّة غيرها، لكنّه مع الوقت أصبح بنّاءً ماهراً. كان قد أحبَّ في فترة شبابه العزف على السكسفون، واستطاع دمج الأمرين معاً، عمله وشغفه بالسكسفون، لسنوات عدّة، وبذلك قبض أجره من ورشات العمل، إضافة إلى عروض عطلة نهاية الأسبوع في الحانات وصالونات الرقص. كان الموسيقيّون في لا كورونيا يجتمعون في بار «لا تاثيتا دي بلاتا»، هناك حيث تعرّف أبي إلى الأبطال الحقيقيين للانفعال الشعبيّ. أولئك الذين أبقوا شعلة الحبّ والحفلات في ذلك الزمن البائس. عزف أبي في أوركسترا ثابتة ومرتجلة فقد كان التعاقد معهم في القرى نفسها أو من قبل مالكي صالونات الرقص. إلّا أنّ خسارة صالونات الرقص أحبطت العديد من الموسيقيين. كانت حيواتهم شبيهة بحياة عصفور الدوريّ. في الصيف يجمعون الحبوب، وفي الشتاء تتحوّل الحياة إلى جحيم. لهذا السبب لم يترك أبي عمله في البناء. وعلى غرار عصفور الدوريّ، كان يخاف الشتاء. في صغرنا كنّا، أنا وماريا، نراه يعود من العمل ويبدل ملابسه ويخرج على الفور مع سكسوفونه ليصعد في قافلة الأوركسترا مع زملائه ويذهبون إلى أماكن بعيدة وصولاً إلى الجبال المجاورة لأستورياس وبيرثو. إلى أن هزمه ذلك الإيقاع غير المحتمل، كما حدث مع شابلن في فيلم «**الأزمنة الحديثة**»، فنائماً راح يرقص على وقع آلات لا يمكن إيقافها.

ترك عامل البناء، ذلك العاشق المحترف، الموسيقا. إنّما بقي السكسوفون. كان بالنسبة إلى كارمينيا، ولنا أيضاً، كنز المنزل السرّيّ. احتفظ به فوق الخزانة في انتظار وقت أفضل. من وقت إلى آخر كان أبي يأخذ السكسوفون ويحمله بيديه. المرّة الأخيرة التي سمعناه فيها يعزف كانت في ليلة عيد الميلاد. عزف الباسو دوبلي والبوليرو. حتّى إنّه عزف

أناشيد الميلاد. لم تتوقّف أمّي عن الضحك تلك الليلة. حينها أدركت أو ظننت أنّني عرفت متى ولماذا كانا يشعران بالوحدة. لقد كان ذلك الرجل هناك، يقضي وقته في إبداع الألحان.

في إحدى الأمسيات، عاد أبي إلى المنزل رفقةَ رجل ذي شارب حول فمه، يشبه حدوة الحصان. كان الرجل سميناً وله ذراعان ضعيفان كمن يعاني من تعب تشريحيّ. بدا عليه بشكل عام نوع من الذبول الجسديّ. كانا جادّين وصامتين. دخل أبي غرفة النوم، وأنزل السكسوفون من أعلى الخزانة. بكينا. ببساطة هذا كلّ ما حصل. بدأنا، أنا وماريا، نبكي، وكان بكاءً لا عزاء له. انتابنا شعور بأنّ جميع ساعات العالم قد توقّفت عن العمل. لم يكن لأبي أيّ ردّة فعل تضامنيّة إزاء السكسوفون. بدا مرتبكاً وحائراً. نادانا جانباً وقال لنا بصوت جدّيّ:

- هل تعرفان لماذا أعطيه السكسوفون؟ لأنّه يحتاجه في كسب لقمة عيشه.

صحيح أنّنا بكينا، لكن من كان حزيناً وأسفاً عن حقّ هو ذلك الرجل بعينيه السوداوين وشاربه الشبيه بحدوة الحصان. رأيناه يخرج من المنزل حاملاً العلبة السوداء. فجأة استدار نحونا. اقترب منّا ووضع يده في جيبه وأعطانا قطعة نقديّة. ثمّ خرج وسار نازلاً صوب الشمال بجسده الذابل وقد بدا كأنّه يحمل روحاً بيده.

٨. رحلة إلى الجنَّة القلقة

الصورة الأولى لامرأة ترتدي ثوب الحداد وتقف عند إحدى النوافذ. إلّا أنّها لا تنظر إليّ. رحت ألاحق اتجاه نظراتها، وكانت صوب رجل منهمك في أمرٍ ما. إنّه فاروكو. كان يصفّ أزواج الأحذية والجزمات فوق أحد الجدران. نظّفها ثمَّ لمّعها بملمّعات الأحذية مستخدماً فرشاة وقطعة قماش. بعد ذلك أخذ يرتّبها حسب الأعمار. هناك، تحت أشعّة شمس يوم أحد، كانت كلّ أحذية حياته.

عرّف غاستون باشلار العالم الذي رسمه مارك شاغال بأنَّه «الجنَّة القلقة». لم أكن أفهم حينها فلسفة بلاشار الشعريَّة، كذلك لم أفهم قرية شاغال المعلّقة. إلّا أنّني عرفت ذلك المكان في طفولتي وكبرت فيه. إنّه جنَّة حيث الأحصنة الملوّنة تأكل الشوك. جنَّة صلبة سمّيت على اسم معركة. إنَّها قرية كاسترو دي إلبينيا.

شعر أبي بسعادة عارمة لأنَّه بنى هناك، بعرق جبينه ويديه، ما أسماه وفق الطريقة الفنزويليّة بناءً عشوائيّاً من طابق واحد، قيد البناء، في منتصف التلّ. تحديداً في ذلك اليوم الثلجيّ المشهور من عام ١٩٦٣، ركّب باب العتبة الذي صنعه جدّي. كان قد عبر نهر مونيلوس حاملاً الباب على كتفيه. اضطرَّ يومها إلى اجتياز طريق السكَّة الحديديّة لأنَّ نفق سوميسو كان مغلقاً. ذهبنا نحن ثلاثتنا. جدّي النجّار الذي حمل إطار الباب، وأبي الذي حمل الباب نفسه، وأنا، الطفل الصغير الذي حمل بعض العُدد وراح يعدّ

خطواته متّبعاً أثر خطواتهما. كان لا بدَّ من القيام بذلك؛ من امتلاك بيت، بما أنَّ التعريف الأكثر دقَّة للاستقلاليّة بالنسبة إلى أبي هو: «على المرء أن يعيش في منزل لا يسمع فيه جاره وهو يسحب سيفون حمّامه».

في بداية الأمر لم نكن، أنا وكارمينيا وماريا، مقتنعين بفكرة النزوح من مونتي ألتو والذهاب إلى مكان أكثر ارتفاعاً، عند طريق ترابيّ، حيث تتساقط الأمطار الجارفة، دون أيّ وسيلة نقل. ناهيك عن الريح الهوجاء. من أجل السفر إلى المدينة كان علينا أن نمشي مسافة طويلة بين طرقات الغابات والحقول وصولاً إلى المكان الذي ننتظر فيه الحافلة، التي كنّا نطلق عليها اسم «الصرصور». هي بمنزلة حافلة قديمة تأتي مكتظةً بالركّاب قادمةً من منطقة لاس مارينياس. بالقرب من موقف الحافلة، انتهوا مؤخّراً من افتتاح مصنع كوكا كولا سدَّ حاجة غاليسيا كلّها. كان المبنى مذهلاً بالنسبة إلى الفترة التي بُني فيها. مكعّب زجاجيّ ضخم على الطريق العام، لكنّه محاط بالطبيعة. حينما تتأخَّر حافلة «الصرصور» المترهلة، كنّا ننظر مبهورين إلى الحركة المستمرَّة للحزام النقّال حيث تصطفّ زجاجات ذلك المشروب السحريّ، فتدخل خالية من جانب وتخرج معبّأة من الجانب الآخر دون وجود أيّ كائن بشريّ على امتداد نظرنا. لمّا حدّثوني عن الواقعيَّة السحريَّة، تلك التسمية الأدبيّة التي يبالغ فيها النقّاد الكسالى، كان أوّل شيء يخطر في بالي هو صورة ذلك المبنى الشفّاف والقوارير التي تُعبّأ وحدها في حين ننتظر الحافلة العجوز الهرمة بهدير محرّكها الذي يشبه الشخير. كانت حافلة «الصرصور» تمثّل الواقعيّة حقّاً، وفيها شيء من السحر.

اضطررنا إلى مغادرة منزلنا الأرضيّ في شارع مارولا بالقوّة في عمليّة إخلاء مستعجلة. لم يعطنا مالكو البيت الوقت الكافي من أجل الانتقال. لذا

ذهبت كارمينيا إلى منزلهم من أجل التفاوض معهم لتأجيل المدّة. وأخذتني معها. عموماً هي امرأة هادئة، لكن في ذلك اليوم استطعت أن أحسّ بنبض قلبها وأنا أمسك يدها. استقبلتنا السيّدة دون أن تدخلنا البهو. كانت امرأة جادّة ومرصّعة بالجواهر. افتتحت أمّي كلامها ببعض الجمل من قصيدة للشاعرة الغاليسيّة روساليا دي كاسترو، بعنوان «**آخذ حقّي بيدي**»، التي كان الجميع يحفظها عن ظهر قلب. ما كان من تلك المرأة إلّا أن صرخت منادية زوجها. ما لم نتوقّعه في ذلك المشهد أن يظهر زوجها مرتدياً مريلة الطهو. راحت المرأة تحرّضه نحو أمّي، وبدا متوتّراً جدّاً إلى درجة كاد لا يُسمع معها صوته. في الواقع، لم نعرف بالتحديد ما إذا كان خائفاً من المستأجرة الغضبى أو من أوامر زوجته. في نهاية الأمر قرَّرت كارمينيا وقف المشاجرة. تمتم الرجل بعض الكلمات في حين اختفت زوجته. أمسكت كارمينيا يدي وذهبنا دون مزيد من اللغط. طوال طريق العودة كانت كارمينيا تتحدَّث وحدها، وكلّ ما شعرت به حينها هو نبض القصيدة التي ما فتئت تردّدها.

بينما كان أبي يتقدَّم في بناء البيت، في تلك القطعة الجبليَّة التي اشتراها بفضل البوليفار الفنزويليّ، ذهبنا للعيش في منزل والدَي أبي لبضعة أشهر، جدّي النجّار وجدّتي الخيّاطة. كانا يسكنان أيضاً عند سفح جبل في ضواحي المدينة في منطقة تسمّى المارتينيتي. لا يوجد أثرٌ لذلك المنظر اليوم. كان جدّي يذهب إلى العمل كأيّ عامل. إضافة إلى ذلك كان له مشغله الصغير الخاصّ تحت المنزل. أيّام الأحد، اعتاد أن يزرع قطعة الأرض التي يملكها إلى جوار نهر ميسويرو، الذي يتفرّع عند بساتين أغرانكسا، ليصبّ أخيراً في الخليج بعد أن يتّخذ اسم نهر مونيلوس. كان

النهر يتدفّق حياةً آنذاك. أمّا الآن فقد اختفى ولم تبقَ منه إلّا صورة في الذاكرة. لعلّها واحدة من الحالات القليلة في العالم التي تقرّر فيها مدينة ما موت نهرها. أحياناً، حينما يهطل المطر بغزارة، نسمع في أقبية مواقف السيّارات خرير طيف النهر.

كان أحد جيراننا في منطقة المارتينيتي رجلاً أخرسَ بلحية طويلة. أعتقد أنّ اسمه فيديل. أو أنّهم أطلقوا عليه هذا الاسم تيمّناً بالثوار الكوبيين ذوي اللحى الطويلة. كان رفيقاً جيّداً لجدّي النجّار. فهمَ أحدهما الآخر بصمت. كان عامل المنجرة يرتدي دائماً زيّاً أزرقَ خاصّاً بالعمل وله حقاً هيئة شخصيّة أسطوريّة. كانت له سحنة مغامرٍ أسطوريّ فقد القدرة على الكلام في إحدى الجزر حيث تُسرق الكلمات. سميناً ورشيقاً في آن معاً، وظّف جسده كلّه كي يصدر إشارات تعبّر عمّا يريد أن يقوله. كان الجار الأكثر تواصلاً من حولنا، وكان جدّي يستمع إليه بعينيه، فيتأمّل أو يهزّ برأسه موافقاً. كان من الممكن أن يقضيا ساعات في تلك الحال الجسديّة التشريحيّة الفلسفيّة، فيتعجّبان بحركات الأهداب، ويؤكّدان بالحاجبين، ويكتبان في الهواء بالذراعين واليدين والأصابع، تعبيراً عن الأفكار. في أحد الأيّام توقّفت مياه النبع عن التدفّق عبر القناة. راح الأخرس الذي يفهم في جميع الآلات يشرح المشكلة للجيران الحضور. لم يستخدم الكلمات، مع ذلك انعكست بلاغته من خلال انتباه الجميع لشرحه، لتلك الطاقة المنبعثة من جسده الناطق، ومن طريقة شرحه في الهواء عن طريق تدفّق المياه كلّه، إضافة إلى قانون عمل الأواني المستطرقة. لمّا انتهى، عادت المياه إلى التدفّق في القنوات. ليس معقولاً أن يحدث غير ذلك. كان الجميع واثقاً ومنتظراً. من العار على الماء ألّا يخرج بعد كلّ هذا الجهد!

مضى يوم الثلج الشهير. ويوم حمل الباب. واليوم الذي أصبح لنا فيه منزلنا الخاصّ.

في تلك المنطقة توجد جامعة لا كارونيا الآن. من حيث الملكيّة، كان ينبغي أن تسمّى جامعة كاسترو دي إلفينيا، فهذه من الأشياء الأولى التي تعلّمتها؛ أنّ كاسترو شيء، والمدينة شيء آخر تماماً. هنا، حيث تتوق الأمكنة جميعها لتحصل على لقب مدينة، بقيت كاسترو الحالة الوحيدة المعروفة التي أُصرّ فيها على أن تبقى مجرّد قرية. وهذا ما تمّ تأكيده في جمعيّة الجيران الأولى حيث اجتمعوا في حانة ليونور. حاكم القرية، في ذلك الوقت، الذي كان الحاكم بمنزلة العين الشاملة التي تراقب كلّ شيء، أرسل يومها شرطياً من القرية. لم يكن ثمّة داعٍ ليعرّف بنفسه، إذ كان الرجل الوحيد الذي يرتدي ربطة عنق عند الدوّار. جلس الرجل السريّ وراح يدوّن كلّ ما قيل، لكن جاءت لحظة توقّف فيها عن الكتابة عندما اتفق أعضاء الجمعيّة بالإجماع على تأسيس كاسترو كقرية، مستبعدين بذلك تسمية «ضاحية». بعد ذلك، تدخّلت إحدى الجارات وقالت إنّها تركت إناءً على الموقد للاعتراض على ضريبة فرضت بالقوة بسبب تنظيف المداخن. وسألت: «من منكم رأى منظّف مداخن هنا؟» كلّا. لم يرَ أحد هذا الشخص. هنا، أشارت إلى الشرطيّ السريّ وقالت: «لعلّ هذا السيّد هو رئيس منظّفي المداخن». استطعنا أن نرى أمارات الخسارة النهائيّة على وجه الشرطيّ. جمع عدّته وما دونه وغادر مسرعاً في سيّارة خشية أن يكون المكان وهميّاً وليس خطراً.

أمّا نحن، ففكرة أن نكون موجودين في مكان وهميّ وموجودٍ في الواقع، كان أمراً لم ندركه لمّا وصلنا. للوهلة الأولى بدا لنا المكان عدائياً تتجوّل فيه الكلاب الشاردة وتحاول عضّ ظلالنا المجهولة. لم نجرؤ، أنا وماريا، على

الخروج من معقلنا العشوائيّ. الأمر الوحيد الذي بعث فينا الهدوء تلك الليلة كان رؤية ضوء المنارة. وعلى الرغم من بُعده إلّا أنّنا رأيناه بشكل أفضل. كان توهّجه الدائريّ يجول في الظلام إلى أن يخترق نوافذنا. لمّا استيقظنا وذهبنا إلى الخارج، رأينا الجبل ملوّناً. كانت النساء قد نشرن الغسيل. أمّا بنات أسرة باررريرو، بنات بيبي وماروكسا، فكنّ فوق صخرة الوقواق. عرفنا بين أشياء أخرى أنّ الكرنفال قد اقترب، وأنّه في ملعب كرة القدم، يوم الثلاثاء، اليوم العظيم، سيحدث شيء لم يحدث له مثيل في أيّ مكان آخر من العالم.

- وماذا سيحدث؟

- ستلعب النساء هنا- قالت بياتريث.

إذا كانت النساء تلعب كرة القدم هنا، فهذا معناه أنّ هذا المكان ليس في آخر الكون. نعم، ما كان حقيقيّاً هو أنّ الريح تلتفّ للهبوب. وكيف لا! إنّها في خدمة النساء اللواتي يغسلنَ.

٩. رجل الطقس

رأيته يحفر بئرين. إلّا أنّه حفر فيهما بعد أكثر. آبار حقيقيّة، ارتوازيّة، لتوفير المياه. على الرغم من أنّ عمله ليس حفّار آبار. على العكس تماماً. كانت مهنة أبي كعامل بناء مرتبطة بالعلوّ أكثر من ارتباطها بالأعماق. إنّما، حين الحاجة، يفتح ثغرةً في الأرض ويبدأ في بناء أعماقها.

عمل أبي خلال فترة طويلة مع زميل له يدعى خوسيه، أصغر منه سنّاً. اعتاد خوسيه أن يلقّبه بالمعلّم. كان خوسيه دي فيلامورو رجلاً جديّاً، قليل الكلام. حينما يعمل يعبّر عن نفسه من خلال المحاكاة الصوتيّة والموسيقا التجريبيّة المنبعثة من أدوات العمل. وقد لفت انتباهي كيف كان ينادي أبي «بالمعلّم» بكلّ عفويّة. وبطبيعة الحال في هذه المهنة نفسها يوجد معلّم، لكنّ اللقب لا يعني أيّ تراتبيّة، بل مجرّد احترام فحسب. والمعلّم هو أبي. هناك كلمات ترقد في النظرات. كان بإمكان خوسيه أن يتجادل مع أبي، أن يختلف معه، أن يغضب منه، لكن في أثناء العمل لم يكن في مقدوره أن يراه إلّا كمعلّم. إنَّ صمت عمّال البناء، على غرار المهن الأخرى، له علاقة بضرورة سماع صوت العمل، والصوت الذي تصدره المعدّات في أثناء احتكاكها مع المادّة. شذوذ موسيقيّ صادر عن خطأ تناظريّ. يكفي سماع مجرفة الجصّ مع الميزان في أثناء عمليّة تلبيس الجدار لاختبار ذلك. إنّما، في كثير من اللحظات الحيويّة يحدث العكس. حينها، أبي وخوسيه يدندنان، أو يصفران كأنّهما يعزفان؛ أحدهما على البوق والآخر على السكسفون. وفي لحظة معيّنة

تتدخّل آله الترومبيت. هكذا تُعدي موسيقاهما معدّات العمل وتبعث فيها روح الأناقة. ربّما كان أبي الذي تعلّم الصولفاج قبل الأحرف الأبجديّة يؤكّد، هناك في العمل، على جودته كمعلّم. إن تمرَّدت عليه المواد ولم تطاوعه خلطة البناء، يصمت. يستكشف ويدرس العيب. يتفقّد مزيج المواد ثمّ يتغلّب على الخطأ. لا يحلف. كذلك لا يشتم. دائماً يقول:

- هات الإسمنت يا غلام! ولنفجّر العجائب!

لمّا كان أبي يعمل بالقرب من منزلنا، اعتدت أن آخذ له طعام الغداء بكسرولة صغيرة قرميديّة اللون ذات غطاء مثبّت بإطار مطاطيّ. دائماً كانت النار موقدة، وكان العمّال يُخرجون منها الجمر ويضعون فوقه الكسرولة من أجل تسخين الطعام. كانت لتلك النار رائحة خاصّة. فنار ورشة العمل لها رائحة البناء. اعتاد عمّال البناء استخدام قطع من ألواح صبّ الخرسانة ممزوجة بكسوة الإسمنت الرطب. لم تكن النار تتعاطف معها، فتطلق غيوماً من الدخان. الورق المقوّى الخشن لأكياس الإسمنت هو الذي يعقد النار، يجبرها على الاشتعال. يحييها. فتنتصب ثمّ ترقد بغضب. كان مهمّاً جدّاً طريقة وضع الأكياس والألواح الخشبيّة في شكل هرم بحيث يعبر الهواء بما يكفي. كان هذا التحوّط للنار يطيل من ديمومتها بحيث يصعب إطفاؤها حتّى وإن أمطرت. في وقت البرد الشديد اعتاد العمّال صنع مدفأة بدائيّة من خلال حرق نثرات الخشب داخل برميل حديديّ يستخدمونه أيضاً لخلط الجبس. كنت أعشق رائحة البناء. رائحة المواد الباردة، الصلبة، والمتصلّبة. حينما يكون البناء على الهيكل، تتلبّس المكان هويّة داكنة تفرضها كومات الرمل التي تنبعث منها رائحة الملح لأنّهم يجلبونه من الشواطئ والكثبان. كان لا بدَّ من غربلته ليبقى الرمل الناعم مثل الطحين فحسب. أمّا الرمل

الذي لم يُغربل فيبقى كفتات من ذاكرة البحر، وصدفات المحار، وأشواك القنافذ، ومخالب السرطانات أو السلطعونات. كلّ هذا، بامتعاض، في انتظار الحديد، والخشب، والقرميد، والطوب، والإسمنت والبلاط. لذلك كان لا بدّ من إضرام النار مهما كان حجم الخسائر. فهي إمارة، أو بالأحرى بمنزلة كلب شارد يلجأ بإخلاص إلى خلاء البناء. وبعد مرور أسبوعين أو ثلاثة كلّ شيء يبدو مختلفاً. ما إن تتوافر المواد تأتي العزيمة. القرميد يصبح أخفّ وزناً، وتتسارع نبضات بكرات الحمّالات. المعيار والشاقول يحكمان الآن الخلاء. اللا شيء.

في البناء، ثمّة مهن لها صفات أسطوريّة معيّنة. كالدّهّان مثلاً. استطاع أبي أن يميّز من النظرة الأولى من كان نجّاراً، أو كهربائيّاً، أو سمكريّاً. وبالطبع من كان دهّاناً أيضاً. سواء من خلال تسريحة الشعر أو القميص أو نوع الملابس. كان يعرف مباشرة من هو الدهّان. أمّا البنّاء؟ فالبَنّاء هو الذي يركّب كلّ شيء حيث لا يوجد شيءٌ. هو من يضع أكاليل الغار في الأعالي. وإذا كان هناك سقف، فهناك منزل. لكن ثمّة أمرٌ بالنسبة للبنّائين.

- كن دهّاناً. يغنّون في أثناء العمل. إنّ صحبتهم جيّدة ويرتدون قمصاناً برّاقة.

كان خوسيه يضحك كثيراً من قمصانهم. ربّما تلك هي مشكلة عاملي البناء؛ فهم لا يجرؤون على ارتداء القمصان البرّاقة اللافتة للنظر. أردت أن أكون سائق شاحنة. لطالما أعجبت بأحد أصدقاء أبي، من بالابيا. هو أيضاً يرتدي قمصاناً فَرِحة. إنّما، حينما تتعطّل شاحنته، يخلع قميصه وينزل تحتها بصدره العاري ولا يخرج حتّى يصلح العطل. اعتاد التحدّث عن شاحنته كأنّها حيوان ضخم قويّ وطيّب، لكنّه مجنون بعض الشيء، ولا سيّما عندما

تتعطّل أعطالاً تافهة. مرّة، وبعد ساعات عدّة من البحث، خرج من تحت الشاحنة وهو يتمتم، وعرض عليّ كرة من الفولاذ لمعت تحت الشمس. أترى؟ كانت نقطة بالغة الصغر كأنّها نقرة سوداء على سطح الأسنان. كان قد تصبّب عرقاً وتلطّخ بالسواد. نظر إلى واجهة الشاحنة بقنوط. في طريقة القيادة، كانا يشبهان بعضهما بعضاً في كلّ مرّة أكثر.

- تعطّلت بسبب هذه! أيعقل ذلك؟

أمّا العلاقة مع المعدّات، فذاك تفصيل آخر لفتني عندما كنت أذهب إلى ورشة العمل وأراقب خوسيه وأبي. كانا مركّزين إلى درجة يصعب معها لفت انتباههما. يوم العمل ينتهي حين تنظيف الأدوات وغسلها فحسب. كانا يفعلان ذلك بغاية الدقّة بحيث لا تبقى أيّ لطخة. وكلّما لانت أيديهم، وشحبت وتجعّدت، كأنّهما بشر دون جلد، ازداد بريق المعدّات ورقدت في وضعيّة الراحة، كأنّها في غرفة النوم في انتظار اليوم التالي.

في مكان ما من دماغي، وتحديداً في قسم المعلومات الأساسيّة المخفيّة، كان اليوم الذي شرح لي أبي وظيفة الشاقول، وكذلك عمل فقاعة الهواء داخل ميزان الماء. المنزل كلّه يستند إلى فقاعة الهواء تلك، تماماً كما تراها. إلّا أنّ الفقاعة ترى أفضل، أفضل بكثير من العين. لديها إحداثيات الأرضيّة ودوائر خطوط الطول والمتوازيات. الفقاعة تصحّح العين. لا تنخدع أبداً. دائماً صادقة. أنت عموماً تبني جداراً ويبدو لك رائعاً، لكن ما إن تضع ميزان الماء، يثبت لك العكس، مهما حاولت. الفقاعة دائماً على صواب، وليست العين.

إنّ ميزان الماء، بفقاعة الفراغ الذكيّة تلك، يمارس على العين، منذ ذلك الحين، جاذبيّة تنويم مغناطيسيّ عبر ذلك الانعكاس الفوريّ لرؤية استواء أو ميلان الأشياء التي تحيط بنا. في الواقع، كانت معدّات العمل أفضل

الألعاب التي ملكناها في طفولتنا. لم تكن فكرة صنع القوارب هدفاً خياليّاً. لطالما حاولنا ذلك على اعتبار أنّ لدينا الخشب والأدوات اللازمة لصنعها. والبحر، كان هناك أيضاً. نقص في بعض المسامير الحديديّة أدّى إلى فشلنا في اليوم الأول. المشكلة تمويليّة بالدرجة الأولى، وليست ملاحيّة. إذا ما أردنا البحث عن كنز في كاسترو، نأخذ معاولنا وفؤوسنا ومجارفنا ونخرج للبحث عنه. ولم يكن ذلك مجرّد خدعة، فقد عثروا هناك على أطواق وتيجان رائعة بزخرفاتها وتطاريزها الذهبيّة الجميلة. وحقيقة الأمر، كما شرحها لنا بيبي دي أمارو، هي أنّه حين العودة من الحفر، منهزمين، لم يكن في مقدور أحدنا أن يجد الكنوز، بل كانت الكنوز هي التي تخرج إلى لقائنا. كنّا نحن أطفال كاسترو، حقيقةً، نحبّ معدّات العمل بقدر محبّتنا للكرة. لم نحبّ العمل، لكن عشقنا أن نلعب أنّنا نعمل.

لم يكن سهلاً الوصول إلى منزلنا. كان مصدر المياه عبارة عن نبع عامّ موجود في أوقاف الأبرشيّة، حيث يوجد مكان للغسل أيضاً. إنّما لم يكن مصدر المياه آمناً نظراً لطبيعة القسّ الإقطاعيّة. عانينا من مشكلة حقيقيّة، وكان أبي منغمساً في البحث عن كنز لا غنى عنه: المياه. يقع منزلنا على جرف الجبل. حفر أبي بئراً على أمل أن يظهر النبع عمّا قريب. حفر وحفر. عثر في أثناء حفره على حجر صوان كبير، وحارب بكلّ شجاعته كي يخترقه بالمطرقة والأزاميل الحديديّة والديناميت. غير معقول. تفجّرت المياه من كلّ صوب، عدا من ذلك البئر. وبينما راح يتفقّد زوايا البيت، بدأت المياه في التدفّق من كلّ جانب بسخرية ملتعثمة. من الأرضيّة أحياناً، ومن زوايا المنزل، ومن تحت الأسرّة. تموضع المنزل تحت نوع من أنواع الممرّات الجويّة شمال شرقي شبه الجزيرة، حيث تتكاثف أقوى تشكيلات الغيوم الأطلسيّة.

لا أحسب ما أقوله وجهة نظر شخصيّة، بل هو ما أكّده رجل الطقس بعصاه التي تقود الجوّ.

المرّة الأولى التي قابلت فيها رجل الطقس كانت عندما تمكّنا من مشاهدة التلفاز في حانة ليونور. ذلك الرجل المدعو ماريانو ميدينا بدا شخصاً جيّداً لا شكّ في الأمر. حتّى إنّ زبائن الحانة الذين عادة ما يتجاهلون الأخبار، أنصتوا فجأة إلى ميدينا حين ظهوره جاداً بعدستي نظّارته السميكتين وعصاه التي كان يشير بها إلى خطوط الضغط الجويّ. في ذلك الوقت لم تكن خرائط النشرات الجويّة تظهر بالألوان، إنّما بالأسود والأبيض. كانت هناك خطورة طبيعيّة في العواصف. بعد الحديث عن الضغوطات المرتفعة والمنخفضة، أشار حامل العصا بالطريقة نفسها، وبإصرار عاصف، إلى منطقة كاسترو دي إلبينيا، ولا سيّما إلى سقف منزلنا معلناً بذلك عن الخطوة التالية التي سيتّخذها مرتفع بِرمودا. هذه الظاهرة الجويّة، التي تحمل اسم ملاكم، كانت تأتي دائماً في موعدها فتهيج البحر الذي يفيض غامراً كلّ شيء عدا البئر التي حفرها أبي.

جاء الربيع. وأزال رجل الطقس مؤشّره عن بيتنا لبضعة أيّام. حصل أبي على عمل أفضل. كلّفه أحد الجيران، عائلة الباليرو تحديداً، ببناء منزل صغير آخر لتلك العائلة التي هاجرت إلى شمال إنجلترا. وبالعودة إلى الحديث عن عمل أبي، في صباح أحد الأيّام رسم إلى جانب منزل الباليرو، قيد البناء، دائرة، وراح يحفر مستخدماً المجرفة. كانت التربة سوداء سهلة الحفر. سرعان ما ظهرت طبقة أكثر تعقيداً، عبارة عن رمل طينيّ ممزوج بالحجارة يلتصق برأس المجرفة ويثقل من حركتها. كان يوماً مشمساً تمكّن فيه أبي من الحفر عميقاً بحماس وسعادة وقد أدرك أنّ الخلاء لن يهزمه هذه

المرة. لقد اشتمّ رائحة الماء وتمكّن من سماع خريره. عند الغسق، مع ضوء النهار الأخير، بدأ النبع يلعق الأحذية. ومع حلول الليل تدفّق الماء من البئر بعد رشرشات احتفاليّة ترابيّة ومائيّة. كان عمق البئر في اليوم الأول أكثر من مترين، أي أعلى من مستوى رأس أبي بقليل.

آلمه كثيراً جفاف بئره. سخرية النبع منه. مرّة، أحضر منجّماً كان يُطلق عليه اسم عرّاف الماء. بدا الرجل المسنّ متخصّصاً ومحترفاً. راح يجول الحقل حاملاً قضيباً رفيعاً بدا كأنه امتدادٌ ليدي كائن غريب له أحد عشر إصبعاً، يمكنه أن يطويه ويمدّه متى يشاء. جاءت لحظة توقّف فيها الرجل. حنى رأسه كمن يسمع تضرّع الماء الأول. تحرّك القضيب، اهتزّ. حصل كلّ شيء في ثوان، مثل الوميض. كرّر العمليّة باستخدام رقّاص، وهو عبارة عن سلسلة عُلّقت عليها قطعة أسطوانيّة الشكل مثلثة الرأس تشبه الطلقة. دون جدوى. لم تتحرّك في أيّ اتجاه من الحقل. ربّما قد يتحرّك داخل المنزل ذلك الرقّاص اللعين. لم يقبض الرجل المسنّ أجره. كان حقّاً عرّاف مياه. رأيت في عينيه حزناً هيدرولوجياً. بقي النبع أخرس، مختبئاً في مكان ما. في تلك الليلة، بدت على وجه أبي أمارات التوتّر، لمّا ظهر عبر شاشة التلفاز، في حانة ليونور، رجل الطقس بعصاه المعصومة. مرّة أخرى وجّه العصا نحو بيتنا.

١٠. الكنز الكلتيّ ورائد الفضاء

عاش الناس حيواتهم يوماً بيوم في الجنّة القلقة. وهذا ما يحصل عادةً في قصص التاريخ. في قصص المدرسة تتبَّعت قصَّة الطائر الجارح فوق خمّ الدجاج في كاسترو. فجأةً، يظهر، غير قادم من مكان آخر من الأرض، بل من إحدى الغابات المتجذّرة في الغيوم. بتلك الطريقة كان يبدأ طيرانه الحلزونيّ عبر منعطفات عاليّة إلى أن يصل، بدقّة، إلى فريسته وينتشلها بمخالبه. فريسته كانت دائماً الحاضر.

في قصص الأصوات المرتعشة يحدث العكس. كان مسار الحكاية يشبه تدويم الخفافيش المخدّرة. وكان هناك خفّاش يحلّق في الجانب المظلم من الذاكرة. أحضره أحدهم من صومعة ما حيث كان يرقد حلمُ الشتاء الطويل معلّقاً في السقف. أيقظناه. وأمسكناه من طرفي جناحيه وأدخلنا في فمه سيجارة فتنشّق الدخان مثل مدمن محبط. حاولنا بعد ذلك أن نطيّره فدفعناه نحو أشعّة إحدى المنارات. حرّك الخفّاش جناحيه بثقل، وبذل قصارى جهده كي يتخلّص من ذلك الكابوس. إلّا أنّه سقط مرّة أخرى. في أثناء عملنا الشرير الأول وجدنا شيئاً كوميديّاً في وجه الخفّاش مع أمارات بشريّة بحتة. إلى أن شعرنا بالذعر من نظرته العمياء. تساعد الحيوانات على الرؤية. إن كان هناك طيران يسحرني وأتمثّل به فهو طيران الخفافيش. كانت عطيّة آثمة. أعني تلك الطريقة من الفوضى المطلقة والدوران الفجائيّ والخداع البصريّ، وأن تكون مرئياً وغير مرئيّ في آنٍ معاً. إنّها سخرية مطلقة من الحواس، من الواقع. من الحاضر المهلوس.

وأمام التسلسل الزمنيّ للدروس المدرسيّة وتطوّر آلتها الثقيلة الحاسم، تعاقبت في قصص الأصوات المرتعشة أحداث الزمن والفصول بمحض المصادفة. هذا ما حدث في الظاهر. تماماً مثل طيران الخفّاش. وعلى غرار الصورة التكعيبيّة للكرنفال. بالقرب من أنقاض سكّان البلدة الأصليّة القديمة، وفي أفضل أراضي وادي إلبينيا، التي انتُزعت من مالكيها غصباً، بنوا مصنع لا كروس فيرتيبيريا للمنتجات الكيميائيّة. سرعان ما مرضت الأشجار المثمرة واختفت العصافير التي كانت تحنو إليها. الحملة الرومانيّة البحريّة للسيطرة على متمرّدي أرتابروا، وهجوم الفايكينغ الأول على شبه جزيرة المنارة، ومعركة إلبينيا عام ١٨٠٨، وبربريّة عام ١٩٣٦، كلّ ذلك عبارة عن تعاقبات أحداث حيكت عبر الزمن. حتّى تلك الصخرة الضخمة حيث نصب السير جون موور مركز قيادته وأصيب بجروح خطرة، كانت تحمل اسماً شعبيّاً هو جالوتة. وحقيقة الأمر أنّ آنا فيلغيراس قد بحثت عن أصل اسم كلّ زاوية من زوايا قرية كاسترو. ولّما سألت عن سبب أصل اسم جالوتة، أجابها رجلٌ مسنٌّ بدقّة إنجيليّة: «له علاقة بقصّة النبي داود وهزيمته لجالوت». أمّا الآن، في هذا الحاضر المهلوس، فيمكن رؤية المصنع المُلوِّث. نشرت الريح معها غبار الطلع، لكنّها نشرت أيضاً الطاعون المستقبليّ. كنّا قد آمنا بالتفاؤل الذي يمكن أن يجلبه التقدّم. في منتصف النهار حينما نخرج من المدرسة كنّا نرى الطائرة قادمة من مدريد وهي تهبط على مقربة منّا في مطار ألبيدرو. كنّا نسلّم بحماس ونركض صوبها ملوّحين لركّابها آملين أن يسمعونا من الأعالي ونحن نصرخ: سكاكر، سكاكر! لكن، من الأسفل، اعتاد المسنّون أن يجيبونا «خنافس، سيرمون لكم بخنافس!» في الصيف اعتدنا النزول إلى شاطئ سانتا

كريستينا، مجموعة من الفتيان والفتيات، ونحن نردّد الأغاني والأناشيد. كان العجوز بيغو يتذمّر من ضجيجنا وهو يرعى الغنم فيصرخ قائلاً «سيحلّ الشتاء قريباً! سنرى ما تفعلون».

كان ثمّة كنوز حتّى ذلك الوقت. لم يكن البحث عن كنوز في كاسترو أمراً جنونياً أو سخيفاً. أخبرتنا امرأة مسنّة عن جرّة من الذهب موجودة في مكان ما بين أوس كوروتوس ولاغار. ولم يكن ذلك مجرّد حكاية، بل معلومات موثوقة. المهمّ هو العثور عليها. وفقاً للروايات توجد الكنوز في جبل كوروتوس أو كاستروس حيث تتموضع أنقاض المدينة التي عصت على الرومان. أخبرنا المعلّم ذات يوم، بصوته الحادّ، أنّ كلّ ما لدينا ندين به إلى الإمبراطوريّة الرومانيّة. مَن هم حقاً أولئك البنّائون؟ كان لديهم شغف بكلّ ما هو دائريّ. فقد بنوا المنازل والحصون بشكل دائريّ. هل أتقنوا الكلام؟ هل عرفوا كيف يتحدّثون مثلاً؟ كانت أنقاض كاملة تقريباً. غطّت النباتات بكثافة الجدران الدائريّة والأزقّة التي بدت كمتاهات، إضافة إلى الجبّ المتخفّي لتلك المدينة القديمة. بين عامي ١٩٤٧ و١٩٥٢ أقيمت حفريّات آثاريّة تمّ في أثنائها العثور على كنز كاسترو دي إلبينيا المحفوظَ حالياً في المتحف الأثريّ لقلعة سان أنتون. ممّا لا شكّ فيه أنّ الكنز يعود إلى كاهنة ما، فقد عثر، من بين العديد من الأشياء، على تاج له شكل طائر مصنوع بأعجوبة من الذهب الكلتيّ. كنت قد زرت الكنز مرّات عدّة ولا سيّما من أجل رؤية البطّة الذهبيّة، والطائر المهاجر. حقّاً إنّه لأمر مثير للاهتمام والفضول أن تكون أجمل الموروثات الفنيّة من الزمن الغاليسيّ عبارة عن قطع أثريّة أنثويّة تماماً مثل تاج كاسترو، ومشط كالداس دي ريس. يحكى أنّه في أثناء عمليّات الحفر عُثر أيضاً على بعض الأسلحة. حقيقة لا أعرف.

وهكذا كنّا نبحث عن كنوز. بكلّ هدوء، ولا سيّما في كاسترو. إنّما أيضاً في كاسا بيلا المحاذية لغابات آثاباتيرا العبوس، حيث تعاركت طلائع المشير جان دو ديو سول الفرنسيّة وفرق مشاة القائد البريطانيّ مور. وكنّا نأخذ معنا في أثناء البحث أدوات الحراثة ونحفر كالمجانين على غرار عالم الآثار الألمانيّ شليمان المجنون بحثاً عن طروادة. وفعلاً عثرنا على قطع حديديّة ومعدّات صدئة. حديد كان قد عُثر على طيفه. غير أنّ الشيء الأكثر استثنائيّة، الذي عثرنا عليه، هو هيكل درّاجة هوائيّة وصندوق بيرة إستريا دي غاليسيا، إضافة إلى علبة واقيات ذكريّة من عصر ما قبل التاريخ. إلّا أنّ الكنز كان هناك حقّاً. لقد شعرنا بوجود البطّة الذهبيّة. ممّا لا شكّ في ذلك. ونعم، ما شعرنا به أيضاً هو ضجيج ذبذبات برج كهرباء التوتر العالي المزعج والمتواصل. حينها كنّا لا نزال أطفالاً نلعب بالأدوات والمعدّات جاهلين تماماً التاريخ. لم نكن نعرف أنّ هناك شيئاً من الهلاك الرمزيّ، من الإذلال، ولا سيّما في العمل الوحشيّ المتمثل في إدخال البرج في تاج كاسترو. ولتحذيرنا من الخطر كانت هناك إشارة في هيئة طيف رجل صغير أسقطته الصاعقة وقسمت جسمه إلى نصفين. لطالما طنطنت في رؤوسنا ذبذبات البرج الكهربائيّ. وحينما تقترب العاصفة، يصير الصوت شبيهاً باصطكاك الأسنان. منذ تأسيس علم التاريخ الرومانسيّ يوجد خلاف مهمّ في غاليسيا، ونقاش دائم بين الباحثين عن إمكان وجود ثقافة كلتيّة من عدمها. وقد تردّد ذلك النقاش في الصفحات المتخصّصة معزّزاً بذلك الشرر في الشبكات. ذات مرّة أوشكت أن أتدخّل في ذلك النقاش لامتلاكي معلومات سريّة بإمكانها حلّ اللغز، احتفظت بها منذ الطفولة. إنّما في نهاية الأمر لم أبعث الرسالة التي تقول: «أعرف كيف انتهى أمر الكلتيين في غاليسيا. لقد ماتوا بصاعقة كهربائيّة».

كان كاسا بيلا أو كاسا الفرنسيّ مكاناً تاريخياً مهمّاً، هو كذلك حيث وُجدت أنقاض مبنى قديم لدير تأثر بفداحة بمعركة نابليون الشرسة في السادس عشر من شهر يناير عام ١٨٠٩. في ذلك اليوم تقريباً، وفي المكان نفسه، لكن في عصرنا الحاليّ، وقعت الحادثة التاريخيّة لتحليق الخفّاش في أثناء الشجار بين أهالي قرية شيبري بالافيا وأهالي كاسترو. كان أهالي قرية شيبري بالافيا من بدؤوا الهجوم، إذ كانوا أكثر تحضّراً منّا. أمّا أهالي كاسترو فاتّخذنا مواقعنا الدفاعيّة، بين الأنقاض كما العادة دائماً. وُجِد في المعركة أشخاص ارتدوا ملابس هنود حمر موحّدة، ورعاة بقر ورومان ومكسيكيين بقبّعات المارياتشي. وسواء حضر زيّ الكلتيين أم لم يحضر، كان واضحاً أنّنا ننتمي إلى غرب متوحّش. كذلك بدا أهالي شيبري. لقد كان لغطاً تاريخياً مليئاً بلحظات شغف.

كان بيننا شخص من الأبطال المحلّيين يدعى رامون تاسيندي، الملقّب بمونتشو. أصبح رامون فيما بعد بطل إسبانيا في سباق الجري لمسافة خمسة آلاف متر. غير أنّه نافس معنا بطريقة ملحميّة في العدو الريفيّ، وقبلها في سباقات الدرّاجات الهوائيّة. كان يركض مثل الإثيوبيين. كذلك كانت أخته الصغرى ماروكسا تاسيندي. كانت رياضيّة رائعة وعدّاءة المسافات الطويلة. رأيناها للمرّة الأولى في مباراة فريق كرة القدم النسائيّ في المهرجان. انقلب العالم ذلك اليوم رأساً على عقب. لم أعد أرى أحداً يركض ويراوغ بالكرة مثلها في الجناح الأيسر. علماً أنّه كانت هناك مدرسة رائعة لكرة القدم الذكوريّة.

لم يكن مونتشو تاسيندي يشرب النبيذ ولا البيرة. اعتاد شرب المشروبات المنعشة مثل ميريندا أو شيء من هذا القبيل. غير أنّه كان يثير

دهشتنا الحقيقيّة عندما كنّا نراه يأكل تلالاً حقيقيّة من الفول السودانيّ. كان يصفّها في شكل أهرامات فوق براميل حانة ليونور. «من أجل الألياف!» اعتاد أن يقول لنا. ومعه حقّ، كي يكون المرء كاتباً لا بدّ له من قائمة الطعام تلك. إذ إنّ الأدب يتطلّب كثيراً من الألياف كي يتمكّن المرء من الجري بين حقوله. في كاسترو كان لا بدّ من المشي بخفّة من أجل الولادة، ومن أجل الموت كذلك. حتّى الموتى كانوا يمشون، ذلك أنّ المقبرة بعيدة إلى جانب كنيسة سان بيثينثو. كان الطريق إلى إلبينيا ترابياً، أو على الأقلّ إلى أن وصل الإنسان إلى القمر. حينها فقط عبّدوا الطريق بالإسفلت عشيّة الليلة التي حطّ فيها أبولو على القمر في الحادي عشر من صيف عام ١٩٦٩. حينها تحدّثوا مطولاً عن روّاد الفضاء، وعن العامل الذي حمل آلة رشّ القطران وراح يتنقل في كاسترو بخطواته العائمة على الحصى لابساً بدلة بيضاء بدت كبدلات مهمّات وكالة ناسا الفضائيّة. إلى أن انتزع الرجل خوذته الواقية، إذ كان الطقس حارّاً جدّاً، ناهيك عن حرارة الإسفلت. سارع أحد وقدّم إليه الماء في جرّة. تأخّر الرجل في الكلام، تنفّس بصعوبة وكادت الكلمات تذوب بين شفتيه. في نهاية الأمر شرح لنا رجلنا الفضائيّ أنّ البلديّة أرسلته كي يفرش الطريق بالإسفلت، وأنّ كمّ العمل الذي ينجزه لا يتناسب مع الراتب الشحيح الذي يتقاضاه.

١١. ثقل العالم كلّه على الرأس

كانت تحمل على رأسها صرَّة بحجمها كلّه. غير أنّ مفعول الصرَّة أثقل من الوزن الذي تحمله. لم تكن مجرَّد صرَّة عاديّة، بل كانت صرَّة ملابس للغسل في شكل دائرة مثالثة. حملتها على رأسها. أحياناً كانت نسوة عديدات يذهبنَ معاً في قافلة مع نساء أخريات وضعنَ في سلالهنّ، بشكل هرم، عدداً لا بأس به من رؤوس الخسّ.

كانت تضاريس الطرق تشبه إلى حدٍّ كبير تضاريس النساء اللواتي يحملنَ الأغراض اللازمة على رؤوسهنّ. في كاسترو دي إلبينيا تلاقت طرق قديمة مثل طريق لوس مونتانيسيس الذي كان سابقاً طريقاً حقيقيّاً مع دروبٍ ضيّقة وأخرى عميقة يحمل كلّ منها اسماً يوحي بطريقة مشي معيّنة. مثل طريق إستاديا أو سانتا كومبانيا وطريق التراسنو الذي يعني باللغة الغاليسيّة القزم الساحر. شكّلت هذه الطرق العميقة نسيجاً حاكه مكوك العابرين وهم يمشون بين المعلوم والمجهول بحيث كان ممكناً أن تصلك هذه الطرق بأيّ جزء من غاليسيا. بالإضافة إلى الطرق الرئيسة، كان هناك في المنطقة على الأرض طرس من رسومات وكتابات على الأرض فيها أحياناً انجرافات غامضة على الرغم من أنّها تؤدّي إلى مكان انتظار. كانت أمّي تقول لي: «اتبعِ الطريق وستجد الدّجاجة». وفعلاً. الدجاجة تحضن بيضها. طريق الغابة. العشّ أو طريق مولينو دي بيرفيكتو. كلّ ذلك كان موجوداً. يُحكى عن أهالي غاليسيا أنّ لديهم شغفاً وتعلّقاً بالأملاك. أعتقد أنّهم يحبُّون الطرق أكثر. يحبُّون فتح آفاق جديدة.

طريقي المفضَّل هو الطريق الأعمى. طريق كافاكسي. وهو الطريق القديم القادم من وادي ميسويرو وفيانس ليتابع ويدور حول أنقاض قرية كاسترو القديمة. كلّ طريق له خياله الخاصّ. ويموت عندما يتوقَّف عن رواية الحكايات. لطالما بقي الطريق الذي أتحدَّث عنه مختفياً بين النباتات والأشجار أغلب الوقت من العام. كان قد وقع في شيء من الهجران. إضافة إلى ذلك كنّا نسكن في مكان ناءٍ من الجانب الآخر من القرية. غير أنَّ النظر كان صوبه دائماً. صوب تلك النقطة التي يعاود الطريق لينفتح عندها، ولا سيّما بعد انعراجه من الجبل. في أحد أيّام الشتاء، وبعد توقّف الأمطار الغزيرة، ظهر عند المنعطف موكب دفن ما. لم تكن هذه الصورة السينمائيّة للطريق أمراً غريباً، فقريتا ميسويرو وفيانس تنتميان إلى أبرشيّة سان بيثينثو دي إلبينيا، وكانوا يأتون مشياً على الأقدام قاطعين كيلومترات عدّة، حاملين على أكتافهم التوابيت ليدفنوا موتاهم. في ذلك اليوم انفتح الطريق الأعمى ليعرض علينا السير الحزين بأقصى درجاته. كان الموكب يتحرَّك بإيقاع حزين ومزدحم بعثته المظلّات السود المفتوحة التي شكّلت دروعاً قطرانيّة تصدَّت لوابل الرصاص السماويّ. كان الموكب الجنائزيّ يتقدَّم حاملاً نعشاً أبيضَ صغيراً. حينما يموت أحدٌ ما كان بمنزلة ملاك ميت. في ذلك اليوم، لا أعرف لماذا، تولَّد لدينا انطباع أنّ الميت هذه المرّة هو الله. راح يتضاءل على غرار الصدى. صورة خذلان قاسية. غير أنّ الموكب تابع بقوّة مولِّد غير مرئيّ. لمّا كان يموت أحدٌ ما، كان بمنزلة ملاك ميت. تمشي الذاكرة هي كذلك. في ذلك اليوم، لا أعرف لماذا، بقي لديّ انطباع أنَّ الله هو الذي مات. راح يتضاءل ويضمر مثل الصدى. انكمش داخل تابوت أبيض مزرق تحت العاصفة.

كنت أكنّ احتراماً كبيراً لطريق كافاكسي، ولا سيّما لانفتاحاته وانغلاقاته. في يوم آخر انفتح وكانت رؤية بعض الشبّان القادمين عن بُعد مثيرة للقلق. قدموا ممّا وراء قرية أوررو وقد حملوا ذئباً اصطادوه وعلّقوه على العصيّ التي حملوها مثل السنانير. لقد بدا كطيف ذئب دون ذئب، كان فرواً قد تخلّى الموت عنه أيضاً. لعلّه كان الذئب الأخير في المنطقة، في حين لعبوا هم دور صيّادي الذئب الأخير.

ذات يوم، ظهر بعض البهلوانيين على طريق كافاكسي. جاؤوا حينها إلى المدينة وجذبوا حشوداً كثيرة إلى سيرك «بريثي»، ولا سيّما في عرض بينيتو ديل أورو على الأرجوحة الهوائيّة. جالت تلك الفرقة البهلوانيّة المتواضعة، التي لا أذكر اسمها، بين القرى والضواحي. أطلقنا عليهم اسم البهلوانيين. وهو اسمٌ جيّد. من العروض التي قدّمتها الفرقة كان «**الحمار الحكيم**»، و«**الرجل الذي لا يُهزم**»، و«**بهلوانيّات الفتاة الطائرة**». عرضت الفرقة في كاسترو لليلتين. المرّة الأولى كانت في زمن فيليب، المزارع الذي دفع لكلّ منّا ذات مرّة قطعة نقديّة لنساعده في شبكة القمح. أعطانا القطعة النقديّة بشيء من الكرامة، وسعدنا بها كأنّها وسام نحمله معنا. العطاء أمر مهمّ للغاية، لكن الأهمّ هو كيف تعطي. والحقيقة أنّ الناس استمتعوا كثيراً بعرض الحمار الذكيّ، ولاعب الأثقال، فضلاً عن عروض بهلوانيّة أخرى كثيرة. إنّما لا شيء يُقارَن بعرض الفتاة البهلوانيّة التي ما إن بدأت قفزتها المميتة الأولى، فقد انضمّت إلى الجمعيّة الدماغيّة الغامضة للأشخاص الذين لا ينسون. وعلى الرغم من كونها فتاة صغيرة، إلّا أنّها راحت تكبر أمام أعيننا في تلك الليلة بشعرها الطويل المربوط بتسريحة ذيل الحصان. كانت هذه التسريحة لغرض معيّن. ففي العرض الأخير، صعدت الفتاة الطائرة

على كتفَي الرجل الحديديّ الذي لا يُهزم، والذي بدوره حمل منصّة معدنيّة عالية ربطت الفتاة ذيل شعرها في قمّتها وراحت تلفّ وتدور في العتمة دون أن تسند نفسها على شيء آخر عدا شعرها المعلّق. كذلك تقبع في الجمعيّة الدماغيّة الغامضة للأشخاص الذين لا ينسون صورة أخرى للفتاة الطائرة. حدث ذلك في اليوم التالي، وبالقرب من نهر غاسلات الملابس المفضّل، نهر لارانكسيروا، كانت الفتاة الطائرة مرتدية ثوب السباحة تغسل شعرها بكلّ هدوء. تمدَّدت على العشب وراحت تتشمّس. شعرها اللامع غطّى نصف المرج. يا لسعادة العشب!

في طريق كافاكسي أيضاً، وفي يوم أحد، ظهرت أحصنة امتطاها فرسان بملابس المارياتشي. كلّا، ليس الأمر أنّهم خرجوا من التلفاز أو من السينما وراحوا يتجوّلون في الطرق. كانت الفرق الموسيقيّة المكسيكيّة تحظى حينها بشهرة كبيرة. كانوا ينزلون من الجبل الغاليسي بأسلوب مكسيكيّ بحت. أمّا الآن فلم يعودوا يأتون بتلك الطريقة. من يحضر لا يأتي على حصانه، إنّما على درّاجة هوائيّة يحملها على الكتف. لطالما أعجبت بالأشخاص الذين يحملون درّاجتهم الهوائيّة وليس العكس. في كاسترو وُجد العديد من أصحاب الدرّاجات الهوائيّة الذين لم أرَهم قطّ يركبونها أو يجرّونها بجهدٍ. ببساطة يضعون أيديهم بلباقة على المقود، وهكذا يسند كلّ منهما الآخر. إنّها درجة عالية من التحضُّر.

هل ستكشف الأعشاب الطريق الآن؟ مَن سيسلكه؟ إنّه سائق درّاجة هوائيّة آخر. نعم، هذا يقود درّاجته. إنّه ماكسي يدوس الدوّاسة وقد حمل على ظهره لفّة وفرشاة ذات مقبض بدت كصارية مركب. كان قد علّق على مقود الدرّاجة دلواً وأحضر معه ملصقات الأفلام السينمائيّة. أمّا صالات

السينما التي وُجدت بالقرب منّا فكانت سينما بورتانئغو، عند مصبّ نهر بورغو، وسينما مونيلوس عند مدخل المدينة. أراد أن يلصقها على لوحة الإعلانات الموجودة على جدار مزرعة كارداما - حيث توجد نخلة الغاليسيّ المهاجر إلى أمريكا- التي عشّشت فيها عصافير الدوري في وادي إلبينيا كلّه. كان ثمّة دائماً محطّتان؛ واحدة لرؤية ملصقات السينما، هو باب في الجدار يفتح ويأخذني بعيداً إلى حيث أتمكّن من العودة لرؤية النخلة. ومع ظهور طيور الزرزور كان بالإمكان رؤية عصافير أخرى كثيرة معاً. غرَّدت النخلة كثيراً. لعلّها أُصيبت بالجنون من كثرة العصافير على سعفها.

ومن ذلك القادم من الطريق على درّاجته الناريّة؟ يبدو بخوذته ووضعيّته الديناميكيّة وراء مقود الدرّاجة في غاية التركيز. إنّه الإسكافيّ رافاييل دي ميغيل. حين ترجّله بدا قصيراً، أحدبَ وجادّاً. ربّما ينبغي ألّا أصفه هكذا، غير أنّ الأمر سيّان بالنسبة إليه. كان يبيع الحظّ وراح يوزّعه. كان لا بدَّ من رؤيته. ثمَّة حاسدون له أيضاً. كان منظّماً إلى أبعد حدّ. اعتدت الذهاب أيّام السبت مساءً إلى دكّانه في إلبينيا لإصلاح أحذية الأسرة. كنت أعشق الذهاب، ولا سيّما أيّام السبت. كان دكّانه صغيراً. ما إن تدخل، تراه أمامك خلف طاولة العمل بمريوله الجلديّ ورأسه الكبير، بل الضخم كأيّ رأس قزم ضاحك. طبعاً يمكنك الجلوس على الكرسيّ الذي وضعه لاستقبال الزبائن. كان قد ملأ الجدران بصور فتيات عاريات أو شبه عاريات، وروزنامات ومناشير وصفحات من مجلّات أجنبيّة. كولاجات عالميّة ومناظر طبيعيّة شهوانيّة لا نهائيّة.

- يمكنك أن تعود لاحقاً من أجل الأحذية.

- لا، أفضّل الانتظار.

كانت عيناي تتَّجهان دائماً نحو عارضة الأزياء نفسها، والروزنامة عينها. كان يتتبّع اتجاه نظري ويقول:

- لن تنتظر عاماً من أجلها، إيه؟!

سأصل الآن إلى منعطف في الطريق المؤدّي من إلبينيا إلى كاسترو. بعد طريق مستقيم طويل ثمّة انعطاف فجائيّ بمعدّل تسعين درجة. في أيّام الريح الهوجاء، وحين العودة من المدرسة، كاد المشي يكون مستحيلاً عند المنعطف. كنّا نلعب مع الريح فتغضب منّا. ملتحمين كلّنا مع بعضنا كنّا نقف في وجهها فتدفعنا خلفاً بطرف إصبعها، تماماً كما يُقال عن البنَّائين الذين يحملون الحجارة والإسمنت بأطراف أصابعهم. كنّا نوشك أن نطير مثل الطائرات الورقيّة. إلى أين ذهب أطفال كاسترو؟ ذهبوا مع الريح! كان ذلك المنعطف أفضل نقطة نظر على طريق كافاكسي الأعمى. ثمّة ريح قليلة على ذلك الطريق، ريح كافية لهزّ أعشابه، وكي ينفتح على ما لا يمكن نسيانه. من النفق النباتيّ خرجت شقراء فيلارودريس حاملة شارة كابتن الفريق.

كنّا قد شاهدنا بعض المباريات في ثلاثاء الكرنفال بين عَزَبات ومتزوّجات. اللاعبات كلّهنّ كنّ من القرية نفسها. لعبنَ في ملعب مجاور لحانة بارادا، تماماً حيث تقف حافلة «الصرصور» وحافلات أخرى. كان الملعب صخريّاً إلى أبعد حدّ، في غاية التواضع. ولا حتّى شجرة لتهديد حكم المبارة بشنقه عليها. قرّر نادي الريلامباغو دي إلبينيا إنشاء ملعب جديد مع غرف تبديل الملابس وما إلى ذلك. ولمّا جاء يوم الثلاثاء، احتُفل بالملعب دوليّاً. ها هي ذي لورا الشقراء تدخل مع فريقها من القرية الأخرى، من أرتيخو. كنّ قد جئنَ من الجبل وقطعنَ كيلومترات عدّة ركضاً وهنّ يرتدينَ قمصاناً وسراويل قصيرة. في المقدّمة تموضعت بيريي

مثل عارضات المجلّات اللواتي شكّلنَ ثورة نظريّة. وهناك كانت شقراء فيلارودريس. كانت من المهاجرين إلى فرنسا. حين عودتها فتحت حانة أسمتها «أوديت». كانت تسرّح شعرها بأسلوب «الغرسون» الصبيانيّ وتمشي بطريقة تذكّرنا بالممثلة بريجيت باردو. إنّما كلّ هذا الذي أقوله ليس من أجل المقارنة، فشقراء فيلارودريس كانت هناك، وهي حقيقيّة إلى درجة أنّها قفزت فوق ورق السرخس كي تنتقل من اللامرئيّ إلى المرئيّ على طريق كافاكسي. أتقنت لعب الكرة وأحرزت هدفاً دبل كيك. غير أنّ الأصعب من ذلك كلّه كان وقوفها بلياقة أمام تلك الحشود المتحمّسة القادمة من المدينة والقرية، تلك التي لم تتوقّف عن إطلاق الصيحات في كلّ مرّة لمست فيها النساء المحلّيات أو الزائرات كرة العالم.

في ذلك اليوم من كرنفال يوم الثلاثاء، جرت العادة أن يقوم أحدهم بسدّ جداول الماء كي تجفَّ أماكن الغسل، وبذلك لا يتعيّن على النساء غاسلات الثياب الذهاب إلى العمل، وبالتالي يشاركنَ في المباراة الكبيرة سواء كلاعبات أم مشجّعات. وفعلاً نفّذت وصيّة الكرنفال المقدّس: قلب العالم رأساً على عقب. أمّا ما كان يحدث في بقيّة العام فهو عكس ذلك تماماً. إذ كانت غاسلات الملابس في قرية كاسترو دي إلبينيا يحملنَ الكرة على رؤوسهنّ. كنّ يغسلنَ ملابس أُسر الطبقة الغنيّة في لاكورونيا، أو ملابس العيادات، أو النُّزل والمطاعم. وكنّ يذهبنَ في غالب الأحيان سيراً على أقدامهنّ أو على حميرٍ. لطالما ذهبنَ وعدنَ حاملات معهنّ أشياء وضعنَها على رؤوسهنّ كالتيجان. في تلك القافلة، أو وحدهنّ، اعتادت أيضاً فلّاحات القرية الذهاب لبيع الفاكهة في ساحة المدينة. من خيال الحاجة طوّرنَ طريقة جماليّة لحمل البقول والخضراوات. كان علم جبر أرضيّ:

طريقة صفّ الفاكهة للحفاظ عليها طازجة. في الطريق كنّ يلتقينَ ببائعة السمك. تقريباً، دائماً حين تصل عند منزلنا تكون قد أنفقت كلّ السمك لديها، وبقي لديها سمك القدقود فقط. حتّى إنّني بتّ أكره هذا النوع من السمك، فالأطفال لا يحبّون الحسك. إنّما في أحد الأيّام، وبينما كانت تصعد صخرة كوكو، بدت لي الشخص الأكثر استثنائيّة في العالم. كانت تحمل معها سلّة من قنافذ البحر.

كانت النساء يتردّدنَ ذهاباً وإياباً حاملات على رؤوسهنّ الأوزان، وبذلك يبقينَ أيديهنّ خالية ويستخدمنها في حمل الأكياس أو في حمل أبنائهنّ. أثقال أخرى. كلّ شيء حملنَه كان مهمّاً وأساسيّاً؛ الطعام والماء والحليب والحطب وملابس الغسل. تآكلت أيادي بعض النسوة من جرّاء الغسل والمياه المليئة بالصوديم. أمّا عمودهنّ الفقريّ فقد اتّخذ شكل هرم مقلوب بفعل الأوزان الثقيلة التي حملنَها. كان عملاً برمائيّاً على تواصل دائم بالماء والحجارة الرطبة والبرد الذي يخترق أجسادهنّ. وفي معرض الحديث عن رؤى الطرق، رأيت كيف كانت غاسلات قرية كاسترو يحملنَ كرة العالم على رؤوسهنّ. في كرنفال يوم الثلاثاء ذاك حدث أنّ أولاء النساء العاملات وغيرهنّ ركلنَ الكرة الأرضيّة. أمّا الضحكات التي أطلقنها فقد تردّدت في الحقول الفارغة وجرت بين الأعشاب احتفاءً بانتصار الإنسانيّة.

١٢. يوم شربنا قوس قزح

ما كاد يعرف سكّان المدينة شيئاً أو بعض شيءٍ عن كاسترو. أمّا أهالي كاسترو، فإضافة إلى معرفة المدينة، كان لهم عالمهم الخاصّ. معارف إضافيّة أخرى، جويّة، تمثيلاً لا حصراً. منذ نعومة أظفارهم تلقّى سكّان كاسترو تعليماً دقيقاً للغاية عن الأرصاد الجويّة. حالياً توجد جامعة هناك، لكن سابقاً كانت ثمّة مدرسة شعبيّة خاصّة بالريح والعواصف والسحب الماطرة. واحد من أوائل الأشياء التي علّمني إيّاها زملائي في كاسترو كانت مسك قوس قزح بيدي في برك الماء حيث أكّد بكثافةٍ زيتيّة إرادته الفنيّة. شعرنا حينها بطيف ألوان الكون بين أيدينا. كان بإمكاننا حمله إلى أفواهنا، للعقه وتذوّقه. حتّى إنّنا شربنا قوس قزح.

لم يكن محض مصادفة أنّ فريق كرة القدم، الذي تأسّس بعدما خطف العامّة الكرة من النخبة ولعبوا على ملاعب طينيّة، حمل وحافظ على اسم الريلامباغو دي إلبينيا. بدت الصواعق من قرية كاسترو ككوابيس غزيرة، كغابات فجائيّة متوقّدة ووحشيّة، بحيث احتوت بأسى وغضب الفراغ السماويّ.

كانت هناك نقطة نظر مثاليّة لرؤية سينما البرق. صخرة الوقواق. تلك الصخرة القريبة من المنزل، التي تقبع على مرتفع شديد الانحدار ينتهي عند دكّان الإسكافيّ. يروى أنّها كانت وقواقاً كبيراً، نحتها خيال الزمن في ورشة العراء. أيّ نحّات كان سيدخل التاريخ في مثل هذا العمل. لقد كان

للصخرة شكل طائر بجناحين كثيفين وعينين صلبتين ومنقار مصوّب نحو المدينة. اتّصلت محوريّاً مع المنارة. كنّا نتسلّقها ونجلس على رقبة الوقواق ونشعر باستثارة بحر الغيم. هناك يوجد المحيط. ومضت سنوات، وحين عودتي من الخدمة العسكريّة، وجدت أنّ الآلة الثقيلة قد دمّرت الطائر الكبير الذي نحتته الريح. لم أكن أعرف أنّ موت حجر سيؤلمني على هذا النحو.

من ذلك المرتفع، ومن نقاط حراسة أخرى، شاهدنا العاصفة وهي تقترب من شبه جزيرة المنارة قبل أن يعرف أهالي المدينة بها. في مواسم المطر كانت النساء، غاسلات الثياب، يستغللنَ فترات صفاء السماء لنشر الملابس. تسلّل هذا الوقت المشمس بين زخّات المطر مثلما تهرب الساعة من بين دقّاتها. وحينما يشاهدنَ الماء عند برج هرقل يعرفنَ أنَّ لديهنَّ خمس دقائق فقط. فنسمع حينها أصوات الإنذار ويسارعنَ إلى تغطية المناشر الجبليّة. تثير الذاكرة تلك الصور لهدف فنيّ. وسواء في نطاق العمل أم الاحتفالات، كانت هناك أناقة بارزة في الأسلوب. كذلك الأمر في المزارع. يعدّ الخسّ المربوط جوهرة وادي إلبينيا. يربط كلّ رأس خسّ بورقة عشب رفيعة بحيث تصفّ في دوائر لتشكّل في نهاية المطاف هرماً مؤلّفاً من مئة رأس خسّ دون زيادة أو نقصان. بطريقة الترتيب والصفّ تلك يحافظ عليها طازجة حتّى بعد قطافها. كانت تلك الأرض طيبة لزراعة «نجمة الفقراء»، على حدّ تعبير نيرودا في وصفه البصل. كلّ ذلك رأيناه على رؤوس النساء، إذ كنّ يحملنَ كلّ ما هو أساسيٌّ. لا أزال أرى النساء وهنّ يحملنَ جرار المياه وجرّات الحليب وحزم الأعشاب. وبما أنّني لا أستطيع أن أفعل شيئاً آخر، أتمنّى أن أضع في سلّة السيّدة ثيليا، إحدى بائعات السمك،

أو في دلوها، بيتاً شعرياً للكاتبة الألمانيّة نيلي زاكس، من كتابها «**قبور مكتوبة في الهواء**»، تقول فيه «مشعّة بالسمك في ثوب متألّقٍ من الدمع».

في كاسترو ولد أخان: سابيلا، وفرانثيسكو خابيير. بالنسبة إلينا تشافي وباكو. قالت لي أمّي في أحد الأيّام «اجلس هناك ومدّ يديك إلى الأمام». جلست أمامها ومددت ذراعيّ أماماً بحيث استخدمتهما كشمّاعة لفرد ولفّ كبّة الصوف. منذ ذلك الوقت صار لساعات الصمت صوت خاصّ. صدىً دقيقٌ ومهنيّ. موسيقا نسيجيّة. موسيقا الحياكة نفسها يتبعها ظهور قطع غامضة لتشريح إنسانيّ صغير. أولاً زوج جوارب صوفيّة. وبعد الانتهاء من تلك الجوارب بحجم الدمية، كانت أمّي تنقل إلينا رسالة باستخدام رموز المدوّنة الدوليّة للشيفرات: «شيء جديد على الطريق!».

لطالما حرصت أمّي على أن تكون أقدامنا دافئة. حاربت البرد والرطوبة وتيّارات الهواء بلا هوادة. جرت العادة تخويف الأطفال بالذئب والرجل الذي يأخذ الأولاد في كيسه. أمّا أسوأ الوحوش لدى أمّي فكانا الدلف وتيّارات الهواء. وقد أحبّانا هذان الوحشان الفقيران. فقد رافقانا دائماً بشكلٍ مرئيّ أو غير مرئيّ. كانا جزءاً من المكان، تماماً على غرار رجل الطقس. ربّما لم يدرك هو ذلك. فله حياته. كما أنّه يحضّر كلّ يوم خرائطه بحذر شديد، ولا سيّما عندما يتعلّق الأمر بجزر الأزور. هنا منطقة الضغط الجويّ المنخفض. أمّا منطقة الضغط الجويّ المرتفع فلا تحظى بالاهتمام عينه كما أعتقد. لم يكن ميّالاً إلى منطقة دون أخرى. كانت عصاه قدريّة، وهو منحها الصوت. وحقيقةً بدا عليه أنّه جديرٌ بالثقة، لكن دون أيّ تأثير. لعصاه حياة خاصّة. كانت تقرّر وتشير إلى أسطحنا، وإلى رؤوسنا. لطالما أصرّ على كاسترو دي إلبينيا.

في منزلنا، وقبل أن يتمّ استخدام الغاز، كان لدينا فرن حديديّ ندعوه بـ«البلباوي» أو الاقتصاديّ. وبينما كانت أمي تموّن من أجل فصل الشتاء، دخل أبي ذات ليلة المنزل، وبدا كأنّه قد نجا من حادثة غرق. تبلّل في أثناء عودته من عمله في البناء إلى درجة وصل فيها الماء إلى عظامه. دخل شاحباً وصامتاً. وبينما لبس ملابس جديدة جافّة، دون أن يتوقّف عن الارتجاف برداً، كانت أمّي تنشر فوق الفرن الحديديّ ملابسه المبتلة والصلبة كبدلة غوص. كنت هناك حينها، إلى جانب الفرن، أقوم بواجباتي المدرسيّة في ذلك المكان الدافئ. ولمّا أدركت أمّي وجودي هناك، توقّفت للحظة عن نشر الملابس ونظرت نحوي بثبات وقالت لي بنبرة شجار:

- وأنت، حينما تكبر ابحث عن عمل لا تبتلّ فيه!

١٣. موت فرانكو الأوّل

شجرة كستناء سوتو تعطي كستناءً للعالم كلّه.

كانت شجرة الكستناء صغيرة عندما رسمها خيرمان تايبو (لاكورونيا ١٨٨٩ – باريس ١٩١٩) في مشهده الطبيعيّ «**سوتو دي إلبينيا**». لا بدَّ أنَّ عبقريّ النظرة ذاك قد شاهد فيها شيئاً فريداً، غير أنَّه، وكما حصل مع رسّامي جيل الألم كلّهم تقريباً، أخذه منجل الموت باكراً. كذلك الأمر مع تايبو، فقد كان رسّام أجمل لوحات التعرّي الغاليسي، تماماً على غرار لوحته التي رسم فيها حبيبته الفرنسيَّة سيموني نافلو.

يمكن رؤية ذلك الإبداع الفنيّ في قصر لاكورونيا البلديّ. في أثناء الدكتاتوريَّة الفرانكويَّة بقيت لوحة المرأة العارية لفترة طويلة في قبو البلديَّة، وبعد خروجها إلى النور، راحت تنتقل إلى الجانب المعتم في المناسبات الرسميّة أو الاستقبالات الحكوميّة. مرّة، في أثناء زيارة المطران والكاردينال كيروغا بالاثيوس القصر، قرَّرت السلطات المختصّة تغطية اللوحة الشهوانيَّة بغطاء مزخرف بالقرنفل الأبيض والأحمر. إنّما، في أثناء الزيارة، ضرب تيَّار هواء إحدى النوافذ فطار الغطاء ووقع أرضاً وانكشف الجسد المتوهّج لسيموني الجميلة بشعرها الذهبيّ الطويل أمام الحاضرين. حينها، قال المطران كيروغا لمعاصره، الذي شاركه روح الفكاهة نفسها، خوان الثالث والعشرين: «لكن، لماذا يخفون هذا الإعجاز الخلقي!؟»

وشجرة الكستناء إلهيَّة هي أيضاً. وبالطبع، ثمَّة أشجار كستناء أخرى، لكنَّ شجرة السوتو القريبة جدّاً من الحصن الأثريّ، والمجاورة لنهر لاغار، كانت شجرة إنجيليَّة وشيوعيَّة بعض الشيء، إذ كانت تضاعف طرح ثمارها حسب الحاجة. لذلك كان من اللازم التحلّي ببعض الصبر. وفي كثير من الأحيان بدت مقطوفة ثمارها، فبعضهم يضربها بالعصا، وآخرون يتسلَّقون أغصانها كالسّناجب. إنّما، إن كنت تثق بتلك الشجرة وتتحلَّى بالصبر، فسرعان ما تقوم الشجرة بحساب عدد ثمار الكستناء من أجل أن تصنع لنفسك طوقاً على الأقلّ. لا أحد عاد خائباً من تلك الشجرة. الجميع صنعوا أطواقاً من ثمارها وعلّقوها حول رقابهم في ذكرى يوم الأموات. لم يكن ثمّة فتى أو فتاة من دون سُبحة تزينيّة وحامية في الوقت نفسه، ذلك أنّها قابلة للأكل بما أنَّ حبّاتها مصنوعة من ثمار الكستناء المسلوقة.

وطعم الكستناء ألذّ إذا ما سُلقت مع حشيشة الهر، وهي نبتة عطريَّة وطبيّة كنّا نجدها على طريق الإسكوريال. وهذه أخرى، فمعرفتنا بالأعشاب والنباتات لم تكن بين الأشياء التي تعلَّمناها في المدرسة. في أحد الأيّام أخذتني أمّي معها كي نقوم بأغرب عمليَّة حصاد، ألا وهي قطف ورد الجولق. من بين أشواك العليق كنّا نأكل التوت كعصافير أبي الحنّ، لكن ما الهدف من قطف أزهار الجولق؟ كانت قد مضت سنوات عدَّة قبل أن أسمع بأسطورة بريتاني التي تروي أنَّ الله أراد خلق أجمل الأزهار على وجه الأرض، فراح يرسم زهرة الجولق بلونها الأصفر الذي استعاده فان غوخ فيما بعد. وما حصل أنَّ الشيطان كان مختبئاً، ولمّا انتهى الله، ظهر عدوّه ورسم الأشواك عليها. وهكذا خلق ورد الجولق كرمز حياة يتردّد في الأصوات المرتعشة، في أغانيها وأناشيدها: نصل من شوك وزهر.

وهناك، كنّا في الجبل نقطف الجولق ونعبّئه في كيس قماش حملته أمّي معها. وجهُها الجدّيُّ وبريق نظرتها الحزينة حين قطف الزهرة من بين الأشواك، شكّلا صورةً غريبةً أشاعت الأمل. هذا ما أدركناه عندما قالت لنا «هذا الورد للخالة ماروتشا المريضة كثيراً. صحيح أنّ الجولق مرّ، لكنّه جيّد للقلب». أمّا أنا فكنتُ سعيداً في سادا، عندما كنت أقضي فترة الصيف في منزل الخالة. كان لأبناء خالاتي عالم خاصّ بهم يصنعون فيه كلّ ما يحتاجونه. صنعوا طوّافات خشبيّة في المستنقعات المحيطة بمصانع القرميد المهجورة. كانت عبارة عن منصّات طوّافة فوق عبوات بلاستيكية وإطارات كبيرة. ورحنا نحرّكها مستندين إلى عصيّ طويلة حتّى وصولنا إلى مكان صيد الحنكليس. صدنا الحنكليس دون خُطّاف مستخدمين حلقات من الديدان المعلّقة في خيط بحيث يعضّها الحنكليس بنهم ويبقى عالقاً فيها لبعض الوقت. كانت تدهشني رؤية الحنكليس عندما يتمكّن من الهرب وينزلق بين المروج كالثعابين، فيسارع ابن خالتي تشان ليقول «يمكننا أن نعبر غاليسيا كلّها بتلك الطريقة». أمّا خالتي، ففي فراش مرضها كانت تبدو جميلة وشاحبة كأنّها من عصر آخر. اعتادت أن تقول: «ليأتِ هؤلاء الملاعين ويعطوني قبلة!».

في كاسترو، حين الاحتفال بذكرى يوم الأموات، كنّا نصنع الجماجم من ثمار القرع بعد إفراغ جوفها. ليلاً، في الأماكن والطرق الأكثر عتمةً، كنّا نشعل الشموع داخل الجماجم. بدت تلك العادة في بداية الأمر مخيفة، ولا سيّما أنّها تشيع في المكان جوّاً جنائزيّاً بامتياز. إنّما كان العكس تماماً. صارت بمنزلة لعبة إرشاديّة تضمّ الماضي والمستقبل معاً: سيرٌ وسباقٌ إلى حدود العالم الآخر، تشارك في كنيسة الأحياء والأموات. في نهاية القرن العشرين

تقريباً، وفي كنيسة القديس بيثينثو، عملَ رجلٌ استثنائيّ حفّارَ قبور. إنّه جارنا في كاسترو، أنطونيو، المعروف أيضاً باسم تشيبيريكو. كان حفّار القبور هذا أفضل مهرّج في الحفلات علاوة على كونه قاذف ألعاب ناريّة ماهراً وراقصاً فريداً. في المجمل، هو شخص مسلٍّ وبارع، له خيال واسع، وأحاديث من أزمنة أخرى عصيّة على الفهم أحياناً. كثيراً ما اقترب من بوّابات الحانات وصرخ نحو الداخل حيث المرتادين قائلاً: «عليكم أن تموتوا! لا أجني شيئاً إن لم تفعلوا».

والطبيعيّ هو ألّا تكون «طبيعيّاً»، بل أن تكون مختلفاً. هذا ما تعلّمه الحياة عندما نتذكّرها. وهنا تقبع كلّ أزواج الأحذية التي امتلكها فارروكو في حياته كلّها. لم يكن غنيّاً. عمل بالبناء. إلّا أنّه احتفظ بكلّ شيء، وأعاد استخدام كلّ شيء. إذا كانت كاسترو مليئة بصواني القرابين فذلك لأنّ فارروكو كان قد مرَّ في كلّ صوبٍ منها. راح يبني كاسترو بأسلوب معماريّ بديل. هندسة العشوائيّات. صحيح أنّه مات، لكنَّ جزءاً كبيراً من العشوائيّات لا يزال على حاله، لأنّه بناها وطلاها بطلاء بحريّ شبيه بطلاء القوارب غير المكتملة التي أعاد استخدامها. لذلك كان لتلك العشوائيّات جمالية مراسٍ رست في أعماق الجبل. إنّما، على الرّغم من هذا كلّه، كان المشهد الرائع بالنسبة إليّ رؤية صفوف الأحذية التي امتلكها منذ طفولته حتّى شيخوخته، وكيف كان ينظّفها زوجاً زوجاً. هناك كانت نعال وكعاب الحياة، تماماً على غرار الحلقات التي علّقت على جذع شجرة كستناء سوتو.

وبالإضافة إلى الجماجم المصنوعة من القرع في ذكرى يوم الأموات، كانوا يوزّعون في أثناء مرورهم بالمنازل الكستناءَ والحلويات. وبعد سنوات

عدّة، وبسبب الإعلانات التجاريّة، استوردنا عيد الهالوين. تذكّرت كثيراً كستناء السوتو، وحفّار القبور وقاذف الألعاب الناريّة الماهر أنطونيو. كذلك تذكّرت مواكبَ الكرنفال، ولا سيّما موكب إلبينيا وأصحاب الجماجم. في إحدى المرّات اجتمعوا في الكرنفال، وكان أحدهم قد صنع دمية من الخشب ألصقوا عليها صورة الطاغية فرانكو. وضعوها على ظهر حمارٍ ورافقوها كما لو كانوا حرساً له. ترأس الراهب المتحرّر بيبي دي أمارو الموكب وهو يحمل المبخرة، إن لم أكن مخطئاً. لقد ذهبوا ليدفنوه، ليرموا ذاك الطاغية اللعين في نهر مونيلوس. لم يؤذوا أحداً قطّ. **إلّا أنّ الطغاة لا يتمتّعون بروح الدعابة.**

سرعان ما ألقوا القبض على ذلك الموكب. اعتقلوا كلَّ من شارك وأساؤوا إليه لأشهر. جاءت فترة الصيام وحملت معها الخوف. إنّما هذه المرَّة لم يكن خوفاً من الجماجم اليقطينيّة.

١٤. المعلّم والملاكم

كنّا، نحن الاثنان، في العمر نفسه تقريباً. وكان اليوم الأوّل لي في المدرسة عندما ظهر في طريقي. أنطونيو، أو روكس كما يسمّونه وعن جدارة. حدَّقت إلى لون شعره الأحمر. وسرعان ما شكَّل الأطفال الآخرون من حولنا دائرة. نعم. إنَّه يومي الأوّل في المدرسة، ومعركتي الأولى كذلك. وجاء دورنا. وضع فتىً عصا على كتف أنطونيو وقال لي هامساً: «لنرَ إن كنتَ رجلاً بما فيه الكفاية كي تأخذها منه».

ولا أذكر أنَّني اهتممت في تلك اللحظة بشكل خاصّ بإبراز رجولتي. فبالنظر إلى الموقف الّذي كنت فيه، لم يكن لديَّ أيُّ مانع من أن أكون أيَّ كائن آخرَ أكثر تواضعاً. إلّا أنَّني كنت واثقاً أيضاً أنَّ القدر دائماً ما يتدخّل في اللحظات المناسبة. لم يكن ثمّة داعٍ للحركة والاندفاع. جاءتني دفعة من الخلف نحوه. وقعت عصاه في حين كنّا نتعارك ماسحين الأرض بجسدينا بفعل قوّة الجاذبيّة. بعدها صرنا صديقين. أتذكّر اليوم الّذي وصلتُ فيه إلى المدرسة وقال لي أنطونيو بسعادة: «أنا مسافر غداً إلى إنجلترا». وأضاف: «أمّا أنت فستبقى هنا!».

لم يقل لي ذلك عن سوء نيّة، وإنّما كتأكيد علميّ. ومعه حقّ. وحقيقةً أثَّر فيَّ رحيله كثيراً. في كلّ مرّة يمضي فيها وقتٌ قصيرٌ يهاجر أحدهم. لماذا يذهبون هكذا، فرداً فرداً؟ لمَ لا نرحل جميعاً؟

دائماً ما يتحدَّث الناس حين الهجرة عن الحنين والشوق الذي يشعره المرء نحو أرضه عندما يهاجر إلى أرض أخرى. وبالفعل، مَن يهاجر كان يشعر بالحزن والأسى، لكن بالأمل كذلك. أمّا الحزن الملازم دائماً فكان لذلك الّذي لم يستطع المغادرة. في تلك الفترة كانت معظم الهجرات إلى أوروبا، ولا سيّما ألمانيا وإنجلترا وسويسرا وفرنسا. إلّا أنّنا في كاسترو، كما هي الحال في غاليسيا كلّها، وقبل مارشال مكلوهان، كنّا قد اكتشفنا «القرية العالميّة» نظريّاً وعمليّاً. في كثير من الأحيان هرباً من الطغيان العدائيّ والخانق، تماماً كما تقول كلمات أغنية خورخو سوتو التي كانت تُردّد عندما تبحر الباخرات الكبيرة في طريقها إلى أمريكا «هناك ستبقون! هناك ستبقون! مع الرهبان والكهنة والجنود ستبقون!».

صحيح أنَّ كاسترو قرية صغيرة، إلّا أنّها كانت خريطة للعالم. فإن سألت، كان بإمكانك أن تسمع أخبار الجيران في جمهورية الدومينيكان، وكوبا، والأورغواي، وفنزويلا، وكاليفورنيا... أمّا الأسماء الأسطوريّة للقرية: فينتورا، وكارداما، أوتروست، وآمانكا، وإنريكي دي براس، وإيفاريست دا بونتي، ومانولو دي أفريقيا، ومانولو مارتين... لكن في طفولتنا كانت لمعظمهم وجهة أوروبيّة. وإن كان الرحيل محزناً، فعودة «حقيبة المهاجر» فرحة لا بدّ من مشاركتها. كانت صندوقاً يحتوي جميع الأشياء الجديدة الرائعة. بالنسبة إلينا، لم تكن مجرَّد ألعاب لا يمكننا الحصول عليها في قريتنا فحسب، إنّما، ولا سيّما في فترة المراهقة، مثّلت منفذاً للمتعة والرغبة: الأسطوانات الموسيقيّة، والمجلّات بصور العاريات، وقطع الملابس الجريئة، والملابس الجديدة وفق آخر طراز طرحته الموضة.

كذلك التلفاز الأوّل الذي رأيناه، وقبله تلفاز حانة ليونور الّذي أحضره ريجال وسارة حين عودتهما من ألمانيا. كانا أوّل من هاجر إلى تلك البلاد. عادا في أوائل السبعينيّات. لمّا بدأ ريجال في تركيب التلفاز، احتلّ الجيران المنزل. وظهرت الصورة متقطعة على تلك الشاشة، إلّا أنّ أحداً لم يهتمّ لذلك. بالقرب من الجهاز جلست ماريا فيتوريا، ابنة ريجال وسارة. هي كذلك عادت من ألمانيا. ضفائر شقر، وقامة طويلة، ونظرات غامضة. ربّما كنّا نحن الغامضين بالنسبة إليها إذ لم نرفع أنظارنا عنها. ما نفع النظر إلى التلفاز إن كانت ماريا فيتوريا موجودة؟

معلّمي الأوّل في كاسترو اسمه السيّد بارتورو. كان لكلّ واحد منّا حينها لقب خاصّ به. ولقبي هو العنيد. أمّا لقبه هو فكان الحصان الأبيض. كان ذلك من الأشياء الأولى التي تعلّمتها قبل دخولي قاعة الدراسة في مدرستنا الحكوميّة «الكتاكيزم». اسمها يظهر دقّة السكّان في إطلاق الأسماء الساخرة على الأشياء. كان معلّمنا رجلاً قويّ البنية يعكس صورة العقيدة والخوف معاً. ترؤُس المدرسةَ عند آخر الجدار، تماماً خلف طاولته، صورةُ المسيح مصلوباً وأخرى كبيرة لفرانكو وهو يرتدي وشاحاً جلديّاً ويحمل سوطاً فروسيّاً. هناك بقيتا معلّقتين، لكن بظروف مختلفة. يسوع مصلوباً وعارياً ومتوّجاً بالشوك وقد انغرست المسامير في يديه وقدميه وغطّت الدماء جسده كلّه. ومن جهة أخرى فرانكو القائد، بنظرته المتغطرسة، وحضوره القويّ المنبعث من لباسه الحسن. سنتان والمشهد نفسه أمامي. هما أكثر من مجرّد سنتين. ترسل العينان المعلومات، لكن لا يتوقّف العقل عن العمل. لقد كان القائد هناك يحكم الجميع ولا أحد يعلوه. أمّا ملك الملوك فبدا مهجوراً وضعيفاً، وكان قد عُذّب قبل أن يموت. غير أنّ المسيح كان

أعلى قليلاً. تدلّى رأسه نحو اليمين، في حين كانت نظرته تشجب نظرة حامل السوط، كأنّه يقول لنا إنّ ما هو عليه ذو علاقة بحامل السوط.

في المدرسة كان معلّمنا هذا مهتمّاً كثيراً بما يُدعى تأهيل الروح الوطنيّة. وبدا أنّه مقتنع تماماً بكلّ ما يقوله. وبما أنَّ الأمور مشت كما أراد، فقد اعتاد أن يخرجنا إلى باحة المدرسة ويجعلنا نشكّل صفّين مسلّحين بعصيّ ثمّ يلقي علينا الأوامر بصوته العسكريّ كما لو كنّا في مناورات مع العدو. وكان ثمَّة أعداء. أعداؤنا مَن هم ضدّ إسبانيا. ولم نعرف قطّ أشكالهم، كيف كانوا، وما هي هيئاتهم، إلّا أنّهم كانوا موجودين، وسمّاهم: الحشد الأحمر، أو المؤامرة اليهوديّة- الماسونيّة، أو خونة الأمّة. أسماء تعود بنا بالذاكرة إلى عُصب الشبّان، الناشطة في الأحياء الفقيرة. ومهما يكن من أمر فقد بدا لنا ذلك مسلّياً. الزحف أرضاً متنكّرين بالعشب بغية التمويه، وتنفيذ الأوامر بسعادة مطلقين النار على أيّ شيء يتحرّك من غربان وخراف، أو حتّى الطائرة النفّاثة الّتي تترك خلفها خطين أبيضين متوازيين على مرمى دفاعاتنا المضادّة للطيران. لعبنا الحرب في مكان كان في ما مضى ميدان حرب. ميدان معركة إلبيينا. إحدى نقاط قوّتنا كانت بالضبط الصخرة الكبيرة، صخرة جالوتة، حيث أصابت المدفعيّة النابليونيّة القائد البريطانيّ جون مور بجراح قاتلة. مات الآلاف، لكنّ السكّان تحدّثوا بشيء من اللياقة عن ذلك الشابّ العسكريّ الرومانسيّ. تحدّثوا عنه كأنّه بطل محلّيّ. في نهاية الأمر، خاطر بحياته هناك، عند صخرتنا العظيمة. مرّة، وبينما كان والدي يعمل في الأرض عثر على زرّ بدلة عسكريّة مكتوب عليه حرّية، مساواة وإخاء. جعلني ذلك أقرب قليلاً إلى الجانب الفرنسيّ. إنّها تعويذة المصادفة! وعند الصخرة التي قُتل إلى جانبها القائد مور كان هنالك مخبأ محميٌّ طبيعيّاً بورق

الغار. في ذلك المكان دخّنا سجائرنا الأولى التي كنّا نشتريها مفرّقة عند باب سينما «مونيلوس». وهناك أيضاً ارتعشنا من حرب أخرى. حرب المعانقات الأولى والحبّ خلسةً.

واعتاد معلّمنا أن يستخدم عصا يشير بها إلى السبّورة أو الخرائط. إنّما، أحياناً، حينما يتّقد غضباً، تتحوّل العصا إلى سلاح بدائيّ مرعب. في أحد الأيّام أبرح أحد الطلاب ضرباً، فتى يُدعى رافا، أكبر منّي بقليل. فجأةً هبَّ الفتى من ألمه وغضبه وأطلق صرخة مرعشة وخرج هارباً من الصفّ. سارع المعلّم للتلويح بعصا القيادة صوبنا وأمرنا: «عليكم به! أمسكوا به وأحضروه إلى هنا!»

خلف رافا ركضنا ككلاب الصيد. كان هو بمنزلة أرنب بريّ، وكنّا خلفه كذئاب متوحّشة تنوي افتراسه. في ذلك اليوم أدركت أنَّ متعة الإنسان القصوى تكمن في اصطياد إنسانٍ آخر وافتراسه. وهنا حدث أمر غير متوقّع. فبينما رحنا نبتعد عن المدرسة وصرنا في مأمن خارج مرمى نظر المعلّم، خرج من مجموعة المطاردة منشقٌّ أوقفنا جميعاً بإيماءة حاسمة. إنّه خوان، أضخم فتى في المدرسة. كان قد كسر رجله في أثناء قفزه من فوق حائط ما. دخل المستشفى وعاد إلينا في تلك البنية متضاعفة الحجم. يُحكى أنّهم جرَّبوا معه للمرَّة الأولى مركّباً فيتامينيّاً لعلاج فقر الدّم. أردنا كلّنا أن تنكسر أرجلنا ليعطونا تلك الجرعة الاستثنائيّة. غير أنّ خوان لم يكن يفرط في استخدام قوّته ويسيء. تحرّكت قبضته بشكل بانوراميّ على مستوى نظرنا. كان هو مَن أعلن بصوت عالٍ وحاسم تغيّراً في مجرى الأحداث: «مَن سيلمس رافا فسأحوّله إلى سردين مشويّ على نار جهنم!». شيء من هذا القبيل أُعلن

بفم تبشيريّ وقبضة تبشيريّة أيضاً. لقد كان شعوراً بلقاء مبدأ المبادئ في لحمه وشحمه: رفض الظلم.

كان أستاذنا في إلبينيا شديد الإعجاب بذلك الملاكم الأسود كاسيوس كلاي، الذي أطلق على نفسه فيما بعد اسم محمّد علي لمحو أثر العبوديّة. في تلك الفترة، درسنا قائمة الملوك القوطيين، وإنجازات كبار مستعمري أمريكا. إنّما الملك الحقيقيّ في تلك المدرسة، منتصف السبعينيّات، كان كاسيوس كلاي. كان كلّ شيء في القاعة مسخّراً لخدمة أستاذنا. فمن أجل الوقوف والمشي احتاج إلى عكّاز. رجلاه قصيرتان وملتويتان بسبب مرض أصيب به في طفولته كما قيل. بنيته الجسديّة قويّة ورقبته كرقبة ثور. اعتاد الجلوس على كرسيّ خلف الطاولة. نظرته الثاقبة والغامضة واللامعة، ورأسه البارز والأملس كأنّه مغطى بالطلاء، جعلا منه رمزاً للهيبة بحيث بدا كأنّه يمارس على الجميع تأثيراً مغناطيسيّاً. الكرة الأرضيّة نفسها التي كانت حيناً على مكتبه وأخرى فوق الخزانة بدت كأنّها قمر اصطناعيّ صغير يدور حول ذاك الكوكب البشريّ. وحينما يتحرّك، لم يكن رأسه النشط يحمل تلك الكتلة الجسديّة فحسب، بل كان يجرّ القدر كلّه معه. ولسوء حظّه كان يعيش في الطابق الثاني من بيتٍ قريب من المدرسة. الأمر الذي أجبره على صعود عشرين درجة يوميّاً ونزولها. فعل ذلك وحده مستنداً على عكّازيه. تلك هي معركته، صراعه الذي كنّا نشهده كلّ صباح، نحن طلّابه. كيف كان ينزل الدرج متأرجحاً ومقاوماً خصومة جسده في فضاء الدرج المميت.

أمّا المعلّم أنطونيو فكان رجلاً سريع البديهة. وقد تمتّع بنظرة شملت غير المرئيّ. ومن وجهة نظره الشاملة، استطاع أن يرى الجميع في قاعة الصفّ

من اليمين وعكساً. ولم يقرأ أفكارنا فحسب، بل كنّا نرى كيف ينقّب جماجم الطلّاب ويستخرج منها الأفكار ويفتتها على طاولته. لماذا لا ينادي أحداً عند السلالم؟ ولماذا لا يطلب مساعدتنا؟ كان ينظر نحونا كلّما استراح في أثناء نزوله الدرج، في حين نسترق النظر إليه من بعيد ونتتبّعه بتخفٍّ. بدت لنا رؤيته وهو ينزل الدرج ببطء بمنزلة صورة لتاريخ مؤلم ولمعرفة تالفة. أخذ ذلك العبور الشاقّ يتحوّل إلى طقس مروّع. لن يستغرب أحدٌ أن يقع في مصيدة تُحاك له في أحد الأيّام، وبذلك يختفي معلّمنا.

في قاعة الدرس كان فعّالاً وصارماً وقاسياً عندما يصل به الأمر إلى العقاب الجسديّ، ولا سيّما حين يستخدم ذراعه القويّة فتتخذ عصاه وجوداً مستقلاً منفصلاً عن دماغه المتّقد. كأنّي أراه أو يُخيَّل إليَّ. نظرته الحائرة وطريقته في تفسير معنى ذراعه بعد كلّ مرّة يضرب فيها أحد الطلّاب بقوّةٍ. حدث كلّ هذا في صباحات أيّام السبت، في أثناء تعلُّم التعاليم المسيحيّة. الإجابات الحرفيّة هي المقبولة فحسب. لسبب أو لآخر كانت أيّام السبت مثيرة للتوتّر. كان علينا أن نحفظ الإجابات عن ظهر قلب دون أن يشرح شيئاً. لا مكان للتسامح مع الأخطاء حتّى لو كان السؤال عن قصّة بلعام. أمّا العصا والمسطرة فلم يُوجدا عبثاً. في يوم المدرسة الأوّل جاء أحد الفتيان وأعطى العصا للأستاذ منفّذاً بذلك أوامر الأبوّة. استخدم كلّ من السيّد بارتولوو والسيّد أنطونيو العصا من دون حساب. ولم يكن الحديث عن الضرب أمراً مهمّاً خارج القاعة، فالعقوبة الجسديّة جزء من النظام المدرسيّ. تمتَّع السيّد أنطونيو بسمعة حسنة من حيث التعليم. كان أفضل من علَّمنا. وكانت ثمّة مشكلة عالقة بينه وبين النساء. ولا أعني امرأة أو اثنتين، بل النساء قاطبةً، إلى درجة أنّ العقوبة القصوى التي يمكن أن تقع على عاتق

طالب هي أن يناديه «يا امرأة». بوصوله إلى ذلك الحدّ، تتغيّر نغمة صوت الأستاذ أنطونيو، فتحتدّ وتلسع كإبرة النحلة.

- يا امرأة، يبدو أنّك امرأة!

كان كلّ شيء فيه يتغيّر. طريقة كلامه وجسده عندما يُذاع عن موعد بثّ منافسة جديدة لبطولة العالم للملاكمة في الوزن الثقيل. في ذلك اليوم تنتقل قاعة الدرس إلى حانة «دا كاستيلا» حيث يوجد التلفاز الوحيد في القرية. حسب علمي كان قراراً استثنائيّاً وفريداً في إسبانيا، وربّما في العالم كلّه، أخذُ الطلّابِ إلى الحانِ لمشاهدة الملاكمة. كاسيوس كلاي ضدّ جو فرايزر. تبعناه، وبدا أمامنا على عكّازيه بجسد رشيق وبحركات سريعة يطير نحو الحلبة مندفعاً في وجه العالم.

١٥. لن أتخلّى عنكم أبداً

نمنا على أسرّة قابلة للطيّ. وهكذا في أثناء النهار تحوّلت غرفة النوم إلى غرفة جلوس. بدت المدينة من هذه النافذة كباخرة أضواء كبيرة رافقت ضوء المنارة الصديق، الذي بدا كأنّه يصيح: «لن أتخلّى عنكم أبداً». من هذا الجانب الغربيّ كان ثمّة وهج خوف آخر. وهج محارق ومداخن مصافي نفط «بينس»، في شكل قاذفات لهب عملاقة شكّلت صورة مروّعة في الليل، ولا سيّما أنّ الشمس كانت تغرب عند تلك النقطة تحديداً. أمّا على الجانب الآخر من المنزل، حيث الباب الرئيس، فكان هناك الجبل فحسب. جبل ذو شخصيّة مزدوجة. في النهار غابة لا متناهية، أرضٌ قيد الاكتشاف ومكان للمغامرات. أمّا ليلاً فجحيم موحش، ومكان ضياع حيث ضمير هذا العالم يئنّ.

ذات ليلة طردنا أبي، أنا وماريا، من المنزل. كنّا في التاسعة من عمرينا تقريباً. اعتدنا أن نتشاجر كثيراً في ذلك الوقت كالقط والفأر. لم يعتد أبي على معاقبتنا بالضرب، كذلك لم تفعل أمّي. كان أبي يخلد إلى النوم باكراً لسببين: الأول، لأنه عند الساعة السادسة صباحاً يجب أن يكون في طريقه إلى عمله؛ والثاني، لأنّه لم يرغب في أن تربح شركة الكهرباء أيّ بنس واحد زيادة. علماً أنّه ليس بخيلاً، لكنّه كان على خلاف شخصيٍّ مع بعض القوى العظمى التي تحكم العالم، سواء كان الفاتيكان أم القوى الكهربائيّة للشمال الغربيّ. كان حدسه يقول له إنّنا لو اتّبعنا جميعاً أنموذجه فلن تكون هناك أزمة طاقة، ولن نعاني من التغيّر المناخيّ. لم يتنازل قطّ في مقاومته

لإمبراطوريّة الكهرباء. حتّى في شيخوخته، لمّا رُكّبت التدفئة المركزيّة في المنزل، كان يقف في الخلف صامتاً ويفصل المشعّات. وإذا ما اشتكى أحدنا من الحرارة، يصمت كأنّه عميل في خليّة سريّة مسؤولة عن فصل التدفئة. إنّما في ذلك العمر الذي بدأنا فيه نقرأ كالمجانين، انتظرنا بترقّب الظهور الليليّ لفاصل الكهرباء. لم يكن يفعل ذلك بتباهٍ، بل بخلسةٍ، ذلك أنّه لم يكن يفعل ذلك حبّاً، بل من أجل المعركة والنضال. اعتدنا أن ننتظر إلى أن نسمع شخير النوم ومن ثمَّ نعود إلى تشغيل الضوء، نحن الخائنون.

إنّما لم يكن بسبب ذلك، بسبب الضوء، عندما طردنا تلك الليلة من المنزل. كان على حقّ، إذ إنّنا لم نتوقّف عن المشاجرة عندما أراد أن ينام. حقاً إنّه لأمر رهيب أنّك في دقيقة واحدة يمكن أن تكره الشخص الذي تحبّه، ومن ثمّ لا تعرف ما حدث. وحقيقةً أنّنا تشاجرنا بغضب إلى أن استيقظ، ونهض من سريره وأخذنا كلّ واحد من ذراعه. فتح الباب وتركنا تحت النجوم، عند تخوم ذلك المكان المرعب، الغابة غير المتناهية، غابة كريغو. سمعنا خلفنا، وبذهول، صوت ترس القفل. قبل دقيقة فقط كنّا نكره بعضنا، أوشكنا أن يقتل أحدنا الآخر، وأن يقلع أحدنا عين الثاني. الآن، وفجأةً، أصبح الأعداء وحيدين في هذا الكون، مطرودين من المنزل. وكما هو معروف ليس هناك خوف أكبر من خوف الهجر.

بقينا وحدنا في تلك الليلة ننصت إلى أيّ ضجيج داخل منزلنا، ذلك المنزل الوحيد الذي لطالما قاوم العواصف. لا أزال أذكر انفعالي عندما قرأت جملة هنري بوسكو وهو يصف منزله: «كان المنزل يقاتل بشجاعة». وحقيقة الأمر أنّنا سرعان ما استطعنا تجاوز الشعور بمتلازمة هانسل وغريتل. نسينا سبب الشجار، وأمسك كلٌّ منّا بيد الآخر. شعرنا أنّنا

متّحدان أكثر من أيّ وقت مضى. أقسمنا معاً ألّا نتشاجر ثانيةً، وتحقّق قسمنا. وهكذا انتقلنا من حالة قلق إلى هدوء نسبيّ، وبعدها إلى سعادة عارمة. إذا بقي باب الأبوّة مغلقاً، فأين عسانا نبحث عن ملجأ؟

أعمامنا. يجري الحديث اليوم عن الشريط الوراثيّ، وعن أوجه التشابه والاختلاف بين البشر وبعض الحيوانات المشابهة مثل الشمبانزي، والبونوبو، والسِعلاة. ليس صحيحاً أن ليس لها لغة، وأنّها لا تستخدم الأدوات. فكما شرح الأورغوانيّ العبقريّ كاساكوبيرتا، نحن متشابهون معهم في كلّ شيء تقريباً. ما الفرق الرئيس بيننا؟ نحن البشر لدينا أعمام وعمّات!

وهناك، كنّا، أنا وماريا، تغمرنا السعادة ونحن نراجع القائمة الرائعة: غايتيريا، وبيرلوكي، وأنثيس، وسادا، سيرغوجي، صالون حلاقة شارع بيثكايا، حانة ألميرا... حتّى في إشبيلية كان يعيش عمّنا بينيتو. بالمناسبة، كان جابي كهرباء. وكنت أظنّ أنّ بينيتو قد ذهب مشياً على الأقدام من كوربو سانتو إلى إشبيلية لأنّني لطالما سمعت عن تجواله. جال شوارع إشبيلية كلّها مشياً على الأقدام، من منزل إلى آخر، ومن عدّاد كهرباء إلى آخر. حتّى في الصيف، عندما كانت الأرض تحرق القدمين كالجمر. في مخيّلتي، جاب بينيتو الأرصفة الملتهبة بصبر فقير موظّف في شركة كهرباء مسؤول عن جباية الكيلوواطات. في تلك اللحظة ظهرت أمّ كارمينيا في القصّة، فقد دعت ذلك الشاب الغاليسي، جميل المظهر، ذا الصوت الرخيم، والمهذّب، والخلوق لدخول فناء منزلها ليأخذ قسطاً من الراحة في الفيء، ويتناول عصير الليمون الطازج. وهكذا تعرّف كلٌّ منهما الآخر. تزوّج بينيتو كارمينا بفضل الكهرباء. وبغضّ النظر عن رأي أبي بقطاع الكهرباء الاستغلاليّ، كان مثل جميع أفراد الأسرة يقدّر بينيتو ويحترمه. في كبره، ذهب أبي في

إحدى المرَّات لإجراء امتحان الشهادة الابتدائيَّة. درس كثيراً مع الأخت سابيلا التي كانت معلِّمة مدرسة. أجابَ عن كلّ شيء بشكل جيّد، لكن لمَّا سألوه عن الطفيليّات، بقي صامتاً. لم يرغب في التعبير عمّا جال في خاطره في حقيقة الأمر. أصرَّت عليه ممتحنته، فقال اسم طفيليّ لا علاقة له بالأغنياء ولا بالسياسيين: السلحفاة. بدا في غاية الرضا بعد أن أطلق دعابته. أُعجبت ممتحنته بالإجابة. أمَّا التمرين الثاني فكان كتابة موضوع.

- موضوع؟

- إجازتك الصيفيَّة.

في تلك اللحظة ترك أبي قلمه على مقعد الامتحان ونهض ذاهباً صوب باب الخروج دون أن ينبس ببنت شفة. نادته الممتحنة كي تطلب إليه شرحاً لتصرُّفه ذاك؛ لماذا تترك الامتحان الآن؟ فأجاب: «لم أذهب في إجازة قط». فكّرت قليلاً ثمّ قالت له: «اجلس من فضلك واكتب ما يحلو لك». وكتب أبي عن مغامرة العمّ بينيتو، تلك الأسطورة التي تقول إنّه ذهب سيراً على الأقدام من كوربو سانتو إلى جسر تريانا. وصف تلك المدينة الساحرة حيث جباة الضوء يتعرّفون إلى نساء مضيئات في أفنية مظلمة، ثمَّ يتزوَّجون ويصبحون سعداء. كتب أيضاً « نعم! لقد أحببتُ إشبيلية». غير أنَّه لم يزرها في حياته قطّ. لم يهوَ السفر، وكلَّما تقدَّم في السنِّ كرهه أكثر. في سنوات عمله الأخيرة اعتاد الاستيقاظ باكراً، قبل ساعتين أو ثلاث من بدء العمل. يركب سيَّارته البيضاء من نوع رينو فور ويذهب بها إلى العمل كي لا يلتقي بأيّ سيّارة أخرى في طريقه.

كان ثمَّة أماكن كثيرة نذهب إليها. بين أعمامي وعمّاتي وأخوالي وخالاتي كان بإمكاننا تأسيس جمهوريَّة لكثرتنا. العمَّة بيبيتا في آغايتيرا، التي لطالما

كانت مصدر تناغم بالنسبة إلينا. أمّا في بيرلوكي، فهناك فيليثيتاس، والعمّة أمبارو أيضاً التي كانت تملك ورشة خياطة. كنت أعشق الذهاب إلى هناك. لطالما شعرت بسعادة في صالونات الحلاقة وورشات الخياطة. في ورشة خياطة أمبارو عملت نصف دزينة من الفتيات اللواتي ضبطن دعاباتهنّ وسخرياتهنّ على أنغام دعسات أقدامهنّ على آلات الخياطة. فجأة تتوقّف آلات الخياطة عن العمل على وقع صوت خوانا غينثو أو ماتيلدي كونيسا في المسلسل الإذاعيّ لغيرمو سوتيير كاساسيكا. كان ذلك المسلسل دراما حقيقيّة دخلت في قلوب الناس. وكان من حقّ الخيّاطات الوقوف عن العزف على آلات السينجر بسبب الانفعال المفرط! بعض تلك الفتيات كنَّ من قرَّاء روايات الكاتبة الإسبانيّة كورين تيادو. أمّا المقابل بالنسبة إلى شبّان ذلك الوقت فكانت روايات الغرب الأمريكيّ. شخصيّاً، وفي ذلك الوقت، كنت لا أزال صغيراً. اهتممت بالرسوم الكرتونيّة لمغامرات وقصص القبطان تروينو أو الخاباتو. إنّما ما غيّر كلّ شيء تقريباً، بعد أن أجروا لي عمليّة اللوزتين، هو قراءة رواية «**آخر سلالة الموهيكيين**» لكاتبها فينيمور كوبر، في نسخة مصوّرة صادرة عن بروغيرا. أمّا بطلي المفضّل والخاصّ فكان أونكاس مع سلحفاته الموشومة والمتخلّفة بعض الشيء. لمّا كبرت بعض الأشبار، وفي الصيف السابق لدخولي المدرسة الإعداديّة، أخذت جرعة زائدة من ثقافة «الغرب الأمريكيّ القديم»، كنوع من أنواع التأهيل والتدريب. اعتاد صديقي، مانولو دي هيلارو، من كاسترو، أن ينصحني ويزوّدني بكلّ ما ينقصني. أصبح الآن قارئاً لأفضل الأعمال الأدبيّة. أعجبتُ به أيضاً لأنّه اختصّ في تجميع الرافعات الكبيرة. أعتقد أنّ الرافعات، ولا سيّما الكبيرة منها، إلى جانب القوارب والسلالم، هي من

أروع التصاميم البشريَّة. كذلك هي الطرق الحديديَّة، السكك. وعودةً إلى الغرب الأمريكيّ البعيد، كانت معظم الروايات التي قرأتها من توقيع الكاتب مارثيال لافوينتي إستيفانيا. وقد نصحني مانولو بقراءة كتّاب آخرين مثل كيت لوجر أو سيلفر كاين. كان أسلوباً مختلفاً. اليوم، من وقت إلى آخر، لا تزال هناك نقاشات جادّة بين كتّاب جادّين للغاية حول تعريف الأسلوب، وما إذا كان الأسلوب موجوداً أو لا. يحدث هذا لأنّهم لم يقرؤوا الروايات الغربيّة في الوقت المناسب. في أيّام الصيف الحارّة ، لمّا كانت الساعات توشك أن تذوب من شدّة الحرّ، كنّا، أنا ومانولو دي هيلاريو، قادرين على قراءة خمس روايات متتالية. أقسم إنَّ الفرق في أسلوب كلّ كاتب كان واضحاً. وكانت الوجوه تعكس ذلك كالمرآة. في روايات سيلفر كاين انعكست السخرية على وجه القارئ عبر ابتسامة جانبيَّة؛ وانعكس شرر الحبّ عبر بريق العينين. ونعم، بدت لغة الغرب البعيد غير المتجانسة أكثر قرباً ولا سيّما عندما مزجت بين أسلوبَي السخرية والصعلكة. أمّا عن أبطالنا المحلّيين فكان خوان الملقّب بـ «خوانيبا» ابن كوراثون، قد هاجر إلى ألمانيا، وحين عودته من ذلك الطقس البارد، راح يرتدي ملابس شبيهة بتلك الموجودة في ورق اللعب، وصار الناس يأتون من القرى المجاورة ليس لرؤيته مرتدياً تلك الملابس فحسب، بل لرؤية حماسه وهو يلعب. كلّ حركة يقوم بها، وفي نهاية الأمر جملته الشهيرة وضربة يده على الطاولة عندما يربح الجولة قائلاً: «انتهى نوع السبات من اليوم الذي اخترعوا فيه المتفجّرات».

لطالما تحدَّثوا عن القراءة وأنَّ الناس لا يقرؤون، حتّى كتاباً واحداً في السنة، غير أنَّهم نسوا كتب الخيوط، تلك الكتب الرخيصة التي تعلّق على خيوط الأكشاك، التي كان من الممكن استعارتها أيضاً. الفتيات، ليس الفتيات

الصغيرات بطبيعة الحال، كنَّ يقرأن كورين تيادو. في الواقع كنَّ يقرأن أكثر منّا، ولا سيّما أدب الطليعة. أمّا في صالونات الحلاقة النسائيّة فقد حضرت مجلّات المشاهير والقصص المصوّرة. وفي ورشات الخياطة شكّلت مجلّات الموضة عرساً يحتفي به النظر والخيال في ذلك الوقت الرماديّ. أولاء العارضات اللواتي بدين كأنهنَّ ألعاب خيال علميّ بتسريحات شعورهنّ وملابسهنّ الجريئة، حاثّاتٍ الناس على الفرح وعلى الحديث عن الفضائح. أجبرن، بشكل أو بآخر، على التعبير في زمن قيس فيه التحرّر بالسنتيمتر. وبعد مدّة قصيرة، أقلّ بكثير ممّا كان متوقّعاً، ظهرت فتاة بالتسريحة نفسها وبالفستان عينه. كانت وحدها، تمشي على الطريق المؤدّي من إلبينيا إلى كاسترو. ممّا لا شكّ فيه أنَّ تلك الفتاة قد غيّرت الواقع. أمّا روايات الغرب البعيد فناسبت جميع الأعمار. بعد سنوات عدّة، في التسعينيات، التقيت مجدّداً بسيلفر كاين. كنّا في بحر إيرلندا، وقد وصلنا إلى مطالع بلاكروك عندما رأيت بعض البحّارة وهم يقرؤونه. بدوا كاوبوي حقيقيين على تخوم العواصف المستمرّة. وبينما ثبتوا أجسامهم جيداً في وجه العاصفة، بدت على وجوههم التعابير نفسها التي كانت تبدو على وجوهنا. أعني الابتسامة الجانبيّة.

في ذلك الصيف الذي انغمستُ فيه بقراءة روايات الغرب البعيد، كانت ماريا فيه على الحدود أيضاً. مقابل وجوهنا الشاحبة كانت ماريا تتّقد احمراراً. حينها، بدأت في منزلنا، ولا سيّما ليلاً، تظهر بعض الكتب المختلفة ذات الطابع الجوّال. في أحد الأيّام فتحت أمّي أحد أولئك الزوّار المجهولين. كانت رواية «الحجلة» لخوليو كورتاثار. وهكذا قضت أيّاماً عدَّة برفقة بطليها ماغا وأورايكو أوليفيرا. ثمَّ بعد الانتهاء منها، فتحت كتاباً آخر. ها أنا ذا أراه الآن أمامي. إنَّه كتاب هنري ميلر. قرأت منه شيئاً

أعجبها، فنظرت إلى ماريا وقالت لها: «لا تستعجلي كثيراً!». كانت تؤمن بقدرة الكتب. أحبَّت الكتب وخافتها. كانت قد قرأت كثيراً عن حيوات القدِّيسين.

سمعنا أبي حين كنَّا نتحدَّث بكلّ حماس وسط مصيبتنا. تماماً على غرار أسلوب الخال فرانسيسكو. ما كان منه إلّا أن فتح الباب وأمرنا بالدخول والخلود إلى النوم لا أكثر ولا أقلّ. بعد ذلك اليوم لم نتشاجر، أنا وماريا، بمثل تلك الطريقة. في تلك الليلة نفسها، أشعلنا، أنا وماريا، الضوء كي نقرأ، ولا سيّما عندما سقط أبي منهكاً في طريقه إلى إشبيلية.

١٦. صورة الأسرة

في ألبوم الصور ثمَّة صورة واحدة للأسرة فقط. الصورة الوحيدة التي نظهر فيها نحن الستة. أبي وأمّي مع أولادهما الأربعة: الصبيّان والبنتان. نبدو جميعاً في الصورة جادّين. فيها أيضاً نوع من عدم الثقة. التقطت الكاميرا ذلك التعبير بوضوح. حتّى اليوم يمكن التماس ذبذبة تلهّف للعدائيّة في تلك الصورة، صورة الأسرة الرسميّة، وصورة أسرة كثيرة الأفراد. احتجنا إليها، أنا وأختي الكبرى، للتقديم على منح دراسة جامعيّة. أتذكّر جيّداً ذلك اليوم المطير. هرب أبي من عمله كي يكون معنا في الصورة، وكان في عجلة من أمره. مسح شعره بيده إلى الخلف وبدا أملسَ. إنّها صورتنا الأسريّة الوحيدة ونحن مجتمعون. لدينا صور أخرى، قليلة، نظهر فيها نحن الستة، لكن مع أشخاص آخرين تجمّعوا من أجل احتفال ما. أمّا تلك فهي صورة الأسرة الوحيدة، وعلى الرّغم من ذلك ليست الصورة الأولى.

الصورة الأولى التقطوها لنا منذ سنوات عدّة. كان ذلك صيفاً في صباح يوم أحد في حدائق الريينو. تحديداً بالقرب من منحوتة كونثيبثيون أرينال. يصعب عليَّ نسيان ذاك المشهد، ولا سيّما المكان الأثريّ مع بركة الأسماك الملوَّنة، المسيّجة بسلاسل ضخمة، وبحضور صقر معدنيّ كبير. كان يوم عطلة رسميّة مليئاً بالأضواء. وكان لا بدَّ من وجود موسيقا ونكهات مختلفة، إلّا أنَّ ذاكرتي لا تسعفني إلّا بتذكّر الأضواء. حمل الجميع أضواءً في

يوم الأحد ذاك. ارتدت أمّي قبّعة صغيرة من الحرير المكشكش. هي التي بادرت حين رأت المصوّر أمامها. هيّا بنا لنتصوَّر. وأخيراً تمكَّنت أمّي من جمعنا كلّنا وحثَّتنا على الوقوف أمام الكاميرا. من العار ألّا تكون لدينا صورة أسريَّة لنا كلّنا. بهذا المعنى لم تكن الصورة مجرّد لحظة سعادة، بل مسؤوليَّة أيضاً. قضيَّة معلَّقة مع القدر. اصطففنا. نظرة جانبيَّة مع ابتسامة صوب الكاميرا. اللمسة الأخيرة. الآن. انتباه.

بثبات، نظرنا إلى المصوّر. رجل بدين، عريض وطويل. راح يمسح جبهته الصمغيَّة بمنديل، وبدا كأنَّه يتحارب مع جسمه وملابسه. طقم منفّر، طويل جداً أو قصير جداً، يصعب تحديد ذلك. حرَّر ربطة عنقه وشدّها أكثر من مرَّة. أخيراً استعدَّ لالتقاط الصورة. ثبَّت عدسة الكاميرا على عينه، وقدّم رجله اليمنى إلى الأمام. انحنى قليلاً. أعادت إليه تلك الوضعيَّة شيئاً من التناسق الهندسيّ. «ابتسموا فلستم في عزاء»، قال لنا.

ثمَّ كتبَ عنوانه على ورقة صغيرة. بدا أطول حينها. راحت أمّي تبحث في حقيبتها عن محفظة النقود. فتحتها وأخرجت منها نقوداً بعمليَّة سريّة وخفيّة تقريباً. ظلَّ أبي بعيداً ويداه في جيبيه. اليوم يوم أحد، والصورة ستكون جاهزة يوم الثلاثاء ظهراً بكلّ تأكيد. جاء يوم الثلاثاء وذهبنا برفقة أمّي. لا. لم يذهب أبي معنا في تلك المهمّة. كان عنوان المصوّر في منطقة سوق سانتا لوثيا. وصلنا إلى شارع فرعيّ ضيّق، وتحقّقت أمّي من رقم البناء الموجود على الورقة، ومن ثمَّ طرقت الباب. لا أحد. لم يفتح أحد. عادت وطرقت الباب بقوَّة، ففتحت امرأة مسنَّة دفَّتي النافذة في المنزل المواجه وسألت أمّي: عمَّن تبحثين؟ عن المصوّر يا سيّدة!

وأغلقت الجارة النافذة بصمت جنائزيّ.

عدنا بعد يومين أو ثلاثة أيّام. لم نجد المصوّر ولا أحداً آخر في المنزل. في أيّام الأحد صارت أمّي في أثناء تنزّهها تراقب وتدقّق النظر في كلّ شخص يحمل كاميرا. هذا رجل بدين، نعم! لكنَّ الناس يتغيَّرون. في أحد الأيّام رأته أمّي، أو اعتقدت أنّها رأته. بين الحشود المتجمّعة حول تومبولا دي لا كاريداد. نادته وركضت إليه فاتحة ممرّاً بين الحشود، غير أنَّ الرجل السمين ركض بسرعة الضوء واختفى بين الحشود. في بعض الأحيان، حتَّى الآن، أعتقد أنَّني أراه عندما أرى شخصاً يمرّ من أمامي لابساً بدلة أو معطفاً. يخيّل إليّ أنَّه المصوّر الضخم يمضي مسرعاً ويصل إلى بيته الحقيقيّ. يضع كاميرته المعطَّلة ويفتح غرفة التحميض حيث تقبع الذكريات الذهبيَّة لكلّ الصور التي لم يلتقطها. وهناك، نحن نقبع مبتسمين ومتّحدين كما لم نكن من قبل.

١٧. أمّي وبيان السورياليَّة

ربَّما كانت الدّوائر متّحدة المركز أوّل الكتابات التي ظهرت في غاليسيا إلى جانب المتاهات. وأقول كتابات، لأنَّها، بلا شكّ، رموزٌ تروي قصَّة حجر صوانٍ مثقوب في دفتر العراء المفتوح على الغرانيت. هل هي تقويم فلكيّ، تضاريس، أو نقوش روحانيَّة؟ لا يزال علماء الآثار يتجادلون حول معنى تلك النقوش الحجريَّة التي ترجع إلى ما يسمّى عصور ما قبل التاريخ البشريّ، غير أنَّها تشكّل جزءاً أساساً في مسار التاريخ. ما يمكننا قوله، بكلِّ تأكيد، إنَّ مؤلّفي تلك النقوش هم خطّاطون بارعون، بمعنى أنَّ لديهم نبضاً دقيقاً و«خطاً جميلاً». ناهيك عن إرادة ومهارة في الأسلوب وإتقان في الخطّ يتحوَّل عبره الجمال إلى بساطة نقيَّة تحتوي معلومات هائلة بالنسبة إلينا. وهكذا هو فم أمّي.

لا يمكنني أن أكرِّر مقاطع من مناجاة والدتي لنفسها- طبعاً كانت تتحدَّث إلى نفسها عندما تكون وحيدة أو في حضور واحد من أبنائها يُفترض أنَّه غارق في عوالمه الخاصَّة، تماماً مثلي أنا وماريا مع واجباتنا المدرسيَّة. إنّما، بين حين وآخر، كان صدى تيّار الوعي لدى أمّي يتصاعد أو يسرِّع من ذبذبته، إلى درجة تضاعفه أو تعدّده في أصوات مختلفة، في كثير من الأحيان، تتشاجر فيما بينها بشراسة. حدث ذلك كثيراً أنّى يمكن تسميته أماكن المياه، أي في مكان غسل الأطباق في المطبخ، وفي المكان المخصّص لغسل الملابس، سواء ذلك الذي يتشاركه الجيران أم عند تلك البقعة التي تمكّن أبي من بنائها إلى

جانب البئر المتقلّبة التي راح أبي يحفرها عاماً بعد عام بحثاً عن المياه. حينما تجفّ البئر كان أبي يعاود حفرها كلّ صيف، إلى أن وجد واحداً من تلك «الينابيع الكاذبة» التي خدعته وجعلته يأمل من دون جدوى. وهكذا حتّى وصل إلى خمسة عشر متراً من العمق مختفياً في ظلام البئر، ومعتقداً أنّه وصل إلى قعرها. إلّا أنّه، في الحقيقة، كان قد لامس منطقة زهايمر الماء. إنَّ قصَّة تلك البئر هي قصَّة الفشل، إذ لم تكن إلَّا فراغاً فحسب. لطالما اقتربت منه بحزن وضغينة، لكنّني الآن أراه بمنزلة ثغر لا ينطق إلّا الأدب. وها هو ذا أبي يحفر بصمت، أو يفجّر الحجارة واللغة بحثاً عن تيّاره.

اعتادت أمّي أن تناجي نفسها بقلق بالقرب من ماسورة المطبخ، ولا سيّما عندما تقوم بتلك الحركة البهلوانيَّة بيديها في أثناء غسل الأواني، أو عندما تغسل في ماء النهر. كانت تهمس، تبوح لنفسها بالأسرار ثمَّ تجيب بغضب عن بعض الترّهات أو عن أحد الأسئلة. بدا مثيراً، في كثير من الأحيان، معرفة من كان محاورها. كانت ثمَّة حالتان تغيّران أمّي عضويّاً؛ حالتان مختلفتان تماماً، واحدة منهما هي الغضب الناتج عن الظلم. عموماً لم تكن أمّي عنيفة قطّ، بل هادئة ومهذّبة وودوداً جدّاً في أثناء الحديث مع الآخرين. إلّا أنّني كذلك أتذكّرها في مكتب البلديَّة مستاءة من المعاملة غير اللائقة مقسمة أنّها ستعود إلى المكتب ومعها حجر تحطّم به كلّ شيء.

وها هي ذي والدتي تتحدَّث إلى نفسها. وجهها يتغيّر، تغضب، ثمَّ تضحك ويعود البريق إلى عينيها. تلمعان وتبرقان ثمَّ تثبتان معلّقتين كالغيوم. كلّ ذلك يرتبط بالكلمات. ثمّة أمر ما يحدث في المطبخ. أرفع ناظري عن الدفتر أو الكتاب وأنظر إليها قلقاً ودهشاً في آن معاً دون أن أتجرَّأ على مقاطعتها. إن أثلجت صدرها بتلك الطريقة، فلأنّها مع أشخاص

تثق بهم. لا يمكنني أن أتذكَّر ما كانت تقوله، ربَّما لأنّي كنت أكثر انتباهاً إلى ظاهرة التعبير ممَّا عبَّرت عنه. أتذكَّر، بشكل متقطّع، بعض الكلمات التي تهتزّ بحركات دائريَّة، ذهاباً وإيّاباً، تماماً كخيطان الحياكة.

كانت أمّي جسداً مفتوحاً. لطالما حملت معها، وبشكل علنيّ، تيّار الوعي. كانت تتكلَّم، وفي داخلها يتكلَّم آخرون، يا تُرى مَن كانوا؟ في مسرحيَّة «في انتظار غودو» لصاموئيل بيكيت ثمَّة لحظة يسمع فيها كلٌّ من فلاديمير وإستراجون أصوات الموتى المنخفضة. أصواتهم مثل أصوات الأجنحة، مثل أوراق الشجر، مثل الرّمل؛ يهمسون، يصرصرون ويحفحفون.

- فلاديمير: الموت ليس كافياً لهنّ!

- إستراجون: لا، ليس كافياً.

«لا، ليس كافياً. لماذا عاد خوان بريثيادو إلى كومالا؟ لأنَّ أمَّه جعلته يعيدها. نعم، كي يطالب بإرث والده، إرث بارامو. إنَّما، ما كان ذلك الإرث؟ تصف الأمّ المكان الذي ترسل إليه ابنها: هناك حيث يغيّر الهواء لون الأشياء حوله، حيث تنسم الحياة كما لو كانت أنَّها نفحة، كما لو أنَّها مجرَّد نفحة حياة نقيَّة. وعلى الرَّغم من أنَّ كامولا مكانٌ مقفر، إلَّا أنَّها لم تكن مكاناً لا على التعيين، بل على العكس كانت المكان الأكثر إنسانيَّة تماماً، تماماً مثل غرفة التحوّلات، التحوّلات الإنسانيَّة، الغرفة التي تكون فيها حيّاً أو ميتاً. كلّا، ليس كافياً».

نحن لا نعرف جيّداً ما هو الأدب، لكنَّنا نستطيع أن نستشعر بالأفواه الأدبيَّة، سواء في الكتب أم في الحياة. ذلك الفوه الذي نادراً ما يحذّر الآخرين قبل أن ينبس بكلمة. من همسة واحدة. حتّى إنّها يمكن أن تكون مغلقة أو

مجروجة لكنَّنا نشعر كيف تحتشد الكلمات في داخلها. يمكن أن تكون أفواهاً ملتوية، محمرَّة الشفاه، شهوانيَّة ومتشقِّقة. وقد تكون أفواهاً فاضحة، شبقة، غامضة، بذيئة اللسان ومتلعثمة. ومن غير المسموح لها أن تفرض سيطرتها، إذ عادة ما تكون أفواهاً شاذَّة، سواء كانت وحيدة أم مع حشد من الناس، تراها تتحدَّث وحيدةً. حركتها الداخليَّة تشبه رقص الأجساد التي تتمدَّد وتتقلَّص في خضمِّ الدوران. تسمعها وهي تنشد قصيدة الشاعرة روساليا دي كاسترو:

من تلك الحركات

التي تفعلها الآن،

خارجة نحو الداخل

داخلة نحو الخارج.

كان لديَّ منذ زمن طويل صديق من وادي سونيرا اسمه روبيرتو موثو. كان عاشقاً مولعاً بالمخطوطات والطروس. ذات مرَّة أعطاني سلسلة من نسخ ورقيَّة لنقوش «كوستا دي لا مورتي» الحجريَّة تظهر فيها مجموعة من الدوائر متَّحدة المركز. راحت تلك النقوش الحجريَّة التي تركتها على طاولة العمل، لمدَّة طويلة، تلتفّ وتدور حولي، لكن بشكل غير مرئيّ. وفي أحد الأيام كان عليَّ أن أجيب عن أحد تلك الأسئلة حول الحدود الموجودة بين الواقع والخيال، الذاكرة والإبداع. حقيقةً، ندمت فيما بعد لأنَّني لم أكن راضياً عن إجابتي. غير أنَّ الدوائر متَّحدة المركز كانت هناك. ومهما كان معناها بالنسبة إلى الخبراء والمختصين وعلماء الآثار والخطّ، فقد همست لي وأجابتني عن ماهيَّة الواقع وطرائق النظر إليه. فالواقع ليس إلّا دائرةً واحدة

من دوائر الواقع. فكم هو سخيفٌ ذلك الجزء من الواقع الذي نعتقد أنّه الحاضر الدبق! لقد ضمَّ مجال الرؤية الواسع الذي أظهرته الدوائرُ المشاعرَ الخارجيّة والداخليّة، الذاكرة والخيال. في سلسلة لوحات «**كوارث الحرب**»، وضع غويا على إحدى لوحاته عنوان «**ممنوع النظر**». في طفولتنا كان شعار الخوف: «ممنوع الكلام» أو هذه خطيئة.

أمّا فم والدتي فكان يقول ما لا يمكن قوله. لقد بدا خطيئةً.

النقطة التي يبدأ فيها النقش الحجريّ في التوسُّع والامتداد، هي النقطة نفسها التي يبدأ فيها فم والدتي في الحديث إلى نفسه. هناك حيث يتخمّر، بقلق، بين اكتشاف وغموض في آن معاً. كان ذلك النقش الحجريّ للدوائر متّحدة المركز يأخذني إلى مكان آخر خاصّ، لا يمكن التنبّؤ به، مكان خارج إطار الزمن، تماماً مثل طريق كاسترو الأعمى، ومثل ذلك المكان المشار إليه في بيان السورياليّة «كلّ شيء يدفع إلى اليقين بأنَّ ثمَّة نقطة ما لا تناقض فيها بين الحياة والموت، الواقع والخيال، ما يمكن إيصاله وما لا يمكن، الأعلى والأسفل. ومن العبث البحث عن دافع آخر للفاعليّة السورياليّة غير الأمل بتحديد هذه النقطة».

إنَّ مصدر الطاقة، الذي يحرِّك هذا الأمل، هو ما ليس كافياً. إنَّه ذلك الزحف المتزامن للرغبة والألم. تماماً على غرار شخصيّة تشارلي المتشرِّد الذي يتّكل تارة على الرغبة وتارةً أخرى على الألم. الأفلام الأولى التي شاهدناها كانت في سينما هرقل في المونتي آلتو. الجميع متوجِّسون في الغرفة المظلمة. قلَّد جميع الحاضرين زئير شارة العلامة التجاريّة للأسد ليو كما لو أنَّها انفراجٌ. إنّما قبل هذا، شاهدنا رأس شخص ما عكسه ضوء المصباح

الأماميّ الذي أطلق وميضاً مشعّاً صوب الشاشة. كنت صغيراً حينها. لا تسعفني الذاكرة إلّا في تذكّر بعض اللقطات من فيلمَي «طرزان» و«المتشرّد تشارلي». كانت أختي ماريا، في صغرها، تمشي شارع توررري صاعدة إلى الأعلى مثل تشارلي. تلك الطريقة في المشي تنشّط المشاعر وتصل الخيال بالذاكرة. لقد تعرَّفت ذلك الفم في الصغر. إلّا أنّني لم أكن أعرف أنّه كان مُلهماً للنقش الحجريّ الغامض للدوائر متَّحدة المركز، ولا أنّه موصوف على ذلك النحو في بيان السورياليَّة.

في ذلك الوقت، لم يكن ذلك كلّه سوى فم أمّي وهو يتكلَّم وحده!

١٨. عاملُ الزجاج في الليل الطويل

كان الكتاب غير المدرسيّ الأول، الذي دخل منزلنا، عبارة عن عملٍ أثريّ بامتياز. كان قطعة بلاط حقيقةً؛ أولاً، بسبب عنوانه «خمسة آلاف سنة من التاريخ»؛ ثانياً، بسبب حجمه وثخانته. يمكن عدُّه واحداً من تلك الأعمال الّتي تترك فيك أثراً لا يُنسى، ولا سيّما إذا ما سقط فوقك. اشترته أمّي كارمينيا من مكتبة لا بويسيا في شارع سان أندريس. كنّا قد ذهبنا معها إلى المدينة وحملنا ذلك الكتاب على أكتافنا كأنّنا في موكب. كانت خمسة آلاف سنة من التاريخ فوق أكتاف البشريَّة، ثقلاً تاريخيّاً حملناه بمزيج من الاحترام والسعادة، ولا سيّما مع الظروف الّتي رافقت عمليَّة شرائه. كان يوم «كارمن»، عذراء البحر، ورغبنا في شراء هديَّة لأمّي. عادةً ما تتعلَّق الهدايا النمطيّة للأمّهات بأعمال المنزل، وحقيقةً لم تكن هدايا، بل مجرّد أدوات يستخدمنها كي يعملن أكثر. فكَّرنا في أن نشتري لأمّي ماكينة قهوة، ماكينة قهوة إيطاليّة للعذراء كارمن، لكنّها أخذتنا إلى لا بويسيا، وقالت: «لا أريد أيَّ ماكينة قهوة، ستشترون لي كتاباً، كتاباً حقيقيّاً».

كانت أمّي، منذ صغرها، قارئة سريَّة سعيدة، وقد حفظت قصائد روساليا دي كاسترو عن ظهر قلب، على الرّغم من أنَّ قصيدتها المفضَّلة التي تجعل فمها يرتجف، هي رثاء جنائزيّ أهداه كورروس إلى كاتبة «أوراق جديدة»، وهي الترتيلة الجنائزيّة الأشدّ قسوة في تاريخ غاليسيا، حيث تقول «ماذا عن أولئك الذين يحملون على جباههم نجمة، وعلى شفاههم

أنشودة؟ قصيدة تختصر قصَّة كاملة كحبكة «مسلسل درامي»، حيث يجري التهام جسد إلهة الأرض الأمّ من قبل رفاقها: «ربَّة الأرض رأيتها تمرُّ من أمامي، أكلتها الذئاب ومضت. وهذه الأرض عظامها التي سنحتفظ بها». كنّا لا نزال نعيش فصلاً من فصول الدهشة، مع روساليا «المخطوفة» مثل كاستيلاو، من الكنيسة التي استولت على مقبرة «الغاليسيين الشهيرين». إنَّ القبر الّذي يرقد فيه جثمان روساليا، وكما أرادته، موجود في مقبرة أدينا في بادرون، وهي مقبرة «كاستيلاو»، أرض المنفى «لاتنشاكاريتا» في بونس أيريس، المقبرة التي يوجد فيها أكثر أعشاش طيور في العالم.

في الحقيقة، كانت أمّي قد قرأت كثيراً من الكتب في طفولتها، ولا سيَّما تلك التي تتناول حياة القدّيسين، الذين اختبؤوا في السقيفة المظلمة لبيت الكاهن في كوربو سانتو. كانت ابنة أخ الكاهن، السيّدة إيزابيل، قد شعرت بالعطف على تلك الطفلة فتبنَّتها بشكل أو بآخر. تقدّم رجل إلى السيّدة إيزابيل وأهداها ببغاء، فأطلقت عليه اسم بيو نونو، وعلَّمته بعض الكلمات اللاتينيّة. إلّا أنَّ الببغاء غيَّر لغته حالما سمع لغة البشر، حتَّى إنَّه تمكَّن من تعلُّم شتيمات رائعة، وكان هذا ما دمَّره، إذ حُبس في قفص ولم يُسمح لأحد بزيارته عدا والدتي، كارمينيا، التي استغلَّت حبَّ إيزابيل لها كي تختفي في سقيفة المنزل، هناك حيث نسيتْ مفهوم الزمن برفقة الكتب، والمتَّهم بيو نونو.

لم يكن في بيتنا كتب، لكنَّنا سرعان ما لاحظنا أنَّ البيت راح يطلب إلينا ذلك. كان في حاجة إليها. أوّل شيء فعله أبي، عندما استقررنا في كاسترو، أنَّه اشترك في جريدة محليَّة هي «**صوت غاليسيا**». كانت الجريدة في أوجها آنذاك، ولا سيّما بإدارة بيدرو دي يانو بوثيلو، ومن ثمَّ فرانثيسكو بيادو. كان

بوثيلو شخصيّة شعبيّة، وقلّما تجد صحافيّاً بتلك الصفة في لا كورونيا، علاوة على ذلك، كان ملتزماً بالنظر إلى صحافيّ في زمنه. كانت أمّي تقرأ كتاباته بكلّ حماس، على وجه التحديد حملات التضامن مع المحتاجين. لقد تحقّقت مقولة برتولد بريخت على أيدي والديَّ: الجرائد هي كتاب العمّال. اعتاد أبي أن يقرأ الجريدة بتأنٍّ، صفحة في إثر صفحة، كأنَّ الأمر أشبه بطقس. الصفحة الوحيدة التي اعتاد تخطّيها هي صفحة الرياضة، فكرهه لكرة القدم جعله يصرخ مرَّة من شدَّة انزعاجه «لتحيا روسيا»، وذلك في أثناء مباراتها مع المنتخب الإسبانيّ.

في صباحات أيّام الأحد، اعتاد شابّ أن يصعد صخرة الوقواق متَّجهاً إلى جبل لا ثاباتيريا عبر طرقٍ سريّة في الغابة، حاملاً كتاباً بيده. اسمه تشاو، ابن السيّد باي باي والسيّدة فيليسا. كان يعمل في تركيب الزجاج، وفي كلّ مرَّة يمرُّ يحيّينا ويمضي ذاهباً في طريقه نحو المجهول. لطالما أدهشنا، أنا وماريا، ما يحمله في يديه، ذلك المخلوق الورقيّ الغامض.

في صباح يوم شتويّ، وعلى طريق المدرسة، أخبرني دومينغوس، صديقي الذي يكبرني عمراً، أنَّ تشاو قد سُجن. كان بيت دومينغوس مجاوراً لبيت عامل الزجاج، وشاهد كيف جاء رجال الشرطة السريّة بسيّارتهم وألقوا القبض عليه بعد أن قلبوا المنزل رأساً على عقب، في حين كانت أمّه تبكي. لقد ألقوا القبض على تشاو. ألقوا القبض عليه؟ لكن لماذا؟ ماذا فعل؟ عندئذ، نظر دومينغوس حوله وقال لي، بصوت مرتعش، جملةً أبقتني متسمّراً حتّى في أعماقي: «لا يمكننا الحديث عن ذلك». يا تُرى، ما تلك الفعلة الشنعاء الّتي افتعلها تشاو، إلى درجة أنّنا لا يمكننا الحديث عنها؟ يا تُرى، ماذا فعل ذلك الشابّ المرح، الّذي كان يمزح دائماً ويتنكّر في

المهرجانات ويصرخ في الحانات «من أجل لحية دوستويفسكي»، وغيرها من الجمل غير المفهومة في أثناء لعب الورق؟ يا تُرى، ماذا فعل مُنَزّه الكتب عبر الجبال؟

كان ذلك عام ١٩٦٤، عندما ظهرت في الجريدة، كما في جرائد أخرى، الصورة الّتي نشرتها الشرطة السياسيّة الاجتماعيّة لمانويل بيرموديث، أو الملقّب بتشاو، بوجه مشوّه كأنّه قاطع طريق. في الحقيقة، كان تشاو، الّذي عمل منذ الثالثة عشرة من عمره في مصنع غرافيت أوّلاً ومن ثمَّ في الزجاج، مناضلاً ضدَّ نظام فرانكو منذ أعوام، تحديداً منذ سنة ١٩٥٩م. لم يتساهل حتّى في أسلوبه في الكلام، وقد عبَّر عن ذلك أكثر من مرَّة، ولا سيّما في الكرنفالات. لقد كان يجيد ما يمكن أن نطلق عليه اسم السرياليَّة الشعبيَّة.

تعرَّف ذات يوم، في حانة لوس بيليس في مونيلوس، إلى غيرمي. قال له غيرمي: «لا تتكلَّم بصوت مرتفع! اخفض صوتك، فهناك أشياء أخرى يمكن عملها». كان غيرمي قد وصل لتوّه من فرنسا وأحضر معه صحفاً سريَّة، مثل «**عالم العمَّال**». وهكذا، معاً على درَّاجة غوزي الناريَّة، راحا يوزّعان الجريدة بين الأحياء والقرى. استطاع الشابَّانِ بتلك الدرَّاجة الناريَّة الهرب من أنظار كلّ من يراهما، واستمرَّ هذا الأمر لسنوات عدَّة. عاش تشاو ذلك كلَّه بخوفٍ وحماس. كان هناك كثير من عدم المبالاة والشكّ، لكن، في أكثر الأماكن غير المتوقّعة والمنعزلة، كانت هناك يد في الليل تترقَّب وتنتظر بفارغ الصبر تلك الأوراق السريَّة.

في سجن كورونيا، نظّمت مجموعة من السجناء السياسيين نوعاً من مدرسة سريَّة حرَّة مفتوحة للجميع. وفي أحد الأيام، قرأ تشاو قصاصة من إحدى الصحف، كُتب فيها: جرى إلقاء القبض على سارق خطر، سوسو

ألاكران، الّذي أراد سرقة ملكيّة خاصّة. وفي اليوم التالي، دخل ألاكران السجن. هكذا رحَّبوا به في السجن وفق طريقتهم، ولم يتأخَّر ألاكران في الالتحاق بالمدرسة المرتجلة.

كان رجلاً ذا شخصيّة تغلب عليها البراءة. سأله تشاو: «لماذا أنت هنا، سوسينيو؟» شرح له: «هذه المرَّة لأنّي سرقت سماداً». بدا التشبيه مدهشاً لتشاو، السارق الخطر في السجن، لأنّه سرق عربة من السماد. ثمَّ أضاف ألاكران: «ما لم أقله لرجال الشرطة هو أنَّ بحوزتي كنزاً مخفياً». لقد سرق السماد كي يخبِّئ الكنز، حسب ما أخبرني. كان شخصاً محبوباً. لم تتحوّل قضيّته إلى المحكمة، لذلك أُفرج عنه، أو كما يُقال، ألقوا به خارجاً. وبينما كان يودّع طلَّاب المدرسة السريّة، بكى رجل الكنز بحرقة: «كنت سعيداً هنا! فأنتم تعرضون السجائر على الجميع وأكثر». تعامل تشاو أيضاً في السجن مع بعض المحتالين ذوي الياقات البيض، الذين صنعوا ثروة بحيلهم في البنك الأمريكي - اللاتينيّ. كانوا أرجنتينيين، يشبهون بعضهم، علاوة على كونهم وسيمين للغاية. في السجن، اعتادوا أن يُحضروا الطعام لهم من مطاعم فخمة مع كثير من المأكولات البحريّة. كانوا يتناقشون حول الظلم الطاغي على النظام الاقتصاديّ، في حين يتلذَّذون بأشهى وأثمن المأكولات البحريَّة. مرَّةً، في أثناء وليمة بحريّة شهيّة، قالوا لتشاو، الّذي حاول أن يشرح لهم تحالف القوى بين العمل والثقافة: «أنتم أغبياء بعض الشيء. نحن نحارب الرأسماليّة!»

بعد أن خرج تشاو من السجن، عدنا لنراه عند طريق الجبل أيّام الأحد حاملاً كتابه. لم نتأخَّر، أنا وماريا، في اللحاق به. كان الكتاب بعنوان «الليل صخريّ طويل» لثيلسو إميليو فيرريرو. ذلك اليوم، وبفضل عامل

الزجاج الشابّ، تمكّنا من رؤية الكلمات الجريحة تخرج من تحت الحجارة. في حالات الطوارئ أو الإضراب أو حملات الاعتقال، اعتاد تشاو الاختباء، إذ إنّه قال أكثر من مرّة إنّه لن ينتظر في السرير كي يلقوا القبض عليه من جديد. كنّا، أنا وماريا، نذهب أحياناً إلى كهف يستخرجون منه الطين، ونملأ دلواً نحملها معنا لتصنع ماريا أشكالاً من الطين. كان من الصعب على من يجهل مكان الكهف أن يجده، إذ كان فمه ضيّقاً ومغطىً بأوراق السرخس. كم كان جميلاً الوجود داخل ذلك الكهف والنظر إلى فم الضوء المتلعثم، واستشعار نفحات الهواء المنعشة من داخل الأرض! كان الكهف من الداخل مظلماً ورطباً، وقد امتزج برائحة الطين المعتّق المضياف. عثرنا في أحد الأيّام على بطانية منقوشة مطويّة في إحدى الزوايا. خُبّئ فيها كتاب من تلك الكتب الّتي تخبرك بمحتواها ما إن تقرأ صفحة واحدة منه: كتاب **«الإخوة كارامازوف»**.

كان ذلك المكان غرفة للإنسانيّة، وكهفاً للّجوء.

لم نخبر أحداً بها رأينا قطّ، ولا حتّى أمّنا الّتي كانت تطلب إلينا أن نأخذ الحليب والخبز في أثناء تنزّهنا الغامض. لم نخبر تشاو كذلك. من أجل لحية دوستويفسكي!

١٩. هراقليطس وبارمينيدس والمدرسة المختلطة

كنَّا نقف عند المقاعد المخمليَّة الرثَّة في سينما مونيلوس ونرقص كالمجانين على ألحان أغنية «فتيان مع فتيات». وكانت هذه الأغنية لفرقة البرابوس الأساس الذي قام عليه فيلم سينمائيّ شهير في نهاية الستينيَّات. أمَّا نحن، فقد كانت لدينا أسبابنا الخاصَّة لترديد كورس الأغنية: «الفتيان مع الفتيات يجب أن يوجدوا معاً! هيّا نعِشْ، هيَّا...!»

مدرسة مونيلوس الإعداديَّة هي أوَّل مدرسة مختلطة في غاليسيا. تقع في حيّ مجاور حيث كانت كتل الإسكان الاجتماعيّ الجديدة تحدُّ مزارع الذرة. كانت مدرسة ثورة وجنون. في بعض الأحيان، كان طلَّاب من مدارس دينيّة خاصّة يأتون إلينا كي يحضروا ذلك العرض: مشاهدة الفتيات والفتيان يخرجون مع بعضهم بعضاً من الصفوف. الفتيان بسراويلهم العريضة من الأسفل، والفتيات بأوّل التنانير القصيرة. كان الشعور مثيراً لمجرّد وجودنا معاً، ذلك اللهب الّذي يرافق قدرتنا على تبادل النظرات، في حين يشرح الأستاذ كايرو جدل التاريخ كلّه. إمَّا أن تكون بارمينيدس، حيث كلّ شيء باقٍ، وإمّا أن تكون هراقليطس، حيث كلّ شيء يتّخذ مجراه، ومن المستحيل أن نغتسل في النهر نفسه مرّتين.

هراقليطس على حقّ، وفقاً لكايرو، كذلك الأمر لدى بارمينيدس.

إلى النهر يا فتاة، ولنغتسل معاً! لنستمرَّ ونبقى، لنفيض معاً. لقد قال الكلاسيكيون كلَّ شيء تقريباً.

كلّ يوم، كنت أذهب ركضاً، وبرغبة عارمة إلى المدرسة، بقدميَّ ورأسي. أنزل إلى القرية مشياً حتّى إلبينيا، قاطعاً، بأسلوب الفيت كونغ، الجادَّة الّتي كانوا يسمّونها «هو تشي مينه» بسبب كثرة الأشخاص الّذين يموتون عندها في حوادث سير، إلى أن تمكّنوا من إنشاء رصيف للمشاة. كان أحد أولئك الموتى مانويل دي كوربو سانتو، الكاتب الجدّ. لم تقتل الحرب ذلك الرجل العابر، بل قتلته سيّارة مجهولة هرب سائقها عند الجادَّة، وبقي مانويل هناك، سقط على وجهه عند غروب الشمس. كنت كلّ يوم أركض مجتازاً تلك الحدود الملغومة، ثمَّ أجتاز عبر الغابة بحراً من نبات الشيلم، ثمَّ طريق السكَّة الحديديَّة حتّى وصولي إلى حيّ لاس فلوريس، حيث يوجد مجمَّع للسكن الاجتماعيّ، يستحقّ بكلّ تأكيد أن يُطلَق عليه ذلك الاسم: حيّ الورود. كانت الأبنية ثمرة خيال معماريّ أراد صنَّاعه إنشاءها بطريقة مميّزة تختلف عن النمط الّذي تمتَّعت به أبنية الأحياء الأخرى الجديدة، الّتي اتّخذت شكل السجون. لم تكن المدرسة الإعداديّة مجرّد هدف رائع للفتيان كي يسترقوا النظر إلى الفتيات فحسب، بل مركزاً يجذب الشبَّان بمختلف توجّهاتهم. كانت زمرة الشياطين الحمر الأكثر شهرة. يأتون المدرسة، لا من أجل الشجار فحسب بل التسلية أيضاً، إذ اعتادوا أن يحضروا معهم مذياعاً ومكبّر صوت، فتتحوّل باحة المدرسة إلى حفلة للرقص والغناء. بطريقة ما، كانوا ينتمون إلى المدرسة، وجب عليهم أن يكونوا طلّاباً ولكنَّهم ما كانوا كذلك، على الرّغم من أنَّهم كانوا موجودين خارج المدرسة وداخلها في آنٍ معاً. ولطالما لفت انتباهي التسلسل

الهرميّ القائم في تلك الزمرة، فالقيادة فيها لم تكن على أساس القوَّة. واحدٌ من أولئك القادة هو شابٌّ ذو قامة قصيرة بوزن ذبابة ونظرة مخيفة، يلقّبونه بالصينيّ. يُفضّل عدم النظر إليه، إذ ما إن تفعل ذلك حتّى تشعر، فجأة، بحدّ الموسى يلامس رقبتك من الخلف: «هيه أنت، نعم أنت، إلامَ تنظر؟» كان زعيم الزمرة، بسبب صلابته ودعم مجموعته له. اعتاد أن يحمل في جيب معطفه مجموعة من مفكّات البراغي. وكان هناك أيضاً قائد آخر من نوع مختلف، أثارت شخصيّته المميّزة إعجاب أجمل الفتيات. اسمه ميغيل، وعُرف أيضاً بلقب «بالابينيو». اتَّسم ميغيل بنحافته، وبشرته الزيتيّة، وبشعره قاتم السواد، إضافة إلى ابتسامته. كان وصوله إلى مكانٍ ما أشبه بظهور مقدَّس. بإدراكه لوسامته كان يثير بلبلة فوريَّةً، مازجاً بين التوقّعات واليقظة. هل هذا هو؟ نعم، إنَّه هو! حقّاً إنَّ الآلهة تعاقب من تختار، والحياة شديدة القساوة حتّى مع من هم قساة. إنّها مرآة ممتلئة بالندبات.

كنت أذهب ركضاً إلى المدرسة، حتّى في أيّام الأحد، عندما تكون مفتوحة. قضيت سبع سنوات في المدرسة الإعداديَّة المختلطة، وستّ سنوات في الثانويّة، وسنة واحدة في التوجيه الجامعيّ. تموضعت المدرسة عند سفح الجبل بين الحقول والأراضي الزراعيَّة، بالقرب من كنيسة أوزا القديمة. كان البناء في السنوات الأولى أفضل من الحظيرة بقليل، له جدران وسقف خفيف الوزن، وقد بدا أشبه بجناح مؤقّت صامد في وجه العواصف بشجاعة. إنّما، ماذا عن هراقليطس وبارمينيدس والفتاة الّتي تغتسل في النهر؟

كانت الدراسة لدينا مغامرة خطِرة بعض الشيء، أقصد لنا أنا وماريا. وقد شجّعنا على ذلك معلّما المدرسة الابتدائيّة، السيّد أنطونيو والسيّدة فينا.

غير أنَّ الأمر أثّر في أسرتنا، وأدَّى إلى تفريقها بين مؤيّد ومعارض، ففي عالمنا كان من غير المعتاد أن يتابع أطفال أسرة من الطبقة العاملة دراساتهم بعد المدرسة الابتدائيَّة. لم يكن أبي متحمّساً كثيراً للأمر. أنا أفهمه الآن. كان يراني أكثر في العمل معه في البناء، أمَّا ماريا فقد عثر لها على عمل كبائعة في متجر أحذية. ليس الأمر سيّئاً، أليس كذلك؟ ذهبت ماريا لأسبوعين كفترة تجربة، وذات يوم عادت من العمل وقالت: «لن أذهب بعد اليوم، أريد أن أدرس». وماريا حاسمة عندما تكون أفكارها واضحة. هكذا حزمت أمرها، وتابعنا دراستنا. سجّلت ماريا في مدرسة لا ميلاغروسا الثانويّة، وهو مركز حكوميّ مرتبط بدار أيتام المفوضيَّة. في الثانويَّة فازت ماريا بمسابقة كتابة رعتها شركة دوليَّة، شاركت فيها جميع المراكز التعليميَّة العامَّة والخاصَّة. اجتازت، أوّلاً، المستوى المحليّ، لا كورونيا، ثمَّ على مستوى إسبانيا بأكملها. تضمَّنت الجائزة رحلة إلى بويرتو ريكو. تصدَّر عناوين الصحف خبر ابنة عامل البناء الّتي فازت بالجائزة الوطنيّة للكتابة. كانت القصَّة الّتي كتبتها ماريا، وهي في الرابعة عشرة من عمرها، نصّاً غريباً مكتوباً بإحساس شخص ليس له جلد، لكنّه يشعر بكلّ شيء، ويتحمَّل الضربات من أجل إكمال قصّته. حياة الشجرة، وحياة الأشخاص المحيطين بها، ثمَّ اقتلاعها، ورحلتها الطويلة في شاحنة إلى المنشرة حيث ستقطع أخشابها. إنَّه نوع من الكتابة الّتي تحرّضك على أن تسأل: كيف تتمّ هذه العمليّة كلّها في وقت قصير؟ بعد سنة من تسلّمها الجائزة، تخلَّصت ماريا من كلِّ الجوائز الّتي تلقَّتها من الشركات العالميّة، من وزارة التعليم ومن منظّمات أخرى. تخلَّصت من كلّ شيء ما عدا بعض أقراص الموسيقا البويرتوريكيّة وكتاب الأعمال الشعريَّة الكاملة لطاغور. حرقت كلّ شيء

في الحديقة أمام أمّي الصامتة. كانت تعلم أنّ الحريّة مؤلمة كذلك. وفي داخلها كانت ماريا تكبر كامرأة حرّة بعينين كبيرتين واسعتين. أتذكّر أنّها لم تتوقّف عن البكاء يوم الانقلاب العسكريّ في تشيلي وموت سالفادور أليندي. كان هناك من عرف سبب بكاء ماريا، وآخرون لم يعرفوا، فسألوا: «لماذا تبكي هذه الفتاة؟» وأمّي بقيت صامتة.

كان لدينا أصدقاء مشتركون نلتقيهم في الطريق، فقد درسوا جميعاً في مونيلوس، مكان الدراسة والرغبة في آن معاً، مكان الشهوانيّة. اليوم يتحدّثون عن التناقض بين المكان واللامكان. هناك أيضاً المكان الآخر، حيث تولد حياة جديدة ويحدث شيء ما هناك: توافق سيكومكاني، هيئة تدريس خاصّة، وجيل من تلعثم متمرّد أراد أن يقول ما لا يمكن قوله.

في أحد أيّام السبت، طلبنا مكاناً يجري استخدامه كصالة من أجل القيام بنشاط ما ينظّمه الطلّاب. كانت المجموعة الأكثر شجاعة في مدرسة مونيلوس تتألّف من ثيلسا وخوانا وتشوكي ولوثيانو، وهم من قرؤوا قصيدة بريخت. من الممكن أن نطلق على ذلك اليوم شعار: «غرق سفينة أوسكافا بسبب طاقمها». كثيرون هم الّذين استمعوا للمرّة الأولى إلى أغاني «الأصوات الحرّة»، الّتي كان ممنوعاً الاستماع إليها في أيّ مكان عامّ آخر. مثّلنا مسرحيّة **«تعاليم الفلاّحين»** لفالنتين لاماس، ومسرحيّة **«العمّ ماركوس دي بورتيلا»**، وهو صحافيّ أعمى متمرّد، كتبها في أواخر القرن التاسع عشر.

- هل أنت فلّاح؟

- نعم، لسوء حظي!

من سأل وقام بدور الكاهن هو بيدرو مورلان. وأنا مثّلت دور المزارع. ربَّما مثّل مورلان دور الكاهن بشكل رائع، وقد ساعده في ذلك شكله، بحسبان أنَّه شابٌّ شاحبٌ، طويلٌ ونحيل ومتمرّد. كان المثل الأعلى، حلم الثوار القائم على الأرض. وثمَّة معلّمون محافظون، هم أنفسهم غريبو الأطوار. حتَّى إنَّ الكهنة انتموا إلى الجانب الأحمر، أوّلهم السيّد ماوريليو، ورودريغيث بامبين، الكاهن الذي انضمَّ إليهم فيما بعد، وقد كان شخصاً خجولاً، دائم القلق والتفكير، كأنَّه يحمل ثقل العالم وأحجاره كلّها على كاهله.

أمَّا الكاهن الثاني، فكان عكس الأوّل تماماً، أقصد ماوريليو؛ هو رجل صغير الحجم، بارز العضلات ونشيط. بدا وكأنَّ جسده بأكمله يعمل من أجل صوته كي يحافظ على نبرته، ولا سيّما في أثناء الدروس التعليميَّة أو الواعظة، الّتي تتطلَّب رزانةً معيَّنةً. بفضل هذا الكاهن الّذي كان ابن مزارعين من قشتالة، عرفنا، ونحن في الرابعة عشرة من أعمارنا، مَن هو هيلدر كامارا، الأسقف البرازيليّ من أوليندا، الذي ناصر لاهوت التحرير، إضافة إلى إرنيستو كاردينال أو كاميلو تورريس، الكاهن المحارب الكولومبيّ. علّمنا أيضاً مفاهيم أساسيَّة مثل مدرسة التحليل النفسيّ. تعلَّمنا أموراً جوهريَّة، وصار بإمكاننا قراءة الإنجيل، وفهمنا جيّداً أنَّ المسيح إن عاد فسيُصلب مرَّة أخرى على الفور. كان لا بدَّ من رؤية مواكب أسبوع الآلام، ومشاهدة الكاهن ماوريليو وهو يبيّن فكرة وجود الله، بدءاً من الفيلسوف الملحد ألتوسير، الّذي حظي بشعبيَّة كبيرة فكريّاً في ذلك. لقد كان عرضاً رائعاً. وأقول رؤية لأنَّه كان يستخدم السبّورة كثيراً كي يشرح هيكليّة البنية الماركسيَّة دون أن يخرج عن الحدود التي يرسمها على

السبّورة الشمعيّة. ظهر الله أعلى السبورة، على عرش البنية. ولم تكن هناك طريقة أفضل لإزالة الريبة الدينيّة إلّا رؤيته وهو يلعب كرة الباسك. اعتاد الكاهن أن يشمّر عن ساعديه، متحوّلاً إلى بنية تحتيّة لا يمكن الانتصار عليها. حتّى جدران الملعب تستسلم له! بالقرب من المدرسة المختلطة، وبحضور سيّارات الجيب، ردّد رجال الشرطة المسلّحة بشجاعة نادرة تراتيل الصلوات الجنائزيّة على روحَيْ عاملَي بناء حوض السفن، اللّذين قُتلا في فيرول في أثناء إحدى المظاهرات، في العاشر من آذار من عام ١٩٧٢.

كان بامبين يتحدّث الغاليسية ويتكلّم نحو الداخل. إذا ما أخذنا في الحسبان أنّ الإله الّذي يؤمن به ماوريليو هو إله تاريخيّ متفائل من طليعة المنهج البنائيّ، فقد يُخيّل للمرء أنّ الإله الّذي يؤمن به بامبين هو مخلوق ضعيف وواقعيّ مستعدّ لمدّ يد العون إلى هذا المعدم البائس، مخلوق يحتاج إلى الحماية أكثر من كونه جبّاراً. أخبرني بامبين ذات يوم أنّه يريد أن يعطيني شيئاً ما، فذهبت معه إلى المكان الذي يعيش فيه، غرفة متواضعة جدّاً، وأعطاني كتاباً خلسةً، وقال لي: «خبّئه تحت ملابسك ولا تخرجه حتّى تصل إلى المنزل». كان كتاب «**دائماً في غاليسيا**» لكاستيلاو، الّذي كتبه في المنفى ونشره في أمريكا، وقد عُرف بالإنجيل الغاليسيّ. في بيتنا، تناقله جميع أفراد أسرتي، ولم يُطفئ أحدٌ الضوء. كانت حياة ذلك الكتاب تقوم على الخفاء والخلسة، إذ انتمى إلى سلالة أولئك الذين يقولون بسخرية وألم ما مُنع أن يُقال. كتبه رجل يوشك أن يفقد بصره، عجوز هرم مهزوم ومسحوق أثقل عليه شعوره بالذنب من جرّاء تقدّم النازيّة. عند المساء، اعتاد كاستيلاو أن يرى من غرفته كيف تُضاء نوافذ الغرف الأخرى في منهاتن. شعر بالإحباط والوحدة وكتب: «أنا ابن

وطن مجهول». إنّما، شيءٌ غريبٌ حدث، هاج البحر، ومضى إلى هارلم مشياً في يوم شتائيّ، راسماً شابّاً متسوّلاً أسود البشرة. ربَّما كانت تلك أفضل لوحات حياته. وبينما تقرأ أمّي في الإنجيل العلمانيّ، أصغي: «ما هو الثالوث المقدَّس في غاليسيا؟» البقرة والسمكة والشجرة. الكاهنان ماوريليو وبامبين رجلان طيّبان في زمن ليس كذلك. الكنسية الّتي ينتميان إليها لم تكن طيّبة معهما. كانا شجرتين بلا أرض.

إنّما، في تلك الفترة حدث شيءٌ آخر. زار رجال الشرطة السريَّة، القسم السياسيّ والاجتماعيّ، إدارة المدرسة المختلطة. حينها انتهت فعاليات هدم سفينة أوسكاوا من قبل طاقم الطلّاب أيّام السبت، وانتهت تجربتنا في حريّة الصحافة والطباعة والتعبير على الآلات الكاتبة. أخبرتنا إدارة المدرسة أنَّ كلّ ذلك من أجل مصلحتنا، كانوا أشخاصاً طيبين، وقد علَّمونا أن نغرف التاريخ بعمق. إنّما، الآن جاء دور الخوف، فقد اختبرنا الحريَّة، الخطيئة الكبرى في إسبانيا. ما لا يمكن قوله، خبَّأناه بين تجاويف الأسنان. كنَّا قد استمعنا إلى ميغيل سيرفيت بلسان الأستاذ كايرو: «أحمل حريَّتي معي». وحينما كنّا نخرج من المدرسة، كانت هناك دائماً سيَّارة مشبوهة ونظرات مخيفة. مدرسة حريَّة ديل أرابال، بفتيانها وفتياتها، كانت محطَّ الأنظار.

٢٠. عملٌ لا ورطة فيه

- بُني، ابحث عن عمل لا تتورَّط فيه!

علاوة على ذهابي إلى المدرسة الإعدادية المختلطة، كنت أحاول أن أعدَّ نفسي في أحسن حال تنفيذاً لأمر كارمينيا. بين أمور أخرى، ذهبت إلى أكاديمية لتعلُّم الكتابة على الآلة الكاتبة. ثمّة قصيدة لبيدرو ساليناس يطلق فيها على لوحة المفاتيح اسم «الفتيات المرحات». وحقاً، هذا ما شعرت به، تلك السعادة منذ اليوم الأول الذي جلست فيه أمام الآلة الكاتبة. تحرَّكت أصابعي بحماقة، وتداخلت الأحرف، لكن كلّ شيء تحوّل عندما اقتربت معلِّمة الآلة تلك وساعدتني في وضع أصابعي على لوحة المفاتيح وضغطتها بما يكفي كي تحصل على النتيجة المرجوَّة؛ تلك القوة الناعمة التي تكفي لعودة الخرطوشة ومن ثمَّ انسياب الأحرف ونظام كامل من الطباعة العالميَّة. من أجل تلك المهمَّة، اعتادت المعلّمة أن تقف في الخلف، بحيث يمكنها إحاطة الكتفين وتوجيه اليدين كي تصير الأصابع خبيرة في الانسياب. لقد كانت تعليماتها لغة جسديَّة تتحوَّل فيها الكلمات ورائحة الجلد والشعر المجعَّد إلى لغة فريدة تُطبع نغماتها على أطراف الأصابع. كانت أصابعها تلامس بخفَّة وسعادة وبوهيميَّة لوحة المفاتيح. من المؤسف أنّني لم أكمل تعلُّم الطباعة على الآلة الكاتبة، فقد كان عليَّ أن أبحث عن عمل لا أتورَّط فيه.

في اليوم الذي صعدت فيه درج جريدة **الإيديال الغاليسيَّة**، لم أكن أعرف حينها ما إذا كنت أريد أن أصبح صحافيّاً، غير أنّني كنت واثقاً من

رغبتي في أن أصير كاتباً. اعتدت كتابة الشِّعر، أو ما ظننت أنّه شعراً، حتّى بين الأرقام والمعادلات الرياضيّة. ولمّا كان الأستاذ يقترب منّي، كنت أخفي ذلك السرَّ بيديّ وجسدي، فتختفي القصيدة تماماً كما يتكوَّر القنفذ على نفسه. إنّما، ذات يوم اكتشف أمر ذلك الشّعر، ذلك القنفذ المفتوح، ولم تكن ردَّة الفعل سوى قراءته. كانت نظّارته السميكة تتفحَّص بدقَّة ذلك الكائن الغريب، القنفذ المُفاجئ، أي القصيدة المكتوبة بين الأرقام. لم أنتظر تحليلاً منه، بل توبيخاً. قال لي المعلِّم: «لماذا يكتبون دائماً قصائد حزينة؟» وحقيقة لا أذكر إن كانت القصيدة حزينة، ذلك القنفذ الذي كان يتقدَّم بغموضه الخاصّ بين المعادلات الحسابيّة. ما أذكره هو طريقة المعلِّم في الحديث معي بصيغة الجمع. كنت أكتب الشِّعر، أكتب شِعراً حزيناً، فأنا من سلالة غريبة اعتادت على كتابة القصائد الحزينة. ربّما كان تفصيلاً دقيقاً: لم أنجح في تفسير أنَّ القصيدة حزينة، لكن طريقة كتابتها مفرحة، فالقنفذ كان يتعلَّم الكتابة على الآلة الكاتبة.

في الجغرافيا النفسيَّة لذلك الوقت، ثمَّة أماكن لا يمكن نسيانها، حيث اعتاد القنفذ الخروج إليها. أحدها كان مكتبة حديقة سان كارلوس في المدينة القديمة. من أجل الوصول إليها من مونيلوس، بعد الخروج من المدرسة، كان عليَّ أن أمشيَ في طريق طويل مروراً بالميناء من جهة لا بايوثا. كان الميناء آنذاك مكاناً مفتوحاً يتمتَّع المرء فيه بهندسة معماريَّة استثنائيَّة: القوارب والرافعات، الصيّادون وهم يحوكون الشباك أو عناكب البحر، الأصوات الصادرة عن أولئك العائدين من الصيد في غران سول. كانت سحب الزرزور، فوق الخليج، من أكثر المشاهد روعة في سماء لاكورونيا، إذ بدت كأنّها ترسم فقاعاتٍ غيميّة في شكل طيور كبيرة من أجل حماية

أنفسها من الافتراس. وقد طارت بعض تلك الأسراب لتحطَّ على أشجار الدردار الكبيرة في حديقة سان كارلوس الدائريَّة، حيث اعتاد الشعراء الحزينون الذهاب هناك. ليس بعيداً عن ذلك المكان، افتتح نادي ديلان، أوَّل مقهى ليليّ موسيقيّ في لاكورونيا. ويعود الفضل في ذلك إلى كارلوس، الشابّ الشجاع الذي خطرت في باله فكرة النادي الليليّ، ذلك المكان الصغير الذي حلم في المستقبل كقرص فينيل. لقد كان مكاناً للاستكشاف، حيث يمكنك العثور فيه على أشخاص يحدِّثونك بما لا يمكن الحديث عنه، كلّ ذلك بصحبة موسيقا جديدة وجامحة. لقد انتمى ذلك المكان إلى جغرافيا المكان الآخر، حيث تستمع إلى أشياء لم تستمع إليها من قبل، بما في ذلك أشياء غير متوقَّعة. موسيقا متواطئة وقبلة أبديَّة مع تلك الفتاة الغامضة، الحولاء والمبحوحة بعض الشيء، على وقع حيويَّة ماريا كاياس الصادمة في أغنيتها «**لا ماما مورتا**».

نادي ديلان، هو الآخر، غرفة في بيت البشريَّة، بيتٌ مترحّلٌ. من الداخل إلى الخارج ومن الخارج إلى الداخل. مكان صغير في المدينة القديمة يحارب بشجاعة الغرامات التي تجبره على الإغلاق المؤقَّت. كنت أمرُّ أمامه أحياناً وأرى الباب مختوماً بالشمع الأحمر، ولا حتَّى همس. وعند الزاوية، بالقرب منه، أرى ظلاً قاتماً لأحد الرجال السرّيين. يا ترى، أين كانت تختبئ الأغاني؟ كانت الأوراق الجافَّة في حديقة سان كارلوس تلتفُّ حول بعضها مشكِّلةً دوائرَ على الأرض بعد مرور الصبيَّة الحولاء.

- هل ستذهب؟

- يجب أن أذهب إلى العمل، لا أستطيع التغيّب.

- لا تذهب!

ورحلتُ، خافض الرأس، ولم أرَها بعد ذلك اليوم.

أردت أن أكون كاتباً، لكن ما تلك المهنة؟ معظم الكتَّاب الذين أحببتهم كانوا يكسبون رزقهم كصحافيين، بدءاً من مارك توين إلى جراسيليانوا راموس، البرازيليّ مؤلّف كتاب «**الحياة اليابسة**». مهلاً، يجب ألَّا أقتبس كثيراً، فأنا أستشهد كثيراً وأكاد أنسى تلك الحادثة عندما كنتُ طالباً في الثانويَّة. لمَّا ارتدت مركز «بيت الثقافة» في حديقة سان كارلوس لحضور محاضرة كاتب شهير قرأ خلالها مداخلته دون حماس، ولمَّا سأله أحدهم بلهجة عامَّة حول الكتّاب الذين أثَّروا فيه، راح الكاتب يذكر أسماء شكسبير وثرفانتس، والرواية الإنكليزيَّة العظيمة، والروايتين الفرنسيَّة والروسيَّة العظيمتين، وبالطبع فولكنر... ثمَّ فتح الأدب فمه الساخر بين الحضور وكان سؤال: «ما ذنب هؤلاء الأشخاص الذين ذكرت فيما تكتبه أنت؟».

انتشر في لاكورونيا هذا التقليد في النقد والإزعاج، وكثيراً ما كان يصدر عن قصد. وقد حدث هذا الشيء مع جنرال في جيش فرانكو كان يلقي الشِّعر فقاطعه على الفور الرسَّام ريموندو باتينيو صارخاً: «صحن كلامار آخر لو سمحت».

في المدرسة المختلطة أسَّسنا تلك المجلَّة التي سرعان ما أصبحت سريَّة. وقد أجريتُ فيها مقابلات مع مثقَّفين بارزين. كان كلُّ واحدٍ منهم يدفعني إلى إجراء مقابلة مع الآخر كحشد النحل: الكاتب الدراميّ مانولو لورينثو الذي سُجن في فترة شبابه، ثمَّ الموسيقيّ ميرو كاسابيلا حفيد مغنّي أناشيد شعبيَّة أعمى، والرسَّام الكاريكاتيريّ الساخر تشيتشي كامبوس الذي أشرف

على الرسوم الكاريكاتيريَّة في المجلَّة، وعلى الرَّغم من أنَّ جزءاً كبيراً من هذه الرسومات الكاريكاتيريَّة لم يُنشر، إلَّا أنَّها، مع ذلك، شكَّلت جزءاً من الحريَّة التي حملتها معي. وقد شاءت المصادفة أن أتعرَّف إلى تونيو لوبيز مارينيو، وذلك بعد الخروج الطارئ من أمسية شعريَّة موسيقيَّة لميرو، منعها الحاكم في نهاية المطاف. كان لقاء تونيو أشبه بلقاء باكس باني وجاك كيرواك في الوقت نفسه، انتقل مؤخَّراً من مركز سانتياغو الإعداديّ الدينيّ إلى «جيل البيت» والثقافة البديلة، وكان من أواخر طلَّاب مدرسة الصحافيين في مدريد، التي اختفت فيما بعد. اعتاد أن يوقِّع مقالاته بهذه الرموز «PQF»، التي، بدورها، تختزل عبارة «لماذا التوقيع». أخبرته قصَّتي وشجَّعني كي أذهب إلى جريدة **الإيديال**. كانت **الإيديال**، صحيفة التعنُّت الكاثوليكيَّة المتحجِّرة آنذاك، تعيش ثورة داخليَّة مع مديرها الجديد رافاييل غونزاليز القادم من أندالوسيا. لم تكن حرباً تماماً، لكن كان ثمَّة تحفُّظ معيَّن لدى الحرس القديم الموجود في هيئة التحرير، التي راح ينضمُّ إليها أشخاص اشتركوا ومارسوا أغراض والتزامات الصحافة وواجباتها، وفق طريقة ألبير كاموس. وكان على قائمة تلك الالتزامات والواجبات عدم الكذب، وإتقان الاعتراف بما يتمُّ تجاهله، والرفض الدائم، وتجنُّب أيّ ذريعة لتسويغ أشكال الاستبداد، باختصار: رفض الهيمنة. كانت غاليسيا في تلك الأثناء على موعد مع أفضل مستقبل للصحافة فيها، ولا سيّما في ظلِّ وجود خوسيه أنطونيو كاثينيو، لويس بيتا أو غابرييل بلاثا، الذين شكَّلوا مرجعيَّة صحفيَّة هناك، والذين تعرَّضوا بين وقتٍ وآخر إلى الإهانة والإساءة على درج الجريدة من قبل الفاشيين المعروفين باسم: محاربي المسيح. ومهما يكن من أمر، روح **الإيديال** الجديدة استطاعت رويداً رويداً أن تغيّر الإعلام، ولا سيّما بعد نشرها فضائح سلطات فرانكو

والكنيسة الرجعيَّة. ولم يتوقَّف الأمر عند هذا الحدّ، بل شارك الصحافيّون في النهضة الثقافيَّة للمدينة. جرى تنظيم أوَّل معرض جُمعت فيه لوحات سورياليّ البحر جميعها، الفنَّان أوربانو لوغريس. حينما تنظر إلى إحدى لوحاته تعتقد أنَّ البحر، تماماً على غرار أشياء أخرى، قد خُلِقَ كي يرسمه لوغريس. هو نفسه اعتاد أن يقول إنَّه كان يرسم في ورشة تحت البحر كجنديّ في وحدة القائد نيمو. خاض لوغريس دراما رسم الجزء الداخليّ من يخت فرانكو. تظاهر الديكتاتور أنَّه فنَّان، لكن كلّ سمكة يرسمها كانت تبدو وحشاً، ناهيك الحديث عن القشريَّات البحريَّة. هكذا طلبوا إلى أوربانو لوغريس الذهاب إلى اليخت، وهناك سَكِرَ الرسَّام البحَّار. لقد رسم أجمل لوحاته برفقة النبيذ الأحمر على الطاولات الرخاميَّة في الحانات. في صيف عام ١٩٧٥، حملنا لوحات لوغريس تحت أذرعنا، وواحداً تلو الآخر اتَّجهنا نحو نقابة الفنَّانين. سرنا في طابور وقد عانق كلٌّ منَّا لوحته بتوقيع لوغريس، وفي ساحة ماريا بيتا التقينا ببعض المتشدّدين الذين كانوا يتجوَّلون كما يحلو لهم. كانوا مسلَّحين ويحملون سلاسل. لم يكن بإمكانهم معرفة اللوحات التي نحملها تحت أذرعنا، وكنَّا نعلم أنَّها ستبدو لهم، في أيٍّ حال، مجرَّد قمامة وفنٍّ منحطّ فقط لأنَّنا حاملوها. همس غابرييل بلانا: «لا تنظروا إليهم، تابعوا المشي!» حتَّى إن لم تكن شجاعاً، وأنت على علم بذلك، تنتابك قوَّة غريبة تبعثها اللوحة التي ستحميها بجسدك حتَّى النهاية.

إلَّا أنَّ هذا لم يحدث بعد. كنت أصعد درج **الإيديال**، ليس الدرج الرئيس للبناء، وإنَّما ذلك الموجود في الخلف، الذي يختصر الطريق. في سنوات الاضطراب تلك، كانت غرفة التحرير بمنزلة ساحة عامَّة، يُفتح بابها فتدخل لجنة الحيّ، نقابة عماليَّة أو لجنة الصيّادين، ويسألون إن كان ثمَّة

رجالٌ شجعان يستطيعون أن ينشروا شكواهم. اعتاد أن يأتي أشخاص يحملون أخباراً كثيرة وجديدة بطبيعتها. أمّا الآن، فها أنا ذا من يصعد، أعاني من متلازمة السلالم قبل صعودها، أظنّ أنّ خطواتي أخطأت، وأنّه لم يكن من الصواب أن أترك القصائد التي كانت لا تزال معي. توجّب عليّ أن أعود كي أسترجع القصائد، عفواً، لقد أخطأت! لديَّ نصوص أخرى، كتابات أخرى. لديَّ مقابلات. فلنرَ، لماذا تركت القصائد؟ هل تظنُّ أنَّ الصحيفة مجرَّد مستودع للنشر؟ ولماذا اخترعت سلَّة المهملات في نظرك؟

المشكلة في غاليسيا هي أنَّ كلَّ مَن حمل حجرةً يرى نفسه شاعراً. إحدى فوائد الهجرة أنَّها خلَّصتنا من مئات بل من آلاف الشعراء. قل لي يا سيّد: «لماذا اخترت أن تكون القصائد رسالة تقدّم بها نفسك من أجل الحصول على عمل؟ كيف وصلت إلى هذه الفكرة الغريبة؟ هل تتمتَّع بكامل قواك العقليَّة؟».

أصعد الدَّرج، حتَّى الآن لم أسلِّم القصائد. لا يزال لديَّ وقت كي أنزل وأسرع بالركض خجلاً. لا. نعم درجة أخرى. أحاول الدفاع عن نفسي. صاحب القصائد مرَّة أخرى؟ اِنظر، سأشرح لك. عرَّابي لديه آلة كاتبة محمولة وصغيرة الحجم. إنَّه كثير السَّفر فهو تاجر توابل. بالمناسبة، هل كنت تعرف حضرتك أنَّ قيمة كيلو من الزعفران الصافي أغلى من كيلو من الذهب؟ هي آلة يستخدمها من أجل الفواتير وأوراقها صغيرة. أرادني أن أصبح رجلاً مثقَّفاً وناجحاً. قال لي منذ سنوات: «اكتب، اكتب إذا أردت باستخدام الآلة». وأعتقد أنَّ هنا بدأ ضياعي وهلاكي. اعتقدت أنَّ الأمر مجرَّد لعبة. ماذا أكتب؟ فالورقة حجمها صغير. فكَّرت، سأكتب شعراً، أو جملاً تبدو كالأبيات؛ شعر. وهكذا بدأ شغفي بالشِّعر بفضل صغر حجم

ورقة الآلة الكاتبة. كانت عبارة عن لعبة، أشياء طفوليَّة. من الأفضل أن تعيدوا إليَّ القصائد، انسوا أمرها، أرجوكم أطلقوا سراحها. أنا لا أرغب في نشر قصائدي، أريد عملاً لا يورِّطني في شيء.

وهكذا، حملت بعض القصائد الحزينة ودفتراً من المدرسة المختلطة. من يفتح الباب ولا يغلقه، بل تستقبلني وتدقّق بفضول في مجموعة القصائد، إنَّها الشابَّة أنخيلا سوتو، سكرتيرة قسم التحرير. لا أعرف إن كان الأمر سحراً، لكنِّي متأكِّد أنَّه كان مصادفة سحريَّة. وجدتْ قصائدي الأولى مكانها بين يدَي أنخيلا، أشعر كأنِّي شارلوت في فيلم «**الضربة القاضية**». أعود بعد أسبوع. انتظر لحظة من فضلك، سيستقبلك المدير. ثمَّ يستقبلني المدير: «لقد قرأ أحدهم القصائد، ليست سيّئة». أحببت تعليقه، ويمكن أن يكون عنوان القصائد: «**قصائد ليست سيّئة**». إنَّه أكثر نقد بنَّاء سمعته، لكن ليس هناك أفضل ممَّا قاله بعد تلك الجملة: «ابقَ قريباً من هنا بضعة أيَّام من فضلك. سنرى ماذا ستفعل!».

في اليوم التالي، خرجت راكضاً من المدرسة دون أن أخبرَ أحداً بشيء. اتَّجهت إلى وظيفتي الأولى. صعدت الدرج، درجتين درجتين، وفتحت باب غرفة التحرير. حول لوحة المفاتيح كانت الكلمات تتراقص وهي تُكتب. لقد كان ذلك المكان حقاً مصنعاً للكلمات. مكتب كبير حيث الضجيج، الشائعات وصخب الكون يكتسبون معنىً، ترتيباً مطبعيّاً. أمّا إيقاع السحب، أي تقدّم الطباعة في العربة، فقد كان يُحدث عموداً من الدخان. وكان هذا العمود يتَّخذ أشكالاً متعدِّدة، ويحيط بالكاتب تماماً مثل الضباب: دخان كثيف تارةً، وداكنٌ تارة أخرى. بطيء أحياناً وسريع الزوال أحياناً أخرى. وكثيراً ما تصاعد الدخان بهدوء فنيٍّ راسماً حوله

زخرفات أرابيسك تنتهي في شفرات المراوح. أمّا الكتابة الشيطانيّة على الآلة الكاتبة فكانت تبعث دخاناً خفيفاً ينطلق بسرعة.

نعم، أغلب الصحافيين مدخِّنون. كانت الآلات الكاتبة تحتوي على أوانٍ معدنيّة صغيرة ملحومة بها لتكون منافض السجائر. من الجيّد أن يتقن الصحافيُّ الكتابة على الآلة الكاتبة، لكن إذا أراد أن يصبح صحافيّاً جيّداً فعليه أن يشتريَ السجائر في أسرعِ وقت ممكن. في وسط تلك السحب، عبرت برفقة أنخيلا الممرَّ وصولاً إلى إحدى الطاولات. أجلستني أمام رجل يرتدي قميصاً وقد رفع كمّيه حسب طريقة الصحافيين القدامى. كان حقّاً صحافيّاً قديماً. نحيلٌ وصامتٌ للغاية. لم يفاجئني عندما وضع أمامي ملفّاً مطبوعاً وقال لي بسخرية قاتمة لكاتب مهمّ: «اجعله مفهوماً وضعْ له عنواناً بأقلّ من عشر كلمات». لمّا دقّقت في الورقة، مقال لمراسل، أدركت أنّها نسخة مطبوعة عن ورق كربون. كان من الصعب فهم بعض الكلمات التي ظهرت مظلّلة بورق الكربون. مضت أيّام قليلة وأنجزت مهمّات ليست قليلة. فاق الأمر أحلامي. ليس ثمّة مرتّب. كنت «كفيّاً»، وكانت تلك المرّة الأولى التي أسمع فيها هذه الكلمة. تبدو قديمة. كنت أسمعهم يقولون: «ليفعله الكفيُّ»، وكانت الأصابع موجّهة إليَّ، فأنا الكفيُّ، ولم أعرف حينها إن كانت كلمة جيّدة أو سيّئة.

كان خابيير غيمارانس الصحافيّ المخضرم في **الإيديال**، وهو مؤرِّخ ومسؤول عن صفحات الإعلام المحليّة للفيلات والمناطق، كان أسلوبه بسيطاً، صارماً في كلّ شيء، حتّى في التعبير. ربّما نحوله الشديد كان له علاقة بنشاطه الهوسيّ في تقليم النصوص. كان رجلاً شديد المحافظة. كما أنّه لم يحتَجْ إلى جمل طويلة للتعريف بنفسه. في اليوم الأوّل، رمقني بنظرة من

فوق نظارته، كعالم حشرات يأخذ مقاسات عيّنة مجهولة على الطرف الآخر من الطاولة. ولم نتصادم يوماً. كان رجلاً محترماً. تعلّمت منه الكثير عن الاقتصاد اللفظيّ. تنامت لديَّ غريزة التركيز على العناوين التي تقلّ عن عشر كلمات، وعلى الأعمال القديمة لبعض النصوص الإقليميَّة.

كانت أولى مهمّاتي حمل الأخبار، بالمعنى الحرفيّ للكلمة. كان جزء كبير من مقالات المراسلين في القرى والمناطق يصل مع وسائل نقل المسافرين. لم تكن هناك محطَّة حافلات، لذلك كان عليَّ أن أمرَّ على كلٍّ موقف، فيسلّمني السَّائقون المظاريف الَّتي تحتوي على المعلومات. وكانت المقالات أيضاً تقبل عن طريق الهاتف، عبر مكالمات يدفعها مستقبل الاتّصال، وذلك في حالات استثائيَّة فحسب، كالحوادث شديدة الخطورة مثلاً.

كنت أحمل المظاريف القادمة من المناطق وأسلِّمها إلى غيمارانس ثمَّ أعود إلى مكتبي وأشغل منصبي ريثما تظهر تحدّيات جديدة في الوهم الصحافيّ. كثيراً ما وصلتنا نصوص مكتوبة بخط اليد، بعضها غير مفهوم أو في شكل خربشات، وبعضها الآخر بأسلوب جميل ومثير للإعجاب. قصائد خطيَّة سقطت روحها عندنا لتخبرنا بزيارة قريبة للمندوبة الإقليميَّة للجوقات والرقصات التعليميَّة وبقيَّة القسم النسائيّ في الحركة الوطنيَّة. في مثل هذه الحالات، كان علينا أن نكتب التقارير باستخدام الآلة الكاتبة. أمَّا بالنظر إلى التقارير الَّتي تصلنا مطبوعة، فكان علينا أن ندقِّقها ونصحِّحها ونحدِّدها بحسب المقاس المتوافر، وبالطبع أن نضع لها عنواناً لا يتجاوز عشرَ الكلماتِ. ولطالما أثار هذا الأمر احتجاج بعض الصحافيين، فالعنوان الجيّد لديهم هو العنوان الطويل الذي يكشف عن محتوى المقال كلّه تقريباً. بالنظر

إليَّ، كنت متحمِّساً جدّاً إزاء أسلوب غيارانس الدقيق والبسيط، وقد تعلَّمت أن أختصر الكلمات في كلِّ مرَّة أكثر من سابقتها.

ذات يوم، أعطاني مديري الدقيق والمباشر ورقة، لم ينظر إليَّ، كما أنَّ الأمر لم يتطلَّب أيَّ تعليق منه. استطعت أن أميِّز مصدر التقرير استناداً إلى شكله والعلامات الموجودة عليه. كان تقريراً مرسلاً من بلديَّة بويرو، وموقَّعاً باسم إنموثي. وإنموثي شخص محترف يعمل بكدّ. اعتاد أن يرسل كلَّ يوم تقريراً. المشكلة في ذلك اليوم هي أنَّه بعث التقرير نفسه إلى جميع الصحف الغاليسيَّة. معظم أولئك المراسلين، في ذلك الوقت، لم يتقاضوا أيَّ أجر على نشر تقاريرهم، ربَّما الأجر الوحيد هو نشر المقال. لقد كان الأجر حداثويّاً وافتراضيّاً في آن معاً! اعتاد إنموثي استخدام ورق الكربون لعمل النسخ، لكنَّها كانت نسخاً كثيرة. في بعض الأحيان، وصل عددها إلى سبع نسخ. وكانت الأمور تتعقَّد كثيراً عندما تصلنا نسخة مطابقة للأخيرة التي سلَّمنا إياها.

إلَّا أنَّ هذا لم يحدث لي قطُّ من قبل. أعني مشكلة اليوم: عدم فهمي أيَّ شيء على الإطلاق.

كان ذلك في نهاية الصيف، وصارت سمعتي على المحكّ. حتَّى في العمل حيث لم أعتد التورُّط.

كان عليَّ اتّباع الأسلوب العكسيّ للبساطة والدقَّة، أي تقنية «الملاحم الآيسلنديَّة» التي تحملك فيها الكلمة الأولى إلى الثانية، والثانية إلى الثالثة وهكذا. كان التقرير مكتوباً باللغة الإسبانيَّة، وكانت هناك كلمة أولى يمكن تمييزها، لا بل إنَّها حملت رموزاً كي تلفت الأنظار: بطاطا! رحت أفكّ شيفرة الأحرف الغامضة شيئاً فشيئاً بفضل رموز مرئيَّة طبعت بالكربون،

وبفضل آثار لوحة المفاتيح، دقَّقت في الكلمات كمن يدخل الخيط في سم الإبرة. كانت الكلمات تحملني إلى أخرى. فجأةً، أرادت كلُّ الكلمات المخفيَّة أن تنبعث إلى الحياة مرَّة أخرى بحماس على لوحة المفاتيح. وهكذا، جمعت ذلك التقرير الذي يتحدَّث عن العثور على حبَّة بطاطا ضخمة في اليوم نفسه الذي شوهد فيه جسم طائر مجهول. في تلك الفترة كثر الحديث عن الأجسام الطائرة المجهولة، حتَّى إنَّ الحكومة نشرت تعاليم لتقليص الأخبار حول المخلوقات الفضائيَّة التي تقلق الشعب وتهدِّد النظام الإلهيّ.

أمَّا خبر الجسم الطائر المجهول فقد كان بمنزلة قنبلة.

تمَّت تهنئة المراسل، أمَّا أنا فبقيت آملاً ومنتظراً أن يبعث النظام الخارجيّ برسائل جديدة.

٢١. شخص عاديّ

الإغلاق. كان الإغلاق مقدَّساً، إذا أغلقَتْ في ذلك الوقت غير المناسب، فستضيع الروابط، أي النقاط التي تحدِّد توزيع الصحيفة، نقاط التوزيع. شبكة نُسجت خيوطها على مفترقات استراتيجيَّة في خريطة غاليسيا. كان من السهل تعويض تأخُّر صدور الصحيفة ضمن المدن، لكنَّ الحرب اندلعت في القرى والأرياف، في مكانٍ يوجد فيه أكثر السكَّان تشتّتاً في أوروبا. وهناك، عند نقاط التوزيع، حيث ساعدت الشاحنات الخاصّة كلَّ وسائل النقل الأخرى كي تكمل رحلاتها، كان عليَّ أن أكون في الوقت المحدَّد. لم يكن الطقس حجّةً، فقد شكَّل الضباب والمطر والثلج جزءاً من الحياة الطبيعيّة، وبذلك لن يستطيع أيّ سائق أن يستخدم الطقس ذريعةً لعدم توصيل الجريدة إلى نقطة توزيع معيَّنة بسبب المطر الغزير. ثمَّة دائماً طريقٌ آخر، حتَّى وإن غمرت الأمطار الطرقات كلّها.

- فاتتنا نقطة توزيع في أورتيغيرا!

شكَّل خطأ من هذا النوع دراما حقيقيَّة في حياة الصحيفة. هزيمة، وحقيقة جنائزيَّة. في اليوم الأوّل الذي سمعت فيه هذا الرثاء الرهيب، أي أنّه نسي توصيل الجريدة إلى نقطة توزيع ما، تخيَّلت صدعاً كبيراً فُتح فجأةً في الطريق وابتلع الشاحنة التي تحمل الصحيفة الكاثوليكيَّة. قد يعود ذلك إلى أنّنا كنَّا نحارب مع كلِّ عدد جديد من أجل الحفاظ أو الظفر بنقطة توزيع أو بيع جديدة، ومن ثمَّ التمدُّد أكثر وأكثر على الخريطة. وصل الأمر إلى

درجة أنَّنا علقنا على الجدران خرائط ضخمة لغاليسيا، بعضها بارز ومُعلَّم بدبابيس ملوَّنة. الدبابيس الحمر، أشارت إلى تلك المناطق التي نشبت فيها معارك حقيقيَّة: أي نقاط البيع الصعبة والحاسمة.

في إحدى الليالي، تعقَّدت الأمور في غرفة التحرير، ولمَّا أدركتُ الأمر، لم يكن هناك مَن يقلّني معه في سيَّارته، كما أنَّني لم أكن أحمل النقود لدفع أجرة تاكسي. كان الطقس سيِّئاً، ومنزلنا في كاسترو بعيد بحيث يستحيل الذهاب مشياً على الأقدام في ذلك الطقس. ندمتُ لأنَّني لم أذهبْ مع تونيو. آه، إنَّه حقّاً حلمٌ جميل: يوم جمعة، وبعد خروجنا من دار الصحيفة، يدعوني تونيو إلى حانة والديه، حانة «المدينتان» المتاخمة للمدينة القديمة وحيّ الصيَّادين. كانوا يسكنون شقَّة صغيرة ممتلئة بالأسرَّة في البناء نفسه. كانت لدى تونيو خمس أخوات، وسيكنَّ الآن معنا حين زيارتي، يتبادلن الضحكات فيما بينهنَّ، ربَّما يسخرن منِّي! «لكنَّه فتى! تلميذ أكاديميّ!» جيّد جدّاً، يا لسعادتي! كم يشعر المرء بالتوتّر عندما يكون مركز الاهتمام! أكاد أشعر بالدوار من مجرَّد سماع ضحكاتهنَّ. أقسمت حينها أنَّني سأذهب ذات يوم إلى بيت تونيو، لكن اليوم لا أستطيع. لذلك، سأختبئ في غرفة التحرير وأنام في حجرة الهاتف على كومة ورق وأتغطّى بمعطفي. كان الهاتف هناك، في الأعلى، صامتاً، لكن في هالة تأهُّب. ماذا سأفعل إن رنَّ جرس الهاتف؟ قد يكون خبر العام وأنا موجود هنا وحدي في اللحظة والمكان المناسبين؟ حتّى الآن لم أقرِّر إن كنتُ سأردُّ على الهاتف أو لا، متى سيغلبني النعاس على الصحف! أنا حقّاً صحافيٌّ الآن! في الصباح، أيقظتني دندنة عاملة النظافة. دون أن تراني ذهبت إلى الحمَّام، ثمَّ جلست على إحدى الطاولات متظاهراً أنَّني أكتب تقريراً مستعجلاً. سار كلّ شيء على ما يرام إلى أن

وصل نائب المدير، خوان مولينا، وخرج ليلتقي رئيس الإدارة. لقد بدا للجميع أنَّ الرئيس الجبَّار كان غاضباً كثيراً. لا بدَّ أنَّ أمراً مروّعاً قد حدث. كنتُ متوتّراً إلى درجة أنَّني سمعتُ ضربات قلبي. يا تُرى، ما الأمر الخطير الذي حدث؟ لم أكن مذنباً، لكن يمكن أن أكون أحد المشتبه فيهم.

- لقد فقدنا نقطة توزيع في بونتيديومي! علا صوتٌ.

- سنغلق في الوقت المعتاد. قال مولينا بصوت منخفض.

- بل أغلقوها قبل الوقت المعتاد!

تنفَّستُ الصعداء، وخطرتْ في بالي، في ذلك اليوم، فكرة كتابة ملحمة عن الصحافة الغاليسيَّة أتناول فيها المنفى والرقابة. نعم! وسأخصّص فصلاً أتحدَّث فيه عن نقاط البيع والتوزيع أيضاً، احتفاءً بالموزِّعين. شهدتُ ضغطاً كبيراً وقع على عواتقهم إلى درجة أنَّني فكَّرت أحياناً في كتابة تقرير يكرِّم أولئك الأبطال الموزّعين القادرين على الوصول إلى أبعد نقطة في أقصى قرية معزولة بسبب الثلوج. «في تاريخ الإعلام الغربيّ، ليس هناك ما يمكن مقارنته بالملحمة العظيمة لتوزيع الصحف في غاليسيا، ولا حتَّى شركة ببوني إكسبرس الأسطوريَّة التي تمتَّعت بالدقَّة والكفاءة نفسيهما في التوزيع».

في الحياة، لا يمكنك أبداً أن تفقد الروابط.

ثمَّة درس آخر لم يخبرني به أساتذة الكليَّة قطُّ، ولم أسمعه في المؤتمرات، ولم أقرأه في كتب خبراء الاتِّصال، وهو أهميَّة النعوات في الصّحف الورقيَّة. على وجه التحديد ذلك النوع من الصفحات التي عادة ما يدفع ثمنها وتُنشر فيها نعوات. حسب علمي، لم ينشر أحدٌ نعوةً عبر الإنترنت، نعوة حقيقيَّة. الأحياء ساذجون للغاية، نصدِّق بسهولة، لكنَّ الأموات لا يثقون بالعالم

الافتراضيّ. في صحيفة الإديال، على غرار الصحف الأخرى كلّها، كان وقت إغلاق غرفة التحرير مقدَّساً. اعتادت الإدارة «الجبَّارة» أن تمارس ضغطاً شديداً، وذلك بسبب حرب نقاط التوزيع الدراماتيكيَّة. إنَّما، في الليل، في الساعة الحاسمة، لعب مدير ورشة الطباعة الدور الحاسم. في أثناء النهار هو شخص جادٌّ للغاية، وهذه صفة تطلق عادة على الأشخاص الذين يُرهبون على نحو أو آخر. هكذا كان مزاج مدير ورشة الطباعة، تتغيَّر ملامح وجهه مع اقتراب موعد الإغلاق، ومن ثمَّ كنَّا جميعاً نتوقَّع اللحظة التي سيتحوَّل فيها ذلك الرجل الصامت إلى مُشرِفٍ قاسٍ.

إذا أسعفتني الذاكرة، وسمحت لي بنزول درج التحرير المؤدِّي إلى ورشة الطباعة، لن أكون قادراً إلَّا على تذكُّر تلك الرائحة القويَّة والجديدة المنبعثة من الكلمات المنصهرة: تلك الأحرف التي كتبت في الأعلى، المعلومات الحقيقيَّة والكاذبة المدقوقة على وقع لوحات المفاتيح باتت الآن لا شيء آخر سوى رصاص.

أوه، ها أنا ذا الآن أرى كلماتي كلّها تلبس زيَّ الرّصاص! وها هم أولاء العمَّال جالسون وقد وضعوا علب الحليب أمام مطابع اللاينوتايب، أمام آلات المستقبل الأثريّ وهي تنحت اللغة، لأنَّ الكلمات المصنوعة من الرصاص، حتّى الحقيقيَّة منها، سامَّة. كنت كلَّما تمكَّنت من النزول إلى هناك، آخذ النسخ الأولى من المطبعة، إلى درجة أنَّ الحبر كان يترك أثره عليَّ، فتتحوَّل العناوين إلى وشم بارز على يدي. كنتُ أنزلُ إلى هناك لأنَّ رائحة الصحيفة الحقيقيَّة موجودة هناك: مزيج عطر أنخيلا مع روائح التبغ المطبوعة على الآلة الكاتبة، باختصار إنَّه مزيج من الرصاص والحليب وحبر المطابع.

نعم، جاءت اللحظة التي تسلَّم فيها مدير الطباعة زمام الأمور كلّها. شيء واحد فحسب قادر على إيقاف العمليَّة الجامحة للطباعة: نعوة أحد ما. اعتاد أن يكون موجوداً في الإدارة إلى وقت متأخِّر، وقت منطقيّ يمكن للمرء فيه أن يتحمَّل البقاء في ذلك المكان، شخص مسؤول عن تلقّي النعوات ونشرها. وجرت العادة أن يُقبضَ ثمن النعوة بناء على حجمها ومساحتها، وبسعر يفوق الإعلانات التجاريَّة. لا مجال للتفاوض على السعر الذي يُدفع مباشرة في قسم المحاسبة. كانت تلك المرَّة الأولى التي أسمع فيها بعبارة: «الدفع نقداً».

- دائماً تُدفع أجور النعوات نقداً!

ربَّما أبرزَ هذا الشرط أهميّتها كونها معلومات أساسيَّة. ما يُدفع نقداً في الصندوق لا يمكن ردُّه. ولم يكن أحدٌ ليناقش محتوى نعوة، ولا حتَّى ثمنها. ولطالما انتظرت الصحيفة عندما يتَّصل أحدهم عبر الهاتف المخصّص لذلك ويخبر أنَّه قادم لنشر نعوة، أنَّه سيدفع نقداً.

في ذلك الوقت، انتشرت التكهُّنات حول تراجع الصحافة المحليَّة والإقليميَّة، ولا سيّما في ظلِّ الصعوبات التي واجهتها الصحف من أجل الاستمرار. في دراسة استقصائيَّة أوروبيَّة، كان الكاتب ألبارو كونكيرو، مدير صحيفة الفارو دي فيغو في ذلك الوقت، إلى جانب مدير إحدى الصحف الفرنسيَّة، الوحيدَين اللذين تناولا هذا الموضوع ووصفاه بأنَّه ظاهرة كارثيَّة: «لا أعرف ما سيحدث للصحف الأخرى، لكن بالنظر إلى صحيفة الفارو دي فيغو، فإنَّ الإعلانات التجاريَّة القصيرة في المقدّمة، والنعوات في المؤخّرة، ستتكفَّلان بعدم إغراقنا». وبالفعل، لا يزال ذلك

القارب يبحر. مع هذا كلّه، الموت في غاليسيا في آخر المطاف، لا يزال يصدر ورقياً ويُدفع له نقداً. الموتى لا يثقون بالعالم الافتراضيّ.

وحقيقةً، حينها لم أكن مدركاً لأهميَّة النعوات تلك ولا لقواعدها غير المكتوبة في عمل الصحيفة إلى أن جرت مقابلة لويس سيوان. كانت المسألة شخصيَّة، المرَّة الأولى التي اختبرت خلالها قلق النصّ الحقيقيّ. كان سيوان أكثر من مجرَّد فنَّان، فهو مرجع أساس لأدب المنفى وأدب المقاومة الفكريَّة لسلطة الدكتاتور فرانكو. عاش في منزله في بوينوس أيريس، لكنَّه كان قد بدأ السفر بكثرة إلى غاليسيا وإسبانيا بعد بدء عمل مصنع السيراميك الجديد في سارغاديلوس مع شريكه إيساك دياز باردو. كما كانا يخطّطان أيضاً لإنشاء صحيفة، صحيفة غاليسيا، لإعادة بعث الأفكار والمفاهيم التي قضى عليها نظام فرانكو. إذاً، كان لويس سيوان في لاكورونيا يفتتح معرضاً في صالة عرض جديدة. كنت قد بدأت العمل كمتدرِّب في الصحيفة التي دبَّت الذعر في أرشيف الصحف الأخرى كونها الناطقة باسم الكاثوليكيَّة الوطنيَّة المتعنِّتة. غير أنَّ الوضع راح يتغيّر رويداً رويداً ولا سيّما بعد تلك الثورة الداخليَّة التي أثارت غضب الإدارة، الجمعة الوطنيَّة للدعاية. المهمّ أنّني اقترحت إجراء مقابلة مع لويس سيوان. وفي نهاية الأمر، وفي وقت متأخّر من الليل، أعطاني مدير التحرير المناوب، غابرييل بلازا، الضوء الأخضر. استغرب سيوان ذلك الاقتراح، إذ إنَّه لم يسمع بي بالطبع. إلَّا أنَّه كان يعرف الكثير عن **الإيديال**، عن تلك الصحيفة التي لم ينتظر منها سوى الجهل أو الهجوم على الآخرين. وافق على المقابلة، لكنَّه كان دفاعيّاً للغاية في بداية المقابلة، وهذا ما صعَّب من المقابلة وجعلها أكثر إثارةً أيضاً. في أثناء المقابلة خطرت في بالي قصيدة لجون كيتس، فما كان منّي إلَّا أن

سألت لويس عن مكان الحقيقة والجمال، فأجابني بسرعة البرق «حتّى الجمال يمكن أن يكون مروّعاً!». لمّا أنهينا المقابلة، خرجت وإذ برذاذ المطر ينهمر على البلاط الذي بدا كأنّه يحترق مع انعكاسات ضوء النيون المنبعث من البنك. خرجت راكضاً إلى الصحيفة التي كانت شبه فارغة. انكببت على الكتابة من دون العودة إلى الملاحظات، متّبعاً الحقيقة التي لا يمكن الاعتراف بها في عالم الصحافة: «إن نسيت، فاخترع وستنجح في الأمر!» هذا إذا كان اختراعك جيّداً بطبيعة الحال. ظهر المسؤول عن الطباعة في غرفة التحرير، في الأرجح من أجل الكشف عن هويّة الجاني الذي تسبّب بالنقر على لوحة المفاتيح في وقت غير مناسب. كنتُ شخصاً مجهولاً لديه، وهكذا، تفادياً لأيٍّ توبيخ، بادرت إلى الصراخ بكلّ حماس:

- إنّها مقابلة مع لويس سيوان.

همس بكلمات غير مفهومة، ثمّ علا صوته:

- ليست لليوم، أليس كذلك؟

- لليوم طبعاً! قلت بحماس المنتصر.

كتبت العنوان بخطّ قلمي. أخذ النصّ، وفي أثناء خروجه قال: «ربّما لن نتمكّن من طباعته، ثمّة نعوة بانتظار الطباعة».

تأمّلت. كنت حينها قد تعلّمت التدخين، وأصبحت قادراً على خلق سحب من الدخان. وهكذا بقيت مترقّباً الباب الذي كلّما أصدر صوتاً نظرت إليه كي أرى أقارب الفقيد وهم يدخلون حاملين، كما كان يحدث في بعض الأحيان، كيساً من النقود جُمعت في الصباح الباكر على نحو مستعجل. توجّب عدُّ النقود حتّى آخر قطعة نقديّة. إنّما، لم يأتِ أحد ذلك

اليوم. أعطى مدير الطباعة الأمر بالبدء. نزلت إلى قسم الطباعة، فنظر إليَّ وقال: «ستُطبع المقابلة اليوم». لم يبدُ لي مستاءً، أظنُّ أنَّه كان معجباً بأولئك الصحافيين الذين يتركون بين الفينة والأخرى مكاتبهم في غرفة التحرير وينزلون إلى المطبعة ويلطّخون أيديهم بالحبر.

كان فصل الصيف من أجمل الأوقات لدى المتدرّب الكفيِّ. وكان ثمَّة صحافيّ مخضرم يدعى إيثيكييل بيريث مونتيس، كان قد حطَّم الأرقام القياسيَّة كلَّها، فقد أجرى مقابلات مع ثمانية وزراء من حكومة فرانكو في يوم واحد فقط. لم تكن التصريحات رائعة، لكن يُحسب له الأمر أنَّه أجرى تلك المقابلات. كان صحافيّاً مشهوراً، وهذا ما حمله على حفظ مسافة مع الآخرين. بالنظر إليَّ كان مشهداً رائعاً رؤيته وهو يمارس المهنة. لا أزال أتذكَّر اليوم الذي أجرى فيه مقابلة مع رسَّام محليّ في حاجة ماسَّة إلى الثناء، سأله إيثيكييل:

- أين تحبّ أن يعلّقوك يا أستاذ؟

والرجل لم ينقصه الحماس عندما أجاب من كلِّ قلبه:

- في اللوفر، بكلّ تأكيد!

اعتاد معظم الصحافيين التمتُّع بإجازاتهم في الصيف، وهذا ما مكَّنني من القيام بمهام عدَّة، بدءاً من كتابة أخبار الميناء أو إرضاء رغبة كتابة قصيدة تحتوي على أسماء القوارب التي ترسو أو تبحر أو كتابة خبر في صفحة الأحداث بصيغتي الخاصّة التي احتفظت بها دوماً من أجل بداية رواية ما: «القضيَّة قيد التحقيق. التحقيق؟ وما الأدب غير ذلك».

كتبتُ كذلك عن الأبراج بضعة أيّام، ولم يكن الأمر بتلك البساطة. لمَّا كنت أرى أحدهم يكتب عن الأبراج، أو حينما أقرؤها، كنت أخمِّن أنَّ الأمر

أقرب إلى أن يكون مزحة. وهكذا بدأت. عرفت أشخاصاً من برج الحوت والميزان... إلخ. في الحقيقة، كنت أعرف أشخاصاً من جميع الأبراج حتّى من برجي نفسه. إنّما، ماذا إن لحق الأذى بأحدهم؟ أدركت أنَّ كلَّ ما يكتبه المرء يُلزم. حتَّى الأبراج نفسها يمكن تصنيفها كأدب ملتزم.

في ذلك الوقت، نشبت مشكلات واضطرابات داخل المؤسّسات السياسيَّة. تعرَّضت المنظَّمات الديمقراطيَّة المناهضة لحكم فرانكو للملاحقة والاضطهاد. في بعض الأحيان، كنَّا نسمع في أثناء الليل بعض الضجيج عند الباب فيخرج أحدهم ممَّن يبعثون على الثقة، مثل غاثينو أو بيتا، وأحياناً كنت أخرج أنا، لنلتقي بأشخاص في عجلة من أمرهم يحملون خبراً سريّاً ما أو أثراً يدلّ على أنَّهم سجناء هاربون. في إحدى المرّات، كان هناك عند الدرج مونتشو ريبويراس، الذي قُتل على أيدي رجال شرطة فرانكو في فيرول. حينها، كانت تعمل في **الإيديال** شابَّة تدعى مارغاريتا ليدو. فجأةً اختفت من غرفة التحرير. في البرتغال، كانت قد اندلعت في تلك الأثناء ثورة كلابيليس، تحديداً في الخامس والعشرين من أبريل من عام ١٩٧٤. أثار هذا الحدث غضب نظام فرانكو، وبسرعة تمَّ القبض على مجموعة من الجنود الديمقراطيين الإسبان من الوحدة العسكريَّة الديمقراطيَّة. حاولت مجموعة عسكريَّة برتغاليَّة تشكيل قوّة مضادّة انطلاقاً من غاليسيا. ذات يوم، همس لي شخص ما: «هل تجرؤ على أخذ حقيبة فيها أغراض شخصيَّة إلى رجل مضطرّ إلى الهرب؟» أعطوني العنوان وذهبت. إنَّما، مَن اختفى فعلاً كانت مارغاريتا، التي اجتازت الحدود على نحو سريّ في طريقها إلى المنفى البرتغاليّ. عانق كلٌّ منّا الآخر، وهناك أمضت سنوات. فقدت الآلة القمعيَّة صبرها إلى أن قبضت على غاثينيو نفسه. كانت تقاريره السياسيَّة أيّام الأحد

الأكثر قراءة في غاليسيا، من قبل الجميع. اتُّهم محلّل الصحيفة الكاثوليكيّة من قبل الحكّام بأنَّه «عقل» المعارضة الديمقراطيَّة المدبّر. غير أنَّ غاثينيو كان صحافياً حقيقيّاً ومحترفاً فحسب، يحتفظ بكلّ شيء في عقله. أمَّا نظام فرانكو، وعلى الرَّغم من نظام التجسّس والمراقبة الشامل، راح يتخبَّط ويقوم بممارسات عشوائيَّة. كنَّا نشهد انهيار الديكتاتوريَّة على مهل، وكانت تلك اللحظات مخيفة، تولّد رعباً على رعب. ذات مساء، خرجنا، مجموعة من الصحافيين، في مظاهرة وصولاً إلى دار الحكومة المدنيَّة بغية تسليم بيان نشجب فيه مطاردة الساحرات ونطالب بإطلاق سراح جميع المسجونين. شارك في تلك المظاهرة الصحافيّون الديمقراطيّون، ووقفنا أمام دار الحكومة، بضعة أشخاص. أحياناً، القلَّة تبدو كثرةً كما هو الأمر في حالات الغرق. غير أنَّنا لم نشعر قطّ بالوحدة، ولا سيّما عندما تقدَّمنا لويس بيتا وشقَّ الطريق أمام الجميع.

لا أشعر بالحنين إلى تلك الفترة. «وما الحنين إلّا شعور يجتاح الكلاب عندما يأخذون منها العظام»، اعتاد أن يقول المفكِّر الحرُّ أنطونيو سيرخيو في جداله مع رسول الحنين تيكسيرا دي باسكوا. ما أشعر به حقّاً هو حنين إلى تلك الفترة التي كنت فيها متدرِّباً، أذهب وأجيء دون أن يراني أحد. كنت صحافياً غير مرئيّ. يا تُرى، مَن يكون ذلك الفتى؟ إنَّه صحافيّ متدرِّب في **الإيديال**، أوَليس لديهم أيُّ بديل آخر! صحيح أنَّني كنت صحافيّاً غير مرئيّ، لكنَّني سمعت كلَّ شيء، وأنتبه إلى أيِّ شيء، ولا سيّما تلك الأصوات المرتعشة التي تخبر فضيحة حدثت للتوّ: في البلديَّة، كان مستشار الثقافة والرياضة والاحتفالات غاضباً من مدير فرقة مسرحيَّة وعبَّر له عن ذلك:

- كيف يخطر في بالك أن تقترح مسرحيَّة «**لا أوستيادا**» لمهرجان المسرح؟

- لا تُدعى أوستيادا، بل أوريستيادا.

- ما تقول يا رجل! هذا أسوأ!

لم يحتمل مدير الفرقة المسرحيَّة أكثر من ذلك، فقال للمستشار الثقافيّ:

- اسمع، إنَّ الوحش الذي يحمله البعض في دواخلهم، تحمله أنت في مظهرك هذا!

راح المستشار يتأمَّل من مركز سلطته، وانتظر حتَّى تراوده الأفكار. شعر بالإهانة والارتباك. بدا كأنَّه سيلقي أفظع انتقام، أخيراً قال:

- دعونا لا نبدأ بالتلميحات!

استوعبت جيّداً معنى كوني صحافيّاً متدرِّباً وعشت التجربة بكلّ تفاصيلها، كذلك الأمر لدخولي في حقل الصحافة بفضل بعض القصائد. تمكَّنت من السفر إلى مدريد للدراسة في كليَّة الإعلام الجديدة. كنت قد حصلت على منحة دراسيَّة ورحت أرسل مقالات على نحو يوميّ تقريباً، حيث صدرت في زاوية حملت عنوان **محطَّة الشمال**، وهو اسم مستوحى من المحطَّة التي كنَّا نصل إليها عبر شركة نقل الأتلانتيكو إكسبرس، في رحلة مدّتها إحدى عشرة أو اثنتي عشرة ساعة، على الطريق الحديديّ الواصل بين كورونيا ومدريد. شكَّلت القصائد وصمة العار التي كانت جزءاً من جسدي. كان التمرين الأوّل الذي طلبوه منّا في كليَّة الإعلام حول اللّغة الصحفيَّة والدقَّة، وكان هذا شغفي. لمَّا أعاد إلينا الأستاذ فيديريكو يسارت واجباتنا، قال بصوت مرتفع:

- هذه ليست صحافة، هذا أدب!

كان صحافياً محترفاً، ومن أفضل الأساتذة في تلك الكليّة قيد الإنشاء، التي ضمَّت كذلك بعض الأساتذة البائسين. عمل فيديريكو حينها في كامبيو ١٦ الأسبوعيَّة، وهي واحدة من أكثر وسائل الإعلام تأثيراً في ذلك الوقت. لم يؤلمني ما قاله حينها عن واجباتنا، بل على العكس أحببت أن تبدو له مقالاتي أشبه بالأدب.

لطالما كنت صحافياً متدرّباً، ولم أتوقَّف عن كوني ذلك، عرفت الأمر في اليوم الذي قابلت فيه المرأة العاديَّة.

اخترت حينها للقيام بفترة تدريبيَّة في مركز بثّ التلفزة الإسبانيّة في غاليسيا. لحسن حظّي، كان قد تمَّ تعيين أليكساندر كريبيرو مديراً للمركز. كان مخرجاً وشاعراً. عمل لفترة طويلة في مدريد حيث كان ناشطاً في نادي أصدقاء اليونيسكو. كان الفصل صيفاً ومعظم العاملين في المركز في إجازة، فجمعنا كريبيرو، الحاصلين على منحة التدريب، وسألنا فجأةً:

- ماذا ستفعلون؟

كانت لدينا أفكار لكنَّها تلاشت، إذ لم نكن مستعدّين لذلك.

- بي بي سي. همس أحدهم.

- افعلها إذاً! قال كريبيرو بهدوء كبير. - لكن بجديَّة. ما القضايا الراهنة التي يجب أن نتناولها اليوم؟

في تلك الفترة، كان الجدل قائماً حول القانون الأوّل الذي عالج حريَّة انقطاع الحمل، أو ما عُرف بقانون الإجهاض. حتّى ذلك الحين، كانت المرأة

التي تجهض تُحبَس. لم يكن النقاش وارداً في تلك الفترة الانتقاليَّة، فالأفواه لم تطلق سوى الغضب واللعنات.

- لم يخطر في بالكم الحديث عن الإجهاض! حذّرنا كريبيرو متوقّعاً ما جال في أذهاننا.

حقّاً، إذا أردنا أن نكون كالـــ بي بي سي، فلا بدَّ أن نتناول قانون الإجهاض.

وافق كريبيرو، لكن بشرط:

- يجب أن تبدأ نشرة الأخبار بثلاث أفكار ضمن الإطار الزمنيّ نفسه؛ ممثّل عن الكنيسة ضدّ القانون، امرأة مدافعة عن حقوقها، ورجل أو امرأة كأنموذج عن الشخص العاديّ.

بدا الأمر بسيطاً، ولا سيّما في سانتياغو. خرجنا إلى ساحة الأوبرادويرو، أنا والمصوّر، وتمكنَّا من الحصول على تصريحات الكنسيّ السيّد بريثيدو. لم يكن كذلك صعب الحصول على رأي امرأة مدافعة عن حقوقها، ففي كومبوستيلا تعايشت تلكما الروحان منذ زمن طويل، المتزمّتة والحرَّة، وبقي العثور على شخص عاديّ.

كنَّا لا نزال نصوّر بكاميرا السليوليد الثقيلة. ربطني بالمصوّر سلك الميكرفون. شكَّلنا معاً نوعاً من هجين أثريّ مستقبليّ يتنقَّل ببطء وحماس. كان المصوّر يعرف المدينة أكثر منّي، فسألته:

- هذا الشخص القادم أمامنا يمكن أن يفيدنا؟

- هذا؟ ألا تراه غير مهتمّ.

- وماذا عن ذاك العابر من هناك؟

- ألا تراه كيف يستطيع أن يأكل الكنيسة بأسنانه!

بعد مرور ساعة ونصف، وبينما كنّا نقترب من موعد العودة إلى غرفة الأخبار، أدركت صعوبة العثور على شخص عاديّ في أكثر اللحظات ضرورةً.

كنّا قد أوشكنا أن نستسلم عندما وجدت أخيراً ذلك الشخص.

كنّا وسط ساحة تورال، إلى جوار نافورة، ودخلت هي السّاحة من أحد الشوارع الفرعيّة. ما إن دخلت، رأتنا. ونحن كذلك. نظر إليّ المصوّر وأومأ إليّ بموافقته. إنّها هي. عثرنا عليها. كانت تحمل أكياساً في يديها أثقلت حركتها. سرنا إليها كي نتقاطع معها، لكنّها حاولت الهرب عبر شارع فرعيّ، غير أنّنا استطعنا عبر سلك الميكرفون الإحاطة بها ومنعها من الخروج.

هناك، كانت أمامنا، تلهث خائفة. كانت شخصاً عاديّاً.

- أجيبينا يا سيّدة، قلتُ لها من دون مقدّمات – ما رأي حضرتك في الإجهاض؟

خفتُ أن تبدأ بالصراخ أو أن تطلب المساعدة. استخدمتُ معها لغة مهيمنة. إلّا أنّها هدأت ونظرت إليّ بثبات.

- اسمع يا فتى، لست من هنا، وقد جئت كي أشتري حذاءً لا أكثر ولا أقلّ!

ركضنا إلى الاستديو كي نتمكّن من إذاعة نشرة الأخبار الأولى. كانت هي. أخيراً عثرت عليها. الشخص العاديّ!

٢٢. ابتسامة الفتاة الفوضويَّة

كان يوم أحد رائعاً، وقد طلبت إليَّ ماريا أن أرافقها إلى قرية ساحليّة حيث من المفترض أن تُقامَ فيها مسابقة للرسم في الهواء الطلق. ذهبنا في حافلة وجلست هي إلى جانب النافذة. كلُّ ما حولنا كان يبعث الضوء، حتّى هي كانت تحمل أشياء مشرقة تلائم ضوء يوم الأحد ذاك. مزيج من الألوان في سلَّة القشّ الملفوفة بالقماش حيث الأقلام والألوان الزيتيَّة وأواني الزجاج ولوحات مزج الألوان. كان على المشاركين في المسابقة أن يختاروا مشهداً من المشاهد المحليَّة، وأذكر أنَّ ماريا كانت قد رسمت منازل الصيَّادين البحريَّة والحانات المجاورة لها. كانت هندسة عمارة اللوحة توشك أن تنهار، لكنَّ ضوء ذلك اليوم منحها بريقاً آخرَ، كلّ هذا بأسلوب وألوان بحريّة عكست بوَّابة الحانة الغامضة. كنتُ أتنقَّل بين هنا وهناك مراقباً ومقارناً. لم تستطع عيناي أن تكذبا، فالعيون لا تعرف الكذب. في تلك اللوحة لماريا، وجدت شيئاً لم أجده في أيٍّ لوحة أخرى: إعادة بناء ذاكرة الألوان. في ساعة المغيب، عندما حان وقت اتّخاذ القرار في مسابقة البلديَّة، مُنحت ماريا جائزة الشرف.

كان طريق العودة صامتاً ومريراً، فجائزة الشرف، التي فازت بها ماريا، قيمتها معنويَّة من الناحية النظريَّة، لكن كانت هناك جوائز ماليَّة أخرى حصدها رسَّامون محليّون. علاوة على ذلك، كان على الفائز بجائزة الشرف أن يتبرَّع بلوحته لمنظّمي المسابقة، لذلك، في أثناء عودتنا إلى المنزل، انتابنا

شعور التعرُّض للنهب المُشرِّف، ولا سيّما ماريا بسلَّة ألوانها وابتسامتها الحزينة. وهذا تحديداً ما يميّز منزلنا.

بالنظر إلى ماريا، منذ شبابها، اعتمدت على نفسها للحصول على النقود، وكان ذلك مهمّاً لها. في سنّ المراهقة أعطت دروساً لأطفال كاسترو الصغار في الصيف. منذ صغرها، ولا سيّما في المرحلة الثانويَّة، التزمت ماريا بالمقاومة ضدَّ الديكتاتوريَّة. كانت ناشطة في الجماعات السريَّة اليساريَّة مثل «**العلم الأحمر**». في يوم أحد ما أيقظتني أمّي يغمرها شعور بالخوف. حُفرت حفرة في خُمِّ الدَّجاج ومُلئت بالمنشورات. كذبتُ عليها وقلت لها إنَّها لي كي لا تفقد أعصابها. لطالما خافت أمّي على ماريا، إذ شعرت أنَّها شديدة الاندفاع وسبّاقة إلى كلّ شيء. وهذا صحيح! ابتعدت ماريا عن الجماعات الماركسيَّة، لكنَّها لم تبتعد عن الكفاح عندما أدركت أنَّ فكرة تغيير العالم لا بدَّ أن تتعلَّق بطريقة عيش جديدة، وطريقتها الجديدة كانت الفوضويَّة. بدأت بدراسة الأدب في سانتياغو، وتابعت بحثها عن أعمال تمكّنها من إعالة نفسها، ولم تتردّد قطّ في ذلك. شعرت بشغف إزاء الأعمال الفنيّة الحرفيّة. كانت تخيط ملابسها وتصنع أثاثها، وتصلح الأعطال في المكان الذي تعيش فيه باستخدام صندوق أدواتها الحزينة والخاصّة، إذ بدت كلّ قطعة فيه فريدة وناجية من ورشات عمل قديمة. اعتادت أن تذهب أيضاً إلى الحقل أو إلى شاطئ البحر، وقد بدت في ذلك مثل جامعات البذور بعد الحصاد، اللواتي رسمهنَّ ميليه في محاولة منه لإبراز المفيد في كلِّ أمر مخفيّ. ثمَّة بعض واجهات المتاجر حيث كانت ماريا تقف وتتأمّلها بانتباه: المكتبات ومتاجر المعدّات، إضافة إلى البقاليات حيث تحصل على صناديق خشبيّة وكرتونيّة تلوّنها وتشكّل منها رفوفاً لمكتبتها. على رفوف مكتبتها،

وإلى جانب كتب القواعد والقواميس، وجدت موسوعة «**اصنعها بنفسك**» وكتاب «**الحبّ الفاضل**» لخوان رويز إلى جانب كتاب أحبَّته ماريا كثيراً عنوانه «**جمال الفوضويَّة**» لأندريه ريزلير. كانت ماريا تعيد تدوير كلّ شيء. فيما يخصّ الأفكار، راحت تشكّل حديقتها الخاصَّة مع رفاقها الخاصّين مثل كروبوتكين، هنري ديفيد وهيرمان هيس، أو برفقة نصوص عالميّة ذات طابع فوضويّ. كانت تأكل قليلاً، مثل ديك الغاب. صارت نباتيَّة. واعتادت أن تقول مازحة: «فوضويَّة؟ هذا أمر صعب!».

كانت الكلمات شغفها الآخر: تجول الكلمات، الجرح الذي تتركه، إعادة انبعاثها المتعدّد. كانت دائمة البحث عن الكلمات كطفلة تبحث عن دعسوقة الحظّ أو اليراعات في طرق كاسترو الليلية. كانت قد حملت الكلمات داخل جيبيها، في ورقات مبعثرة مثل أوراق النباتات التي تجفُّ في المنازل أو في دفاتر صنعتها بنفسها. وإن لم تجد ما تكتب عليه، استخدمت كفّي يديها أو حتّى جلدها كورقة نفيسة تدوّن عليه. بين الأعمال التي قامت بها كانت ترجمة بعض دبلجات الأفلام عن الإنكليزيّة والفرنسيّة، وقد شاركت هذا العمل مع لويس بيريرو. في بعض الأحيان طُلب إليهما ترجمة فيلم إباحيّ، فكانا يضحكان كثيراً. حينها كانت ماريا تقول: إنَّه فيلم كلاسيكيّ!

كانت الترجمة تقوم على أساس تقنية تحويل أنين المتعة إلى كلمات، إذ إنَّهم يدفعون ثمن الكلمة الواحدة، حتَّى لو كانت مؤلَّفة من مقطع صوتيّ واحد. اليوم، في ظلّ الرأسماليّة، أعتقد أنَّهم يدفعون للكلمة ذات ثلاثة المقاطع فحسب. كان عملها مؤقّتاً ولم يدم سوى لفترة وجيزة. أمَّا العمل الذي بقيت فيه مدَّة أطول، وكرَّست له جهدها ووقتها، فكان مع الفريق الذي ألّف القاموس من أجل الأكاديميَّة الغاليسيَّة.

أقمنا، نحن الاثنان، لفترة في المدينة نفسها، في سانتياغو. كنتُ أدرس في مدريد في كليّة الإعلام وعدت لأشكّل جزءاً من فريق تحرير أسبوعيَّة «تيما»، التي كانت الأولى في نوعها تصدر باللغة الغاليسيَّة منذ الجمهوريَّة الثانية. كانت فترة اضطرابات ممتلئة بالآمال والكثير من الخيانات أيضاً، حيث حاول النظام فيها البقاء في قيد الحياة بعد الديكتاتور. كانت تلك الفترة أشبه بأرضيَّة جليديَّة هشَّة وقف عليها ثقل التاريخ كلّه. هناك مَن قال إنَّ تلك الصحيفة الأسبوعيَّة فشلت فشلاً ذريعاً، أمَّا آخرون فقد وصفوها بأنَّها كغيرها من الصحف التي صدرت في تلك الآونة.

ما بدا لي معجزة حقيقيَّة آنذاك هو أنَّ فصل الربيع استمرَّ طوال العامّ كلّه تقريباً. عند كتابة التقارير، عشت كلّ يوم شعورَ أن يستقبلني الناس كحارسٍ للكلمات المختنقة، وفي الوقت عينه، واجهت معدّات الكراهية التي تقضي على الصمت. رافقتني ماريا إلى بعض من تلك المشاهد الخطرة. كان يوم «احتجاج الفلّاحين» في الخامس عشر من فبراير من عام ١٩٧٧، وقد طوّق الحرّاس المكان لتنفيذ قرار نزع ملكيَّة الأراضي من الأهالي وتسليمها إلى شركة استخلاص المعادن. وقفت النساء الفلَّاحات في الصفّ الأوّل يقاومن ضربات الحرَّاس باستخدام مظلات حملنها، وبقين اليوم كلَّه حتَّى حلول المساء. لم تستطع ماريا احتمال الأمر، ولم ترغب في أن تكون مجرَّد شاهدة على ما يجري، نسيت وجودي وذهبت مع الآخرين لمساعدة النساء فاقدات الوعي أو أولئك الجريحات، في حين استندت على ركبتيها وامتلأت بالوحل الممزوج بالدّم والتراب. أمَّا الحرَّاس، فمن مركز تجمّعهم، بعضهم اشتعل غضباً، وبعضهم الآخر شعر بالأسف، عابرين أمام الفتاة المستندة على ركبتيها كأنَّهم لم يروها. مع حلول الليل، نهضت ماريا وعادت إلى المنزل بصمت.

يتحدَّث شاغال عن الخيول الملوّنة التي رسمها العمّال والفلّاحون الروس في مدرسته الفنيّة لتزيين الشوارع في أثناء العرض الأوّل في مطلع شهر مايو، الذي يجري الاحتفال به في الهواء الطلق. بعد ذلك اليوم، لم تعد هنالك خيول، بل لوحات لوجوه شخصيّات رسميّة. كانت أحصنتنا الملوّنة هي تلك التجارب الصحفيّة غير القابلة للترويض في إسبانيا إبّان الفترة الانتقاليّة، متمرّدين من خلالها على تلك البلوى الفاسدة والوطن «المقيّد جيّداً». في نهاية المطاف، انتهى الأمر وطغى اللون الرماديّ على كلّ شيء.

عشنا أنا وماريا في تلك الفترة المؤرّقة في شقّة قديمة في ألغاليا. كان المنزل يدلف من كلّ غرفه، إضافة إلى أمور أخرى غامضة حدثت في المنزل. سمعنا ذات يوم همساً صادراً عن العليّة، وكان ثمّة باب مغلق بشكل دائم قرّرنا أنا وماريا فتحه بأيّ طريقة. وجدنا رجلاً «بريئاً» محتجزاً هناك. كان يمضي يومه وهو يفصفص البذور وقد ملأ أرض العليّة بالقشور. لم يتكلّم. عبّر عن نفسه بأصواتٍ غريبة. لم يتحرَّك. ظهرت على وجهه تعبيرات الدهشة عندما أدرك أنّ من فتح الباب لم يكونا سوى شاب وشابة مجهولين. ارتسمت على وجهه ابتسامة، ابتسامة الألم. له، على الرّغم من ذلك، وجه لطيف جعله يبدو أصغر من عمره الحقيقيّ. تحدَّثنا إلى مالكة المنزل فطلبت إلينا ألّا نعيره اهتماماً فهو شخص وديع. حقّاً؟ لكن، ماذا يفعل محتجزاً هناك؟ في اليوم التالي، لمّا استيقظنا، لم يكن موجوداً. ترك خلفه قشور البذور على السلالم.

كانت ماريا الوحيدة في الأسرة التي عرفت أنّني احتجزت في مدريد. وقد أخفيتُ الأمر تجنّباً للقلق. حدث ذلك بعد فترة وجيزة من وصولي إلى المدينة للدراسة، في سبتمبر عام ١٩٧٤. كنت سأبلغ السابعة عشرة في شهر

أكتوبر. ليلاً، خرجنا في مظاهرة في شارع «برينثيسا». كان رجال الشرطة على دراية بكلّ ما يجري، وجاءت صرخاتنا الأولى بمنزلة إشارة لهم للتحرّك. سرعان ما خرجوا من كلّ مكان من حولنا، في كمين حقيقيّ. قمنا، بمجموعة كبيرة من المتظاهرين، بالدخول مثل الخراف في طريق مغلق، وقد تبعنا صوت شخصٍ تقدَّمنا له شبه كبير بالشاعر ليوبولدو ماريا بانيرو. كان مشهداً كوميديّاً. انتهى بنا المطاف في أكثر الأماكن رعباً في إسبانيا «الإدارة العامَّة للأمن» في ساحة سول.

احتُجِز معظمنا مدَّة يومين في زنزانات مكتظَّة. بعد تعرُّف هويّاتنا، أجبرونا على خلع ملابسنا وصوَّرونا من أجل القيد. في زنزانتنا كنّا خمسة أشخاص محشورين ولم أعرف منهم سوى شخص واحد: رامون بيرناس. لم يكن أيّ منهم يشعر برغبة في الكلام. لمّا حان دوري، أصعدوني إلى مكتب التحقيق. لم تكن لحظة تاريخيَّة. لم ينظر إليَّ واحدٌ من الشخصين الاجتماعيين، كما كنّا ندعو رجال الشرطة السياسيَّة آنذاك، فقد بدا منهمكاً في مهامه الفكريَّة. أمَّا الآخر فجعلني أكرِّر له معلومات بطاقة الهويّة. «وأنت غاليسيّ، طبعاً! تفضحك لهجتك!». لطالما حصل لي ذلك في ما يتعلَّق الأمر باللهجة، وخطر في بالي الشّاعر البيروفي سيزر باييخو الذي قال «لهجتي تتأرجح من حذائي»، غير أنَّني لم أقل شيئاً إذ لم أرغب في الإفصاح عن الشعر في أثناء التحقيق.

- هل أنتَ من الطرف الآخر؟ ضدّ فرانكو؟

- نعم.

وصفعني صفعة حرفيّة، وتالياً ذكَّرني أنَّ فرانكو غاليسيّ أيضاً. ثمّةَ أشخاصٌ كثرٌ مستعدّون لتزويدك بمثل هذه المعلومة!

- لا بدَّ أنَّك أحمق!

لم أردَّ على تلك الجملة، كما أنَّني لم أفهم الصلة بين لهجتي وكوني مع أو ضدّ الفاشيَّة. شعرت بالقلق من الشرطيّ الآخر، المفكّر، وما إن كان قد دوّن في التقرير الخاصّ بي كلمة «أحمق». في أثناء ذلك الكابوس، كنت آمل أن يكون قد كتب على الأقلّ «أحمق مفيد». هذا كلّ ما فعلوه بي، إذ كان لديهم عمل كثير ذلك اليوم غير أن يعبثوا مع طالب أخرق. عاد أحدُ الموقوفين معي، وهو شابّ ميكانيكيّ، قُبض عليه في المنطقة الصناعيَّة في مدريد، بإصبع مكسور ويد ملطَّخة بالدَّم. لم يشتكِ أو يُبدِ أيَّ تعبير عن الألم. كان مثالاً يُحتذى به. غير أنَّ الجميع كان صامتاً، ربَّما ترقّبنا بأمل سخيفٍ أنَّ أصوات الهمس والخطوات تلك القادمة من ساحة سول، التي سمعناها من زنزانتنا، ستكون أصوات من سيحرِّروننا. عبثاً. لم تكن شيئاً، فكلّ الأصداء التي سمعناها تلاشت ليلاً. مع هذا كلّه، لم أشعر أنَّني مناضل، شعرنا جميعنا بالذلّ. في اليوم التالي، جاء إلينا رجل يحمل دلواً من العدس، وسكب لكلّ واحد منّا معلقة كبيرة من الزنك في الوعاء الذي وزّعه علينا ثمّ غادر ضاحكاً بعد أن قال للجميع: «اللعنة عليكم!».

لطالما تشاركنا أنا وماريا الأسرار عندما يتعلَّق الأمر بالحزن.

بشرة ماريا بيضاء للغاية وفيها نمش بلون خبز الذرة. كنتُ أحبُّ شخصيّتها، وجسدها أيضاً. ببشرتها البيضاء، ونمشها قمحيّ اللون قبل أن يجفَّ تماماً، في أحد الأيّام، حينما كنّا في ألغاليا، عانق كلّ منّا الآخر بسبب موج البحر المتخاصم. كانت حزينة لأنَّها فقدت حبّاً، أمّا أنا فكنت حزيناً لأمر آخر. بقينا نائمين على ذلك السرير المناسب للأحزان محاطين بالدِّلاء والأواني التي استخدمناها لاحتواء قطرات الدلف.

إنّما، هذه المرَّة لم تتصل بي!

عرفت بمرضها عندما كنتُ أعيش في إيرلندا مع إيزابيل والأولاد. كنّا في تلك الفترة نعيش شمال نهر ليفي، في تمبل فيلاس، بالقرب من سجن أربور هيل، ما جعل الإيجارات هناك أرخص. كنّا سعداء في دوبلين، ففي كلّ يوم سبت، في سميثفيلد، بالقرب من المنزل، يُفتح سوق الخيول والبطاطا. كانت أختي شابيلا من اتّصلت بي. لم تكن الهواتف المحمولة قد انتشرت بعد، أمّا الهاتف الأرضيّ فرنّته لا تخطئ. أفهم الآن لماذا لم يكن والدي يردّ على الهاتف قطّ، كان يشمّ رائحة القدر. ماريا ليست على ما يرام. إنّما، ما درجة سوء حالتها؟ سيّئة جدّاً، سيجرون لها عمليّة، لكن يبدو أنَّ المرض قد انتشر. بالفعل انتشر، وفات الأوان.

ذات يوم رافقتها إلى سانتياغو، أردت التحدّث إلى الطبيب الذي أجرى لها أوّل عمليّة، ولم يكن ثمّة أيّ أمل في كلمات أو عينَي أو ملامح ذلك الرجل. دقّقت النظر في العيادة، فكانت جدرانها عارية مظلمة، أمّا الطبيب فكان يتكلّم ووجهه مضاء بضوء المكتب.

- «كان عليّ أن أعود إلى هنا». قالت لي ماريا عندما خرجنا. رحلتي إلى قلب الظلام.

في الغرفة نفسها التي ماتت فيها ماريا في كاسترو، مات كلٌّ من أبي وأمّي بعد فترة قصيرة. عشيّة وفاتها، استيقظت أمّي وهي تشعر بطاقة غريبة بعد أيّام عدّة من استلقائها وعدم قدرتها على الحركة. نهضت من ذلك السرير وأرادت أن ترتّبه بنفسها بملاءات ناصعة البياض كتلك التي تغسلها يدوياً. بعد ذلك، خلدت إلى النّوم وابتسمت ابتسامة الألم: «وداعاً، وداعاً!».

أمّا أبي، فطلب رفعه وهو على سرير تقويم العظام الطبيّ، الذي صنعه له باكو، إلى أعلى نقطة فيه كي يشفى من دواره. وإذا ما جاء أحد لزيارتنا، اعتاد أن يقول له: «انظروا كيف تواكب الصناعة المرضى أيضاً!».

نعم، في تلك الغرفة الصغيرة ماتت ماريا. في أيّامها الأخيرة طلبت إلينا أن نساعدها في الرحيل كي لا تتعذّب كثيراً. إنّها كعادتها، سبقتنا في كلّ شيء، ومدّت يدها للمساعدة. في ذلك اليوم، لم نرَ أصحاب الرؤوس الكبيرة، الملوك الكاثوليك، من النافذة، بل خضرة شجرة الليمون المنكمشة على نفسها، التي نمت بين تراب وركام منزلنا الأوّل.